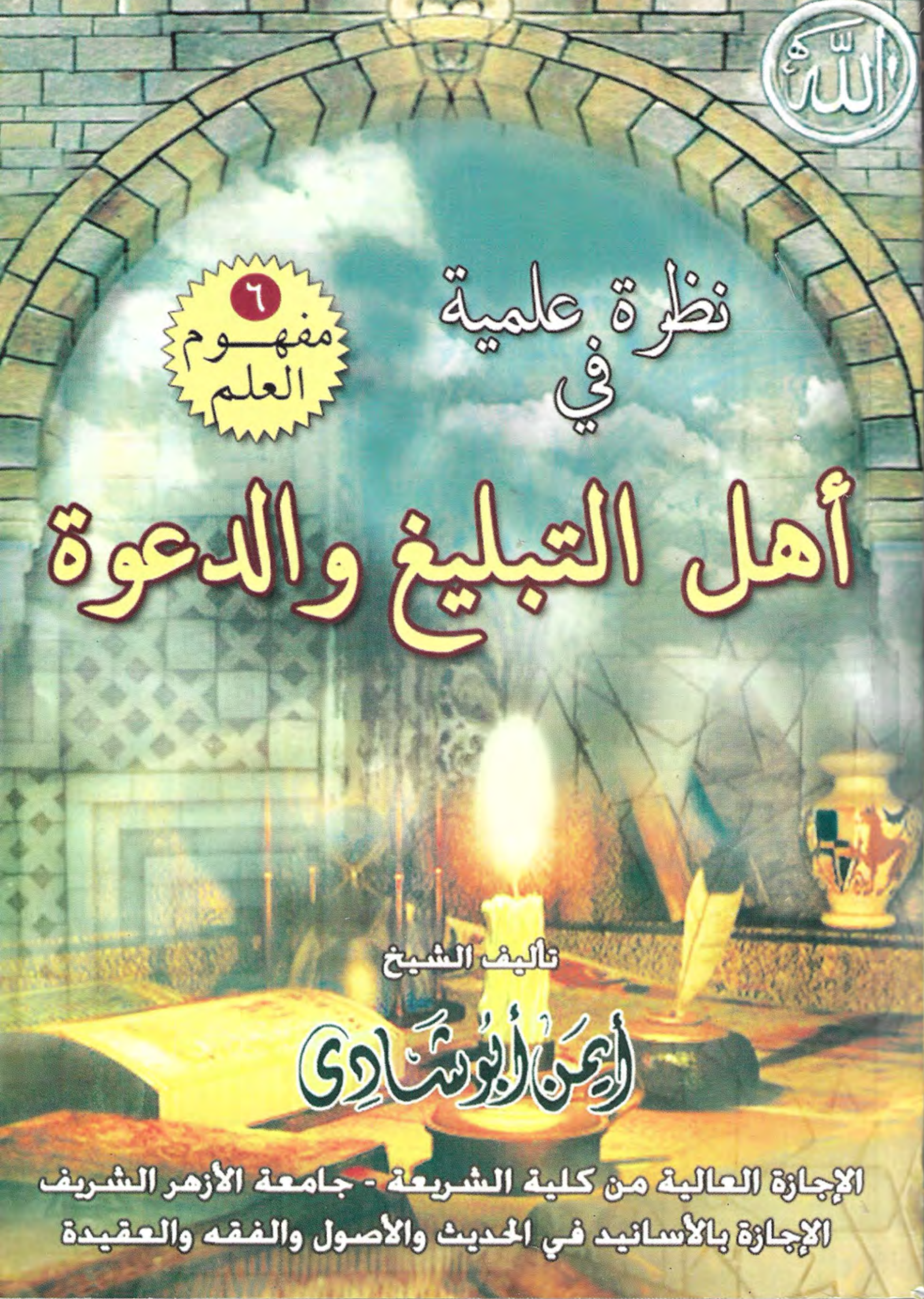


الله
٦
مفهوم
العلم
نظرة علمية
في
أهل التبليغ والدعوة
تاليف الشيخ
أيمن أبو شادي
الإجازة العالية من كلية الشريعة - جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

# نظرة علمية

الجزء السادس
مفهوم العلم

# في

# أهل التبليغ والدعوة


تأليف

## الشيخ أيمن أبو شادي

الإجازة العالية من كلية الشريعة – جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

الجزء السادس

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠١٠_٢٣٦٥٩

لطلب الكتاب خارج مصر ت: ٢٦٣٥٣٤٣٦

عنوان المراسلة: ١٣ شارع

بركات_طومانباى_القاهرة_ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

# كتابنا هذا...

" مَن سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّل اللهُ له به طريقًا إلى الجنة".

إذا سَلَكْتَ طريقَ العلمِ فتعلم النيةَ للعَمَلِ كما تتعلم العلم...

فما عُصيَ اللهُ عز وجل بمعصية أعظم من: الجهل، وما أُطيع الله تعالى بمثل: العلم، وأكمله معرفة العلم أي شيء هو؟ والعلم بالعالم من هو؟

فزين نفسَكَ بالعلم ولا تَتَزَيَّنْ به...

أي أدب نفسك بالعلم لله عز وجل، فتكون زينا في عباده...

ولا تتزين بالعلم عند الناس ليمدحوك عليه، ونفسك غير زكية...

فصلاحُ أعمالنا بصلاح قلوبنا، وصلاحُ قلوبنا بصلاح نيَّاتنا....

فمَن كان ظاهره أرجحَ من باطنه خفَّ ميزانُهُ...

ومَن كان باطنُهُ أرجحَ من ظاهره ثَقُلَ ميزانُه يوم القيامة

فالنية هي: الإخلاصُ وهي: الصدقُ، وهي: صحة عقدنا، وحسنُ قصدنا...

وأفضل الأعمال: ما دخلنا فيه لله عز وجل، وخرجنا منه لله عز وجل.

وأفضل النيات: أن لا نريد بأعمالنا إلا وجه الله تعالى تعظيمًا لحق ربوبيته علينا...

وإلزامًا لأنفسنا وصف عبوديتها اللائق بنا...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونستعين به سبحانه على كل أمر عظم شأنه، واشتد خطره، واختَّل نظامه، ونصلي ونسلم على خير خلقه وأفضل رسله سيدنا ومولانا محمد ﷺ صلاة يكون من بركاتما صلاح الحال، ونتحصل من خيرها حسن المآل، ونرقى بها في مراقي التقى والكمال...

وبعد...

الإنسان لما تعلم بعض العلم؛ بدأ يتكَبَّرُ على الأعمال التي كانت سببَ كل خيرً له وللناس، فلم يشكر النعمة....

ونحن في عمل الدعوة نجتهد على كل مسلم حتى يقترب من الله عز وجل، ولو لمسافة قليلة، فتأتي له المعونة من الله تعالى "من تقرَّبَ مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة". ليس هناك أحد يعرف الله تعالى بالحقيقة ثم يعصيه، فالعلم نور ونور الله لا يُؤتى لعاصي، فلابد من الإيمان قبل العلم، وقبل القول والعمل، ونحن نجاحنا وفلاحنا في الامتثال لأمر الله عز وجل على هدي النبي صلى الله عليه وسلم في جميع الأحوال...

فنحن لسنا مطالبين بتغيير الأشياء ولكن مُطالبين بالامتثال في كل وقت لأمر الله تعالى وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإذا رُفع الضر أو تغيرت الأحوال فهذه نعمة من الله تعالى، وإن لم تتغير الأحوال وترتفع المصائب فنحن في ذات الوقت قد نجحنا نجاحًا كاملاً، وتحصلنا على الفوز التام، لأننا امتثلنا أمر الله تعالى على كل حال، وهو المطلوب منا.

فأول الأشياء في عدم استفادة الناس من الأسباب الغيبية، هو نظرهم إلى النتائج، فالمريض الذي أخذ الدواء ودعا بالدعاء و لم يشف، هو فاز ونجح لأنه امتثل لأمر الله تعالى في هذا الحال، والداعي إلى الله تعالى لا ينتظر النتائج ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وأول مقاصد الدعوة هو تحقيق العبودية لله تعالى، وأن تكون محبة الله عز وجل في قلوبنا أكثر من أي شيء آخر ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ .

فلا تستكمل عبودية أي أحد لله تعالى حتى يجتهد في تعبيد الخلق لله تعالى، وحتى يتفكر في النطف التي في الأصلاب كيف تأتي إلى الدنيا وهي على قدم العبودية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده".

والجهد على الآخرين من تمام إصلاح أنفسنا، وإذا لم تظهر النتيجة لا نتوقف لأننا نجتهد لإصلاح أنفسنا أولا...

فعلوم الصحابة رضي الله عنهم كانت لهداية الناس، وبعض العلوم الآن فتنة لأنها لجلب المال والرياسة؛ لهذا سلط الله تعالى أهل الدنيا عليهم فجعلهم في المحل الأدنى ﴿يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

فالإنسان بدون نور العلم والهداية والاجتهاد على تحصيله، يرى الباطل حقًا والحق باطلاً، لضعف نظره وبصيرته، وبنور العلم والهداية يرى الإنسان كل الأشياء على حقيقتها، فلا ينطبع في قلبه اثر المحسوسات، ومع هذا فالموفق هو من لا يركن إلى نفسه، ولا يثق بحدسه وظنه، ولا يتيقن على نظره، بل دائمًا يستعين بربه الذي يعلم

السر وأخفى، ويضيف الى مولاه كل خير وسداد ،مستلهمًا إياه كل رشاد، مفوضًا اليه التوفيق إلى الحق والهدى، والعصمة من الضلالة والردى، وليهتف إلى ربه متضرعًا [اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه].

فرؤية الحق على حقيقته حقًا نعمة من الله تعالى، وهي لا تكون إلا بنور العلم والهداية، فإذا ما أتم الله تعالى النعمة على العبد، وفّقه بعد ذلك لإتباع هذا الحق في حقيقته، كذلك رؤية الباطل باطلاً إنما هي نعمة أخرى من الله تعالى، وأيضًا لا يتمكن الإنسان من ذلك إلا بنور العلم والهداية...

فإذا ما أتم الله تعالى النعمة على من وفقه لذلك، أعانه على اجتناب هذا الباطل بحوله سبحانه وتعالى وقوته لتوكل هذا العبد عليه، وإنابته إليه، واستعانته به وحده، واستغاثته إياه، فقدرة الله تعالى آثارها جلية ظاهرة في كونه وخلقه، ولكن الإنسان لا يراها على حقيقتها إلا بنور العلم وهو من الله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فنحن إذا قلنا يا رب علّمنا لأننا لا نعلم، فإن الله عز وجل يعلّمنا ويفهمنا "ففهمناها سليمان"، وإذا قلنا نحن متعلمين وفاهمين فهذا قول قارون ﴿ إنما أوتيته على علم عندي﴾ ،

والله تعالى يُذهب عنا العلم والفهم، ويلبُسنا الكبر والصولة، فنتعظم بهما على عموم المسلمين...

نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقا ويرزقنا إتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه إنه ولي ذلك والقادر عليه بمنه ورحمته آمين.

"يا دعوةَ النبوة"

رُدِّي نداءَك بطرف العين.. رُدِّي نداءَك للعالمين

رغمًا عني دروبُ الوحشة فَزِعت مني

رغمًا عني سارت قدمي خلفَ الظلِّ

صارت تعبر زمن الحزن... فوق جناحِ الطيرِ الهائم...

هل ترعاني سحائبُ نصرَكِ من أعدائي؟

هل يلقاني سيفُ العزة كلَّ مساء؟

يُبدِّد عني ضباب الحسرة يضيءُ مكاني...

حتى الآن ... ليلُ الصرخة في الأجواء...

حتى الآن... يلف الليل رداء الخوف أمامَ ضيائي

يا بسمةَ المساءِ... فلترضخي لعزائي

فذئبُ الغرب الكاسرِ يطرقُ بابي

يعقرُ قلبي... يسرق قدمي... يحيطُ هوائي

ذئبُ القتل الضاري ورائي...

يُزلزلُ مجديَ الخالدَ حول الدنيا... يُزيلُ سمائي

ذئب الليل يُردِّدُ في الأصداء... قبيحَ عواء

فأين جوادي؟... وأين الريحُ العاصفُ والأنواء؟

أين القيصرُ يذرفُ دمعًا للأيام...؟

أين حصون الروم تسابق للإسلام.؟

عذرًا كسرى أني أراك خبرًا كان...

وأن جحافل لَيلك وَلَّت للنسيان...

أين تُراني أسوق الصبحَ... ومَن يعصاني؟

أين صهيلُ المجد التالد.؟ أين يا خالد...

تصرخ فوقَ مُروجِ الشام...؟

أيمن أبو شادي

# الشبهة السادسة:

## زعمهُم أن أهل الدعوة

## ليس عندهم العلم اللازم

## ولا يعرفون توحيد العبادة أو الألوهية

قالوا.. أهل الدعوة ليس عندهم العلم اللازم، وهم لا يهتمون بطلب العلم، وكيف تصح دعوقم بغيره، كما أنهم يقومون بهذه الدعوة ولديهم جهل كثير ويحتاجون إلى طلبة العلم الذين يبينون لهم أخطاءهم، إلا أنهم لا يرتاحون لذلك ولا يرغبون في المناقشة أو المباحثة معهم، ومع انتشار الجهل فيهم إلى ماذا سوف يدعون؟، وفاقد الشيء لا يعطيه، كما أنهم لا يتكلمون إلا فى توحيد الربوبية، ولايعرفون توحيد العبادة أو الألوهية، وليس لهم اعتناء به، مع أنه أساس دعوة كل الرسل، وهو خلاصة التوحيد...

هكذا قالوا.. وكذا يقولون...

وقد قيل ليحيى بن معاذ –رحمه الله تعالى-: متى يكون العبد مخلصًا؟

فقال: إذا صار خُلقه كخلق الرضيع لا يبالي من مدحه أو ذمه.

ولقد كان صالح المري –رحمه الله تعالى- يقول: من ادعى الإخلاص في العلم، فليعرض على نفسه إذا وصفه الناس بالجهل والرياء فإن انشرح صدره لذلك فهو صادق، وإن انقبض من ذلك فهو مراء.

وكان –رحمه الله تعالى- يقول: احذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتنكم بزخرفة كلامه، ومدحه للعلم وأهله من غير عمل به.

وقد كان منصور بن المعتمر –رحمه الله تعالى- يقول لعلماء زمانه: إنكم لستم علماء، وإنما أنتم متلذذون بالعلم يسمع أحدكم المسألة ويحكيها للناس، ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرعتم المرارات والغصص، ولحثكم علمكم على التورع حتى لا يجد أحدكم رغيفًا يأكله.

وكان بشر الحافي – رحمه الله تعالى- يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا كانوا لا يُعلّمون أحدًا حتى يروِّضوا نفسه سنين كثيرة ويظهر لهم صلاح نيته.

وكان عبد الرحمن بن القاسم -رحمه الله- يقول: خدمت الإمام مالكًا رحمه الله تعالى عشرين سنة، فكان منها ثمانية عشر في تعليم الأدب، وسنتان منها في تعليم العلم، فياليتني جعلت المدة كلها في تعليم الأدب.

ونقول مجيبين على ذلك، مستعينين بالله تعالى...

أصل المقصود من عمل الدعوة هو إقامة المسلمين وعموم البشرية على كل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، وأن تكون دعوتنا سبيلا لاستقامة الأمة على الإسلام الكامل علميًّا وعمليًّا...

فالدين ليس صورًا وأشكالا، إنما هو النظام الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعموم البشرية للسير على مقتضاه وتحصيل الفوز والفلاح الأبدي...

والنبي ﷺ قد تعوذ من العلم الذي لا ينفع، وهو العلم الذي لا يكون دافعًا لأن يعمل به صاحبه، فأكبر ذنب للعالم أن لا يعمل بمقتضى العلم ولا يؤدي حقه...

لذلك كان الخروج في سبيل الله تعالى والدعوة إليه، من أعظم أعمال الدين، فهو جهد إقامة حقيقة الإيمان، الذي به تقوم حقيقة الدين كله في العالم كله إلى يوم القيامة..

وقد يقوم البعض الآن بالاجتهاد في نشر الطلب على تحصيل علوم الشرع، مفترضين أن هذا الأساس الإيماني موجود، فيقومون بتعمير الظواهر والصور، مع عدم الحرص على أهمية أن يدخل هذا الإيمان الحقيقي في قلوب الأمة أولاً، والذي يتوقف عليه تحقق مقاصد العلم، من كمال الامتثال والانقياد لكل أحكام الشرع، ومعرفة وتعظيم الأمر المتوجه إلينا في كل لحظة من الله تعالى. ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ **[النساء: ٦٦]**.

# الإيمانُ قَبْلَ العلمِ
# وقَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ

عمل الدعوة إلى الله تعالى يُورِث الإنسان بالمحافظة عليه الحذر والاحتياط، وبالالتزام بآدابه وأصوله يقذف الله تعالى في القلوب نور الإيمان ثم نور التقوى، والإيمان موجب لأنه يقرب للطاعات، ويدفع لامتثال الأوامر والواجبات، والتقوى سالب لأنها الخوف والحذر فبها نجتنب الشهوات، ونبتعد عن المعاصي والمكروهات...

وبحرص الإنسان على الترقي في عمل الدعوة إلى الله تعالى يزيد في قلبه نور الإيمان ونور التقوى، منة وفضلاً من الله تعالى لمن قام للدلالة عليه، وتوجيه الخلق نحوه عز وجل.

والإنسان حتى يدخل الجنة لابد له من تحصيل الإيمان والأعمال الصالحة، حتى يكون متأهلا لأن تتوجه إليه رحمة الله تعالى "ان رحمة الله قريب من المحسنين "...

فالله تعالى أنزل لنا الدين والشرائع لتزكية نفوسنا، وعلق الله تعالى فلاحنا في الدنيا والآخرة على هذه التزكية، وجعل الخيبة والخسران على من دنس روحه وطرحها وأشقاها فقال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

لذلك طلب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم الزكاة لهذه الأمة، ودعا لها بالتزكية من الله تعالى بقوله: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ [البقرة: ١٢٩] فالله تعالى بعث الرسل لتزكية الأرواح، وتصفية النفوس، من الدنس والأكدار...

فالدين قام وازدهر بدعوة الرسل لأقوامهم، التي فيها التزكية والطهارة لأرواحهم، فقوام أي جسد من التراب، وقوام الروح وتزكيتها من الأوامر والنواهي، التي أنزلت على النبي ﷺ ، ومنَّ الله تعالى بها على هذه الأمة ﴿ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد جعل الله عز وجل عُلُوَّ كل أحد على قدر إيمانه، لذا قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [المجادلة: ١١].

فبدأ الله عز وجل عند ذكر الرفعة وشرف الدرجات، بأصحاب الإيمان، وأهل صفة الإيمان، فيرفعهم بالإيمان أولا، فإذا ما تعلموا العلم بعد الإيمان رفع درجاهم مرة ثانية بالعلم، فالإيمان هو الرتبة الأولى، ولابد منها ثم إذا جاء العلم فهذه هي الرتبة الثانية فوق الرتبة الأولى.

**قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ج١٧ ص٢٩٩: قلت: "أي الإمام القرطبي"** والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانيًا" **انتهى**

قلت: هذا للتنبيه على أن الإيمان هو الأساس والأصل، في العلم النافع والتعليم، وهو الذي يكون ثمرته الخشية وطول البكاء، كما وصفهم الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨].

فكان علمهم باعثًا على الخشية، لكون أساسه الإيمان، وهو العلم النافع، الذي وصف صاحبه في كتابه بالخوف، وأثنى عليه بالرجاء، ونعته بالعلم، فقال تعالى منوهًا به: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر:٩].

**قال الفضيل بن عياض:** "من أوتي علمًا لا يزداد فيه خوفًا وحزنًا وبكاء خليق بأن لا يكون أوتي علمًا ينفعه" **ثم قرأ** ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾ **[النجم: ٥٩، ٦٠]**.

وبهذا الإيمان والحرص عليه، والابتداء به، أفلحوا وأنجحوا، وحملهم هذا الإيمان على طلب العلم، ليعملوا به، لا ليجادلوا به العلماء، ولا ليماروا به السفهاء، ولا ليصرفوا به وجوه الناس إليهم، وهي المقاصد المذمومة في طلب العلم، والطرق المحمومة بعيدًا عن التقوى، وهي الصولة والتعظم والحقرية، على سائر المؤمنين بصورة العلم، حيث لم يحسن المؤمنون كما أحسنوا هذه الألفاظ، ولا نطقوا كما نطقوا بهذه الرموز...

مع أن هذه الألفاظ والرموز بمجردها لا تحتوي على حقيقة العلم، لأن حقيقة العلم ليس في ترديد هذه الألفاظ بمفردها، بل أن نتيقن على موعودها، ولأن هذه الأحاديث غير المسلمين أيضًا يستطيعون أن يحفظوا ألفاظها...

فالذين أوتوا العلم هم الذين يتيقنون على مواعيد الله عز وجل في نصوص الوحي الإلهي فليتزمون بها كما حدث في قصة قارون ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وما يلقاها إلا الصابرون﴾.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رحمه الله قال: (التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم على المروة فتحدثا ثم مضى عبد الله بن عمرو وبقي عبد الله بن عمر يبكي فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا يعني عبد الله بن عمرو وزعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبَّهُ الله لوجهه في النار") [1]

فانظر إلى تيقن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على موعود ألفاظ هذا الحديث، الذي سمعه من عبد الله بن عمرو، وكيف بكاؤه وحذره أن يكون من الذين ينطبق عليهم وصفه، وكيف خوفه من الوعيد المذكور فيه، فما كانت الأحاديث التي يسمعونها من النبي

(1) رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد ١/٢٨٢ .

ﷺ ألفاظًا وحروفًا تتردد، بل إيمان وحقيقة يتيقنون عليها ويحيون بها...

والأمثلة على ذلك مستفيضة مشهورة يسر الله تعالى لنا أن ننشط لجمعها في مصنف مستقل.

ولأنه قد تكون هناك أشياء كثيرة مُشْكَلَة أمام بعض الناس، وحل هذه الإشكالات إنما يكون بيد المتخصصين من أهل العلم، ذوي الأهلية الذين يحققون المسائل، ولنظرهم واجتهادهم يستطيعون معرفة العلة، ووصف الدواء الشافي لها، لأن الاعتراض بالمسائل، وإثارة المشكلات، والتشغيب بها، إنما ينشا عن الجهل، وله أربعة أقسام، ثلاثة لا علاج لها، وواحد يمكن علاجه، وقد ذكرها حجة الإسلام الإمام الغزالي في خلاصة التصانيف حيث قال رحمه الله تعالى:

"اعلم أن السؤال عن الأشياء المشكلة مثل عرض المريض علته على الطبيب والجواب مثل سعي الطبيب في شفاء المريض فالجهلاء مرضى والعلماء أطباؤهم، والعالم الناقص لا يليق أن يكون طبيبًا لهم، بل الذي يداوي المرضى هو العالم الكامل لأنه هو الذي يؤمل فيه أن يعرف حقيقة العلة، وقد يكون المرض شديدًا لا يمكن علاجه فمهارة الطبيب تكون في عدم الاشتغال بمداواته، واعلم أن مرض الجهل أربعة أقسام: ثلاثة لا علاج لها، وواحد يمكن علاجه.

فالأول: أن يكون السؤال أو الاعتراض ناشئًا عن حسد والحسد مرض لا علاج له، واعلم أنك كلما أجبته بأي جواب تزينه وتوضحه له لا يزيده جوابك إلا حسدًا ولا يزيده حسده إلا تكبرًا، فينبغي ألا تشتغل بجوابه وما أحسن قول الشاعر:

كل العداوة قد ترجى إزالتها

إلا عداوة من عاداك من حسد

وتدبيره: أن تتركه بمرضه وتعرض عنه عملاً بقوله تعالى: ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا و لم يرد الا الحياة الدنيا﴾ [النجم: ٢٩]. فإذا تعرضت له واشتغلت بمداواته فقد أشعلت نار حسده التي هي مما يحبط الأعمال، كما في الحديث "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"[1].

الثاني: أن تكون العلة من الحماقة وهذا لا يمكن علاجه لقول عيسى عليه السلام: "ما عجزت عن إحياء الموتى ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق".

وهذا هو الذي اشتغل يومين أو ثلاثة بتحصيل العلم و لم يشرع في العلوم العقلية أصلاً، ومع هذا يعترض على العلماء الذي صرفوا عمرهم في تحصيل العلوم و لم يعلم أن الاعتراض على العالم العظيم من طالب صغير لا يكون إلا من الجهل وعدم المعرفة، فهذا لم يعرف قدر نفسه ولا قدر هذا العالم من حماقته وعدم معرفته، فينبغي أن تعرض عن هذا أيضًا ولا تشتغل بجوابه.

الثالث: أن يكون السائل مسترشدًا ليس فيه أهلية لفهم كلام الأكابر لقصور فهمه عنه، ويسأل عن جهة الاستفادة عن غوامض الأمور التي يكون قاصرًا عن إدراك حقائقها، ولا يرى قصور فهمه فلا تشتغل بجوابه أيضًا، لأن النبي ﷺ قال: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا بأن نكلم الناس على قدر عقولهم".

الرابع: أن يكون مسترشدًا ذكيًا لبيبًا عاقلاً ليس مغلوب الغضب والشهوة والحسد وحب المال والجاه، بل طالبًا لطريق الحق سائلاً من غير تعنت، فهذا المريض يمكن علاجه فالاشتغال بجوابه لائق بل واجب" انتهى كلام الإمام الغزالي.

---

(1) سنن ابن ماجه باب الحسد ح(٤٢١٠)، شعب الإيمان للبيهقي ح(٦٦٠٨) .

وقد بين الإمام الغزالي بعض أوصاف أصحاب هذه المقاصد المذمومة في طلب العلم في الإحياء ج١ ص٨٣ حيث قال رحمه الله تعالى:

"يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية، ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع أبدًا وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثارًا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققًا عالمًا بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسًا متحسرًا على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك الخسران المبين" انتهى كلام الإمام الغزالي.

أقول: وقد وصفهم سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه محذرًا منهم مبينًا أحوالهم "سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ومتعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينـــزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبهم الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفئ مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور بين في عمله فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذاك إلا لأن المعلمين علّموا لغير الله والمتعلمين تعلّموا لغير الله".

**وفي شعب الإيمان ج٢ عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى:** "إذا طلب العبد العلم ليعمل به كسره العلم وإذا طلب العلم لغير العمل زاده كبرًا".

أقول: العلم جعله الله تعالى نورًا لصاحبه فى الدنيا،ونورا فى القبر،ونورا بين يديه، يضيء لصاحبه يوم القيامة، فلابد لصاحبه من الرعاية لأوامر الله عز وجل، فلا يغفل مع الغافلين، ولا يتلبس بالمخالفات فيصير من العاصين، فإن العلم نور ونور الله لا يؤتى لعاص، فلابد من الإيمان قبل العلم، ليزكو به صاحبه، ولابد من تحصيل حقيقة الإيمان لاصورته، قبل العلم ، لإنه إذا جاء العلم بدون حقيقه الإيمان يأتى فيه الفساد ،حتى يقال هذا علاّمه وهذا كذا وحياته مغايرة لأوامر الدين، ولا يوجد فيها أحكام شريعة المسلمين...

فهذا العلم بدون حقيقة الإيمان والجهد على تحصيله، والالتزام بالتربية والتزكية لا يزيل الظلمة التي في قلب صاحبه، ولا يُنورها بأحكامه، فيقع في المعاصي والذنوب بدون أن يشعر، ويتأول في الآيات والأحاديث اتباعًا لهواه، وقناعاته الذاتية، وللنجاة من ذلك لابد أن نجتهد على أن يأتي فينا نور العلم الذي نوفق به للعمل أثناء وقت العمل، لأنه لو تحصلنا على العلم ولم نعمل به، فحينئذ لا نخرج من كيد النفس والشيطان، ويكون هذا العلم حجة علينا كما قال ﷺ: "والقرآن حجة لك أو عليك".

وقد كان العلم باعثًا لخير الناس بعد الأنبياء وهم صحابة النبي ﷺ على العمل، ولم يتخذوه - رضي الله عنهم - للرياسة والجاه، فأثمر فيهم أخلاق القرآن، وصفات التقوى، ونور الهداية، وهذه صفتهم المحمودة كما أوردها الإمام البيهقي في شعب الإيمان ج٢ عن أبي سعدان أنه قال: "من عمل بالرواية ورث علم الدراية ومن عمل بعلم الدراية ورث علم الرعاية ومن عمل بعلم الرعاية هدي إلى سبيل الحق".

فسمع الصحابة رضي الله عنهم الأحاديث من النبي ﷺ، ولوجود أساس الإيمان، حملهم إيمانهم الذي كان كالجبال، على العمل بما سمعوا، فرزقوا علم الدراية، فلما وافق التقوى والزكاة في قلوبهم، عملوا به فرزقوا علم الرعاية فلما أقامهم الإيمان على الرعاية لحقوق الله،

هُدوا إلى الصراط المستقيم، وإلى سبل الحق المنيرة، فكان لإيمانهم دلائل وهي معرفة الله تعالى وتعظيمه، فقدروا الله تعالى حق قدره، ووهبهم الله تعالى من هذه المعرفة والإيمان حقيقة العلم، الذي صانوه وعظموه وعملوا به، فرزقهم الله تعالى به الخوف والخشية والإخلاص فيه، قال علي بن الفضيل لأبيه الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى "ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ. قال: يا بني وتدري لما حلا؟ قال: لا يا أبه. قال: لأنهم أرادوا به الله تبارك وتعالى.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أقام ليلة بمكة من الليل فقال: اللهم هل بلَّغت؟ ثلاث مرات، فقام عمر بن الخطاب، وكان أوَّاها، فقال: اللهم نعم، وحرَّضت وجهدت ونصحت، فقال ليظهرن الإيمان حتى يُردَّ الكفر إلى مواطنه، ولتخاضَّ البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن يتعلمونه ويقرءونه ويقولون قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟ (ثم قال لأصحابه) فهل في أولئك من خير؟ قالوا يا رسول الله ومن أولئك؟ قال: أولئك منكم وأولئك وقود النار. (رواه الطبراني في الكبير ح(٤٣) ورجاله ثقات إلا أن هند بنت الحارث الخثعمية التابعية لم أر من وثقها ولا جرحها، مجمع الزوائد – هند مقبولة تقريب التهذيب).

**وقال ابن عمر رضي الله عنهما**: لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنـــزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل"[1].

(1) الحديث الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقي.

قلت: فانظر إلى قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن" فكانت صفة الصحابة رضي الله عنهم التي تحصلوا عليها في أول الأمر هي الإيمان، الذي أزهر معهم، وشعَّ منهم، حتى كانوا ربانيين، تتنـــزل الآيات بوصفهم وتزكيتهم ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠] اختار الله تعالى قلوبهم على قلوب سائر العباد لصحبة نبيه ونصرة دينه وتبليغ أوامره.

**أخرج أبو نعيم في الحلية (١/٣٧٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:** "إن الله نظر في قلوب العباد فاختار محمدًا ﷺ فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه. ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار الله له أصحابًا، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ ".

وقد كانت صفة الإيمان الغالبة في الصحابة رضي الله عنهم حياة يحيون بها، وعاشوا بها أولاً برهة من الدهر، ليس لهم إلا الإيمان وترسيخه في القلوب، ثم عكفوا بعد ترسيخ الإيمان على تعلم القرآن، فكلما نزلت سورة قاموا لتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، فأقاموا حدود القرآن وحقوقه فكانوا به هادين مهديين ثم تبدل الحال وظهر بعدهم آخرون ابتدأوا بالقرآن وتعلمه قبل تحصيل صفات الإيمان التي كانت عند الصحابة رضي الله عنهم فكان حظهم منه إقامة حروفه مع ضياع حدوده وحقوقه، يقرأ أحدهم القرآن من فاتحته إلى خاتمته، لا يدري ما آمره وما زاجره فتسقط معه الأوامر لأنه لا يقيمها، وينغمس في النواهي لا يعبأ بخطرها...

شأنه مع الآيات الآمرة والناهية لقلقة لسان، وبديع بيان وفصيح برهان، لا يعرف ما ينبغي أن يقف عنده من أحكام القرآن بل ينثره نثر الدقل لضعف واعظ الإيمان في القلوب، الذي يغذي فيها عاطفة الامتثال والطاعة وتعظيم الأوامر، فلما ابتدءوا بتعلم القرآن قبل

الإيمان، كان علمهم صورة لا حقيقة، فابتدروا الحروف وألفاظ القرآن فأتقنوها، وطرحوا مقاصد الآيات، والأحكام النيرات الخالدات فلم يعظموها، يقولون قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟، وقد سأل النبي ﷺ أصحابه متأسفًا على أحوالهم: "فهل في أولئك من خير" ولما سأله الصحابة رضي الله عنهم بقولهم "يا رسول الله، ومن أولئك"؟ قال "أولئك منكم".

معهم الدعاوى العريضات، فهم أهل السنة وحدهم، وهم الطائفة المنصورة، وهم الموحدون في الأمة، وهم الحق وخلافهم الباطل، وهم العلماء وغيرهم الجهلاء وهم فيصل الإيمان والكفر، فالموافق لهم هو المؤمن، والمخالف لقولهم فاقد للإيمان..

توهموا الظنون في بسطاء الأمة وعوامها، وعكفوا على الأماني كما قال الله تعالى فيمن كان قبلهم ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة وتلاوة لا غير فلا يعملون بما فيه، ولا يقيمون حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، ثم قال تعالى في وصفهم ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ [البقرة: ٧٨] فذمهم بغلبة الظن عليهم، الذي هو خلاف الإيمان واليقين. وكما أخبر سبحانه وتعالى في كتابه عن الظانين بقولهم ﴿ إن نظن إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين﴾ [الجاثية: ٣٢].

ومع ندرة علم الإيمان واليقين، صار يُسمى المجادل المتكلم عالمًا، والقاص المزخرف لكلامه عالمًا، وذلك لكون السامعين هم العوام الذين لا يستطيعون التمييز بين العلم والكلام، وهُجرت سيرة وحياة الصحابة رضي الله عنهم في الأمة، فلم يتبين الناس مخالفة هؤلاء لصفات الصحابة رضي الله عنهم وهديهم...

وقد كان من مقاصد بعثة النبي ﷺ إلى قومه الذين لا يعلمون أن يعلمهم وإلى الأعراب الأجلاف أن يهذبهم ويأدبهم، وهو ما أورده الإمام الطبري ج٤ ص١٦٣ قال: "حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ منَّ الله عليهم من غير دعوة ولا رغبة من هذه الأمة جعله الله رحمة لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم قوله ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ الحكمة السنة ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ ليس الله كما تقول أهل حروراء[1] محنة غالبة من أخطأها أهريق دمه ولكن الله بعث نبيه ﷺ إلى قوم لا يعلمون فعلَّمهم وإلى قوم لا أدب لهم فأدبهم" انتهى

**وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:** "من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة: أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله الصحبة بنبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدي المستقيم والله رب الكعبة"[2].

وقد كانت هذه نصيحة ابن مسعود رضي الله عنه للتابعين في زمانه، يرشدهم بها أنه من أراد أن يسلك طريق الهدى والرشاد، فأمامه طريق الصحابة رضي الله عنهم فليتبعهم فيه، وليجعلهم أمامه وقدوته، فهم "أبر الأمة قلوبًا" أي أحسن الأمة قلوبًا وأخلصها، وأكثرها إيمانًا وانقيادًا للحق، "وأعمقها علما" أي أغزرها علمًا وغورًا في دقائقه ومعانيه، "وأقلها تكلفًا" أي مراءاة للخلق، وتصنعًا لهم.

---

(1) أي الخوارج.

(2) حلية الأولياء ١/٣٠٥ .

فنظر علماء الآخرة وورثة الأنبياء، إلى صفات الصحابة رضي الله عنهم فعظموها، لعلمهم أنها طريقهم إلى رضوان الله تعالى ومحبته، فأثمرت فيهم سمتًا وهديًا، وتذلُّلا وتواضعًا، وقد وصفهم الإمام الغزالي في الإحياء ببعض سيماهم ج١ص٨١ فقال رحمه الله تعالى: "ومنها أن يكون حزينًا منكسرًا مُطرقًا صامتًا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مُذكِّرًا لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع وقد قيل ما ألبس الله عبدًا لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء وأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به" **انتهى**.

فالله تعالى خلق الإنسان لا يعلم إلا الحال، وطلب منه أن يوجه يقينه إليه، لأن له علم الحال، وعلم ما كان وهو الماضي، وعلم ما يكون وهو المستقبل، وعنده علم ما تحت الأرض وما فوق السماء، وعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فعودتهم إلى الحياة الدنيا ثانية لا يكون، لأنه سبق في تقدير الله تعالى أنهم إليها لا يرجعون، ولو كان بأن يرجعوا إلى الحياة الدنيا مرة ثانية، فقد علم الله عز وجل أنهم لا يعودون إلى الإيمان ولكن إلى التكذيب والعصيان.

فالله تعالى أنزل القرآن على هذه الأمة لإصلاح يقينها كما قال عز وجل ﴿إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ .

**فهذه مشيئة الله يعطي من يشاء، كيف شاء وقت ما يشاء، وقال عز وجل معلمًا لرسوله كيف يعظمه ويشكره ويفوض الأمر إليه ويتوكل عليه** ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ **[آل عمران: ٢٦] أي أن ذلك بيدك وحدك لا بيد سواك** ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ **أي لا يقدر على ذلك غيرك بعزتك وقدرتك وسلطانك وقال النبي ﷺ لابن عباس** "يا غلام، إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[١]

**هذا هو الإيمان الكامل المطلوب، ولكننا لا نجد ذلك في قلوبنا، وأصحاب النبي ﷺ تربوا على إنشاء هذا اليقين الصحيح في قلوبهم أولاً، وهكذا فعلوا وعلى ذلك حرصوا، ونحن إلى الآن ما اهتممنا لتعلم الإيمان الذي يثمر فينا، تعظيم قدرة الله تعالى ووعده ووعيده، واليقين على العلم الإلهي الشريف، فتعلم الصحابة رضي الله عنهم الإيمان أولاً، ثم تعلموا القرآن، فازدادوا إيمانًا على إيمانهم، وأقاموا حلاله وحرامه وحدوده وحقوقه، بخلاف من جاء بعدهم الذين أوتوا علم القرآن قبل الإيمان، أو العلم قبل الإيمان، فقد أدى ذلك بهم إلى إقامة حروفه مع إضاعة حدوده وحقوقه، وقد كان سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول "أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا وقد أسقط العمل به"**

(1) المستدرك للحاكم ح(٦٣٠٣)، سنن الترمذي ح(٢٥١٦)، مسند أحمد ح (٢٨٠٤) .

**لذلك نحن نسأل في طلب العلم نبدأ بالتزكية والإيمان قبل العلم ؟؟**

أم العلم قبل التزكية وترسيخ الإيمان؟؟

للجواب على ذلك نقول: العلم كسب الإيمان، وكمال العلم الخشية، والخشية كسب المعرفة، ولنبدأ مع تاريخ هذه الأمة، عندما كانت في مواعيد الغيب عند بيت الله المحرم، والخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم يرفع يديه ومعه ابنه إسماعيل عليه السلام يدعوان لتكوين هذه الأمة ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة: ١٢٨]

ومع الدعاء لهذه الأمة بالإنشاء والتكوين، كان الدعاء لها بالإرشاد والتوجيه ببعثه سيد المرسلين فيهم، يعلمهم ويزكيهم، حيث قال عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] فدعى الخليل عليه الصلاة والتسليم لهذه الأمة بأن يبعث الله فيها خاتم الأنبياء والمرسلين، وبدأ في دعائه لهم بطلب تعلم الكتاب والعلم والحكمة، وانتهى بالتزكية، ولقد استجاب الله تعالى لدعوة خليله، ومنَّ على هذه الأمة، ببعثه نبيها محمد سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، ولكن ليس على ترتيب دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، بل وفق مراد الله تعالى لهذه الأمة، المسئولة بعد رسولها عن النبوة والرسالة، وهداية الإنسانية، ونشر الروحانية، فقال عز من قائل ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

فبدأ سبحانه تعالى في إنعامه ومنته على هذه الأمة، بعد بعثة خاتم رسله وسيد أنبيائه فيها، بالتزكية أولا، وترسيخ الإيمان الناتجين عن تلاوة الآيات فيها، قبل تعلم العلم والحكمة، فبتلاوة الآيات المكية من النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم زكت قلوبهم بالإيمان،

وطهرت من دنس الكفر والعصيان، وتنورت وتأهلت لاستقبال العلم والحكمة وهو ما أورده الإمام القرطبي في تفسيره ج١٨ ص ٩٢ حيث قال رحمه الله تعالى " قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ **يعني القرآن ويزكيهم أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان قاله ابن عباس، وقيل يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قاله ابن جريج ومقاتل**". انتهى كلام القرطبي.

لأن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم، وهذا لابد منه لكل أحد في الأمة، ولكل مؤمن، أن يسمع رسالة سيده، التي أرسل بها رسوله إليه، وهذا هو السماع الواجب، الذي هو أصل الإيمان، ثم بعد ذلك لابد من تزكيتهم، أي جعل أنفسهم زكية بالإيمان، وبالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم..

فالتلاوة والتزكية أمر عام لجميع المؤمنين، وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل أحد بعينه، أن يكون عالمًا بالكتاب لفظه ومعناه عالمًا بالحكمة جميعًا..

وهو الذي قرره الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج١٥ ص٣٨٩ حيث قال رحمه الله تعالى:"وقال ﴿ لقد من الله على المؤمنين﴾ الآية وقال ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم ﴾ [الجمعة: ٢] فامتن سبحانه على العباد بإرساله في عدة مواضع فهذه أربعة أمور أرسله بها تلاوة آياته عليهم وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكمة بالذكر مثل قوله ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ وقوله ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا لابد منه لكل مؤمن، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم فالأول سمعهم والثاني طاعتهم والمؤمنون يقولون

سمعنا وأطعنا الأول علمهم والثاني عملهم والإيمان قول وعمل فإذا سمعوا آيات الله وعوها قلوبهم، وأحبوها وعملوا بها، و لم يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من المفلحين المؤمنين والله قال ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال في ضدهم ﴿الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ [التوبة: ٩٧] فأخبر أنهم أعظم كفرًا ونفاقًا وجهلا وذلك ضد الإيمان والعلم فاستماع آيات الله والتزكي بها أمر واجب على كل أحد فإنه لابد لكل عبد من سماع رسالة سيده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذي هو أصل الإيمان ولابد من التزكي بفعل المأمور وترك المحظور، فهذان لابد منهما وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالمًا بالكتاب لفظه ومعناه، عالمًا بالحكمة جميعًا، بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلك وهو واجب عليهم كما هم مخاطبون بالجهاد بل وجوب ذلك أسبق وأوكد من وجوب الجهاد فإنه أصل الجهاد ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون؛ ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه ومقصود الرسالة فعل الواجبات والمستحبات جميعًا ولا ريب أن استماع كتاب الله والإيمان به وتحريم حرامه وتحليل حلاله والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه واجب على (كل) واحد وهذا هو التلاوة المذكورة في ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ [البقرة: ١٢١] فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوته أنهم يؤمنون به، وبه قال سلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم وقوله ﴿حق تلاوته﴾ كقوله ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ﴿ واتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنة فلا يجب على كل أحد لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ويعلم معانيه ويعرف من السنة ما يحتاج إليه وهل يجب عليه أن يسمع جميع القرآن فيه خلاف ولكن هذه المعرفة الحكمية التي تجب على كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي أصحابه وأمته بل ذلك لا يكون إلا بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من الألفاظ والمعاني والأفعال والمقاصد ولا يجب هذا على كل أحد" انتهى.

قلت: وما ذكره الإمام ابن تيمية في النص السابق عنه هو الذي يقوم به أهل الدعوة في خروجهم، حيث يحرصون على تلاوة آيات القرآن على مسامع الأمة، هذه التلاوة التي هي تبليغ لكلامه سبحانه وتعالى لهم، والتي لابد منها لكل مؤمن ولكل أحد، لبعث الإيمان فيهم، والذي ينشأ منه زكاتهم وامتثالهم بالأوامر، وانزجارهم بالنواهي، **وهذا هو السماع الواجب لعموم الأمة، وهو حاصل معهم في خروجهم، أما العلم بالكتاب والحكمة أي السنة فهو فرض كفاية**، إذا قام به مجموعة سقط عن الآخرين، حيث إن فعل البعض كاف في الإتيان به، فالذين يطالبونهم أن يكونوا علماء بالكتاب لفظه ومعناه، علماء بالسنة وفقهها وأحكامها، قبل القيام لدعوتهم؛ نقول لهم هذا ليس واجبًا على كل أحد بعينه...

كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٠ ص٢٠٣ حيث قال رحمه الله: **"وكذلك المسائل الفرعية: من غالية المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد فيها على كل أحد حتى على العامة وهذا ضعيف، لأنه لو كان طلب علمها واجبًا على الأعيان فإنما يجب مع القدرة والقدرة على معرفتها من الأدلة المفصلة تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة"** انتهى.

أقول: والأصل في قواعد ديننا، **أنه لا تكليف إلا بمقدور** ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فإذا لم تكن مع العامة القدرة على النظر والاجتهاد في طلب علم المسائل الفرعية، لم يكن طلبها واجبًا عليهم للتعذر "**والأمر إذا تعذر سقط**" أو للتعسر ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ومن أوجبها على كل أحد من العامة فقوله ضعيف، ورأيه مرجوح كما نص على ذلك الامام ابن تيميه فى النص السابق عنه حيث قال "**من غاليه المتكلمه والمتفقهه من يوجب النظر والاجتهاد فيها على كل احد حتى على العامه وهذا ضعيف**"انتهى

فلا يكون واجبًا على كل واحد من بسطاء أهل الدعوة أن يعلم ذلك، أما الإيمان والسماع الواجب على كل أحد الذي يكون نتيجته تعظيم الله تعالى، والامتثال لطاعته، والتطبيق لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، فهم يقومون بإحيائه في أنفسهم بتبليغ آيات الله تعالى، التي تبعث فيهم هذا الإيمان وهذا الامتثال بالعمل الصالح، فيهم وفي عموم أمة النبي ﷺ وإلى قيام الساعة بإذن الله تعالى...

هذه هي نيتهم وهذا هو قصدهم لمن لم يستوعب ذلك عنهم. كما أنهم يحبون إشاعة محبة هذا السماع، ومحبة أهل العلم الذين ينشرونه في الأمة، فهم على وصية النبي ﷺ في ذلك، كما وردت في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "أغدو عالمًا أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو محبًا، ولا تكن الخامسة فتهلك والخامسة أن تبغض العلم وأهله" (رواه الطبراني في الثلاثة والبزار ورجاله موثقون، مجمع الزوائد ١/٣٢٩).

وقد قصر البعض هذه الوصية من النبي ﷺ على الوصف الأول والثاني، فعمدوا إلى البسطاء يقررون عليهم ويحذروهم، أما أن يكونوا علماء أو متعلمين فقط وإلا هلكوا،

وأغفلوا الوصية بالوصفين الآخرين، وهما استماع العلم ومحبته، ومحبة أهله، ومعلوم عن أهل الدعوة أنهم أسمع الناس لأحاديث النبي ﷺ ، كما أنهم أحرص الناس على محبة أهل العلم ووصلهم، والتأكيد على زيارتهم في أي مكان يكونون فيه، وطلب الدعاء منهم، وتعظيمهم وتقديمهم على سواهم، وهذا معلوم متواتر عنهم نسأل الله تعالى أن يثبتهم على ذلك.

فكما أن تعلم علم الأحكام الواجبة العينية فرض على الأمة قبل أن تعمل، فالإيمان فرض عليها قبل تعلم الأحكام، لأن الإنسان إذا كان إيمانه ويقينه ضعيفاً فهو لا يمتثل للأحكام، وقد أكدت النصوص على ثبوت هذا الإيمان قبل الأوامر والنواهي..

وهو ما قرره الإمام البجوري في شرح الجوهرة ص٨٧ حيث قال رحمه الله تعالى: (**وقد دلت النصوص على ثبوت الإيمان قبل الأوامر والنواهي، وعلى أن الإيمان والعمل الصالح متغايران، وعلى أن الإيمان والمعاصي يجتمعان، كقوله تعالى** ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ [البقرة: ١٨٣] **فإنه يُفيد ثبوت الإيمان قبل الأمر بالصوم**) انتهى.

وقد أورث ذلك أهل الدعوة نتيجة للحرص على تحصيل هذا الإيمان في دعوتهم، محبة الله تعالى وتعظيمه وخشيته، والرغبة في ثوابه، والجزع والخوف من عقابه، فامتثلوا الطاعات وجانبوا المنهيات المحرمات، هذا في غالبهم على ما نعلم من حالهم،والله تعالى حسيبهم، وهذا كله كان ثمرة ما تعلموه في منهج الدعوة...

وهو العلم الأكمل، الذي عبر عنه الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٧ ص ٢٣٢حيث قال رحمه الله تعالى: "**الرابع: إن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق والنار حق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول**

**كمل، فإن قوة المُسبِّب دلَّ على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال ﷺ: "ليس المخبر كالمعاين"[1] فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح. فلما رآهم قد عبدوها ألقاها"** انتهى.

أقول: فإذا كان المتحصل مع البسطاء والعامة من الخروج مع أهل الدعوة، هو خشية الله تعالى ومحبته، واتباع رسوله ﷺ وامتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي، والرغبة في الجنة وطلبها، والهرب من النار والفرار منها، فكل هذه الأمور نشأت عن ما تعلموه في منهج الدعوة، وحلقات التعليم اليومية من صفات الإيمان، فحصول هذا اللازم دال على قوة الملزوم، وقوة المُسبب من الخشية وتعظيم الله تعالى والكلام على قدرته وقيوميته، ومحبة واتباع سنة نبيه ﷺ المكرر على ألسنتهم في فترة تفرغهم للدعوة، على أوقاتها المختلفة دليل على قوة السبب، وهو العلم بالله وقوة الإيمان به المحصل من منهج دعوتهم، المعكوف عليه الليل والنهار منهم، والذى أوجب لهم هذة المحبة والخشية والتعظيم والإجلال لله تعالى، وتوقير سنة حبيبه ﷺ في الطعام والمنام والحضر والسفر والنية والقصد والنصح والشفقة على الناس، وطلب الهداية والرحمة للعالمين.

وقد يكون غيرهم يترددون على بعض دروس العلم ولا تتحصل معهم هذه الصفات الإيمانية، ولا ذلك اللازم وهو الخشية والاتباع وطلب الجنة والهرب من النار، وهذا دال على ضعف الملزوم، وهو العلم الذي يتردد على المجالس ليحصله، وهو فاقد لثمرته ونتائجه، و لم يعلم أنه إذا لم يتحصل على ثمرة الخشية والمحبة، والإنابة والاتباع، أنه مغبون، وإن كان معه صورة العلم وطلبه، الذي من لوازمه هذه الأشياء..

---

(1) المعجم الأوسط للطبراني ح (٦٩٨٦) .

لذلك كان الإيمان والتزكية ضروريًّا قبل العلم وقبل القول والعمل، وقد كانت دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة المرحومة بالعلم قبل التزكية، لأن الأمم قبله كانت عابدة وليست داعية، فلا تحتاج إلى التزكية لنشر دعوتها، وكانت تحتاج إلى العلم لتتعبد به لربها، أما مع أمة الإسلام، أمة الخيرية والرسالة، فقد اشتركت مع الأمم السابقة في العبادة ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[الذاريات: ٥٦] وافترقت عنها في مقصد الدلالة على الخالق، وتعبيد الناس لربهم...

لذلك لما منَّ الله عز وجل ببعثة النبي ﷺ فيهم، بدأ معهم أولا بالتلاوة والسماع للآيات، الذي هو أصل الإيمان، وبدأ معهم بالتزكية لقلوبهم، ثم ثنى بالعلم والحكمة بعد ذلك، لأنهم يحتاجون لهذه التزكية وصفات الإيمان لنشر الدعوة، وتبليغ الرسالة بعد نبيهم ﷺ، وللقيام لهذه الوظيفة وتلك المسئولية وهي هداية الإنسانية إلى قيام الساعة... ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

فليس المقصود من العلم العمل فقط، بل المنشود منه ومن العمل تحصيل الإيمان، لأنه لو كان المقصود منه العمل فقط إذن لدخل المنافقون كلهم الجنة، فالمنافقون كان عندهم الأعمال وصورها، ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولم توصلهم صورة هذه الأعمال إلى الإيمان الذي هو المقصود منها..

**نسأل الله تعالى أن يرزقنا حقيقة الإخلاص له، وصدق الطلب منه، وأن يُغنينا بالافتقار إليه، ولا يُفقرنا بالاستغناء عنه.. آمين.**

وهذا الإيمان الذي هو أول الواجبات، هو عبارة عن التصديق الحاصل في القلب مع الإذعان والتسليم لأوامر الشرع، والذي ليس من شروط صحته، أهلية النظر والبحث والاستدلال، بل هو متقدم عليها، لكون أكثر المسلمين لا يعرفون حقيقة النظر والبحث والاستدلال ...

فلو قلنا أن أول الواجبات العلم والمعرفة والنظر، لأدى ذلك إلى إخراج الجم الغفير من أمة النبي ﷺ من الإيمان، وألا يدخل الجنة إلا العدد القليل، وآحاد الناس، وهذا ضعيف بعيد، لأن النبي ﷺ قطع بأن أكثر أهل الجنة أمته، وقد غالى بعض المتكلمين، فزعم أن من لم يعرف الله تعالى بالأدلة، والبراهين التي حرروها فإنه كافر، فيلزم من ذلك تكفير أكثر المسلمين، ومنهم آباؤه وأسلافه، وأنكر ذلك الجمهور حيث قالوا: لا يشترط معرفة الإيمان والعقائد بالأدلة التفصيلية على عموم الأمة والبسطاء، بل يكفى الدليل الإجمالي، وهو المعجوز عن بيان وجه الدلالة فيه على الوجه المطلوب، أو عن دفع ما ورد عليه من الشبه...

ونضرب على ذلك مثالاً توضيحيًا يبين لنا مذهب جمهور العلماء، وقولهم الراجح في هذا، فمن ذلك أن أهل السنة استدلوا على وجوده تعالى، بحدوث هذا العالم، فإذا سئل سائل أحد المسلمين فقال: ما الدليل على وجوده تعالى؟

فيكون الجواب: هذه المخلوقات...

فيقول له السائل: هذه المخلوقات دالة على وجود الله تعالى من جهة إمكانها أو من جهة وجودها؟

فإذا لم يجبه على سؤاله بل قال هذه المخلوقات فقط...

ولم يعرف من جهة إمكانها أو من جهة وجودها بعد أن كانت عدمًا...

فيقال لهذا الجواب دليل إجمالي وهو كاف عند الجمهور لثبوت الإيمان، وليس كاف عند المعتزلة وبعض العلماء من أهل الكلام حيث اشترطوا على المكلفين معرفة الدليل التفصيلي، وهو المقدور على بيان وجه دلالته، أو دفع ما ورد عليه من الشبه....

وعلى هذه الطريقة كثير من المعاصرين، حيث ضيقوا على الأمة سبيل النجاة، وزعموا أن إيمان المسلمين لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال بالأدلة التفصيلية، ورموهم بالعظائم لعدم معرفتهم بمسائلهم، والأبحاث التي يتكلمون فيها، مع أن أكثرها أو عمومها مختلف فيه، وهي بين أخذ ورد في مباحث الاجتهاد والترجيح وأصول الدين، وهي قول للبعض، واجتهاد قد يخالفهم فيه من هم أرسخ قدمًا منهم في العلم، وأعظم اجتهادًا فيه، ومعلوم أن رجحان القول باجتهاد لإمام من الأئمة في جانب، لا يلزم منه رجحانه في هذا الجانب عند إمام آخر، ومعلوم أيضًا أنه لا يؤمر بالمختلف فيه، ولكن يؤمر بالمجمع عليه...

وقد جمعوا مع عموم الأمة، التي ضيقوا عليها رحمة الله الواسعة، الكثير من بسطاء أهل الدعوة، لأنهم بزعمهم لم يعرفوا الله تعالى بالطرق التي سلكوها والاصطلاحات التي رددوها، وقالوا لهم أضعتم أعماركم في هذه الدعوة العقيمة، ولم تتعلموا أدلة التوحيد؟ فأين علمكم قبل دعوتكم؟، وأين علمكم ومعرفتكم قبل بلاغكم؟

وجعلوا ثبوت الإيمان متوقفًا على معرفة اصطلاحات النظار والمتكلمين...

ومعرفة الدليل التفصيلي في المثال السابق... هو أن يعرف كيف يجيبه على أن هذه المخلوقات دالة على وجود الله تعالى...

بأن يقول له دلت عليه من جهة إمكانها...

ويبين وجه ذلك كأن يقول هذه المخلوقات ممكنة، وكل ممكن لابد له من موجد، هذا إن اختار أن جهة الدلالة الإمكان...

وإلا بأن اختار أن جهتها الوجود بعد العدم...

فيقول هذه المخلوقات موجودة بعد عدم وكل موجود بعد عدم لابد له من موجد...

فهذه المخلوقات لابد لها من موجد...

أو اختار أن جهتها هما معًا على أن الثاني شطر أو شرط فيقول هذه المخلوقات ممكنة حادثة، وكل من كان كذلك لابد له من موجد...

فهذه المخلوقات لابد لها من موجد...

هذا مثال على الدليل التفصيلي، وهناك أدلة تفصيلية كثيرة في مباحث أصول الدين والعقائد، فإن لم يكن يعرفها المكلف عند المعتزلة، ومن ذهب إلى رأيهم من بعض المعاصرين، فليس بمؤمن، وجعلوا معرفة هذه الأدلة شرطًا في الإيمان...

وتشددوا في ذلك وهم يعلمون أن هذه المسائل من مسائل الخلاف،وأن قولهم فيها هو القول المرجوح ، وان الراجح الصحيح هو قول الجمهور وهو خلاف ما ذهبوا إليه، وقد رد الإمام الباجي على من قال أن النظر والاستدلال والعلم أول الواجبات ،بأن ذلك مخالف لإجماع المسلمين في جميع الأعصار الذين اتفقوا على تسمية العامة والمقلد مؤمنين...

قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا، لما صح أن يسمى مؤمنًا إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال، وقد أورد الإمام القرطبي هذه المباحث وما يتعلق بها مع ترجيح الصحيح فيها في تفسيره ج٤ ص٢٧٦٦ فقال رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ [الأعراف: ١٨٥] فيه أربع مسائل:الأولى: قوله تعالى: ﴿ أو لم ينظروا﴾ عجب من إعراضهم عن النظر في آياته، ليعرفوا كمال قدرته، حسب ما بيناه في سورة البقرة، والملكوت من أبنية المبالغة، ومعناه الملك العظيم. وقد تقدم.

الثانية: **استدل بهذه الآية وما كان مثلها من قوله تعالى:** ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ **[يونس: ١٠١] وقوله تعالى:** ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾[ق: ٦] **وقوله:** ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ **[الغاشية: ١٧] الآية وقوله:** ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ **[الذاريات: ٢٢] من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته. قالوا: وقد ذم الله تعالى من لم ينظر وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال:** ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ **[الأعراف: ١٧٩]** .

وقد اختلف العلماء في أول الواجبات، هل هو النظر والاستدلال. أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة. فذهب القاضي وغيره إلى أن أول الواجبات النظر والاستدلال، لأن الله تبارك وتعالى لا يُعلم ضرورة، وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته. وإلى هذا ذهب البخاري رحمه الله حيث بوب في كتابه (باب العلم قبل القول والعمل) لقول الله عز وجل ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ .

قال القاضي: من لم يكن عالًما بالله فهو جاهل، والجاهل به كافر.

قال ابن رشد في مقدماته: وليس هذا بالبيِّن، لأن الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية. قال وقد استدل الباجي على من قال إن النظر والاستدلال أول الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلد مؤمنين. قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا لما صح أن يُسمَّى مؤمنًا إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال قال: وأيضًا فلو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحل لكم قتلنا، لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل. قال: وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم، وألا يُقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا.

قلت: (أي الإمام القرطبي): هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله] [1] وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام- وهو بالغ صحيح العقل- أنه مسلم. وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مُرتدًّا يجب عليه ما يجب على المرتد. وقال أبو حفص الزَّنْجاني وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمناني يقول: أول الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى، فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله. قال: وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق، لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال. فلو قلنا: إن أول الواجبات المعرفة بالله لأدى إلى تكفير الجم الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنة إلا آحاد الناس وذلك بعيد، لأن الرسول ﷺ قطع بأن أكثر أهل الجنة أمته، وأن أمم الأنبياء كلهم صف واحد وأمته ثمانون صفا. وهذا بين لا إشكال فيه والحمد لله.

الثالثة- ذهب بعض المتأخرين والمتقدمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه وهو كافر، فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأول من يُبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه. وقد أورد على بعضهم هذا

(1) الحديث بهذا اللفظ في سنن البيهقي الكبرى ٣٨٨/٧، سنن الدارقطني كتاب الزكاة ح(٤) وبلفظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم.. صحيح البخاري ح (٢٥) وبلفظ حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله صحيح مسلم ح(١٢٣) .

فقال: لا تُشنع عليّ بكثرة أهل النار. أو كما قال-

قلت: (أي الإمام القرطبي): وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنه نبيه، لأنه ضيق رحمه الله الواسعة على شرذمة من المتكلمين، واقتحموا في تكفير عامة المسلمين،

أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول، وانتهره أصحاب النبي ﷺ: **اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا** فقال النبي ﷺ: **[لقد حجَّرت واسعًا]** خرجه البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة. أترى هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان، وأن رحمته وسعت كل شيء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان. بل اكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك ألا تراه لَمَّا قال للسوداء: [أين الله] قالت: في السماء. قال: [من أنا] قالت: أنت رسول الله قال: [أعتقها فإنها مؤمنة] [1]. ولم يكن هناك نظر واستدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة. والله أعلم" انتهى كلام الإمام القرطبي.

أقول: وقد كان رأي الجمهور في عدم وجوب النظر والاستدلال على العامة في مسائل الإيمان، هو الراجح الصحيح، لأن ما وجب علمه على المكلفين، إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، لأنه "**لا تكليف إلا بمقدور**"، وكثير من الناس يتعذر عليه معرفة هذه الدقائق، فكيف يُكلَّفُ العلمَ بها، "**والأمر إذا تعذر سقط**" كما أن العلم قد يحصل بغير نظر خاص بل بأمور أخرى..

(1) صحيح مسلم ح(١٢٢٧)، موطأ مالك ح(٢٨٧٥) مسند أحمد ح(٧٩٠٦)، سنن أبي داود ح(٣٢٨٤)، سنن البيهقي الكبرى ح(١٥٦٦٠).

وهو ما بينه الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٠ ص٢٠٢ حيث قال رحمه الله [**أما في المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة والفقهاء من أصحابنا وغيرهم من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد حتى على العامة والنساء حتى يوجبوه في المسائل التي تنازع فيها فضلاء الأمة قالوا: لأن العلم بها واجب ولا يحصل العلم إلا بالنظر الخاص وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك، فإن ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق فكيف يُكلف العلم بها؟ وأيضًا فالعلم قد يحصل بلا نظر خاص بل بطرق أخر: من اضطرار وكشف وتقليد من يعلم أنه مصيب وغير ذلك**] انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

قلت: وقد أكد كل ما سبق الإمام الغزالي، ورد على كل من ظن أن مدرك الإيمان، الأدلة المجردة، والتقسيمات المرتبة، وقرر أن الحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول ﷺ، واشتمل عليه القرآن اعتقادًا جزمًا، فهو مؤمن، وإن لم يعرف أدلته، وهذا فيه رد على كثير من المتأخرين، الذين حجَّروا الواسع، وعسروا اليسير، واشترطوا على العامة والبسطاء، تحرير الأدلة والبراهين ومعرفة ذلك، مع كونه خارجًا عن طاقتهم، فأحاطوا عموم الأمة ومنهم بسطاء أهل الدعوة بالحرج، وحمَّلوها المشقة...

كما قرر حجة الإسلام أن الإيمان المستفاد من الأدلة الكلامية، والمصطلحات النظرية، ضعيف جدًّا، بل يضمحل ويزول مع أول شبهة، بخلاف إيمان العوام الراسخ، الذي يتيقن في قلوبهم في الصبا، بتواتر السماع، أو المتحصل بعد البلوغ، بقرائن أحوال، لا يمكن التعبير عنها، وبأمور أخرى، فهذا هو الإيمان المطلوب، وهو حقيقة المعرفة..

وإليك بالتفصيل ما وضحه وبينه رحمه الله تعالى حيث قال في رسالة " التفرقة" ص٢٦٩: [فصل في حكم عوام المسلمين]

من أشد الناس غلوا وإسرافًا طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين وزعموا أن من لم يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها، فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عبادة "أولا"، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة "ثانيًا"، إذا ظهر لهم في عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم، حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب، كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه، ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام، والأدلة المجردة، والتقسيمات المرتبة، فقد أبدع حد الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده، عطية وهدية من عنده. تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين، وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال. فقد "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ جاحدًا به منكرًا، فلما وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفًا وكرامة، فرآها يتلألأ منها أنوار النبوة، قال: والله ما هذا بوجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم"[(١)]، وجاء آخر إليه عليه الصلاة والسلام وقال: أنشدك الله، آلله بعثك نبيًّا؟، فقال عليه الصلاة والسلام: [إي والله، الله بعثني نبيًّا] فصدقه بيمينه وأسلم، وهذا

(1) قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه وقيل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء تكلم به أن قال أيها الناس [أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام]، قال أبو عيسى هذا حديث صحيح وأخرجه الحاكم في مستدركه حديث (٤٢٨٣). والبيهقي في سننه ح(٤٤٢٢) والإمام أحمد في مسنده ح(٢٣٨٣٥) .

وأمثاله أكثر من أن يحصى، ولم يشغل واحد منهم بالكلام وتعليم الأدلة، بل كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد إشراقًا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة، وتلاوة القرآن وتصفية القلوب، فليت شعري متى نقل عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضي الله عنهم إحضار أعرابي أسلم، وقوله له الدليل على أن العالم حادث، أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وإن الله تعالى عالم بعلم، وقادر بقدرة زائدة عن الذات، لا هي هو ولا هي غيره، إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين ولست أقول لم تجر هذه الألفاظ، ولم يجر أيضًا ما معناه معنى الألفاظ، بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون، تحت ظلال السيوف، وجماعة من الأسارى يسلمون، واحدًا واحدًا، بعد طول الزمان أو على القرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة، وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها، نعم، لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين، أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس، ولكن ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضًا نادر، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن. فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين، فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل، ليعجز عنه العامي، لا لكونه حقًا في نفسه. وربما يكون ذلك سببًا لرسوخ العناد في قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء، ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ولا على العكس. وتجري هذه الانتقالات بأسباب أُخر حتى في القتال بالسيف، ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال، وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب، صرَّحنا بأن الخوض في الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين :

رجل: وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام ريب وعظة ولا بخبر عن رسول

الله فيجوز أن يكون القول المرتب الكلامي رافعًا شبهته، ودواءً له فى مرضه، فيستعمل معه ذلك ويحرس عنه سمع الصحيح الذي ليس به ذلك المرض، فإنه يوشك أن يحرك في نفسه إشكالاً، ويثير له شبهة تمرضه وتستنـــزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح.

الثاني: شخص كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمان بأنوار اليقين، يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوي بها مريضا إذا وقعت له شبهة، وليفحم بها مبتدعًا إذا نبغ، وليحرس به معتقده إذا قصد مبتدع إغواءه، فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات، وتعلم قدر ما يزيل به الشك، ويدرأ الشبهة في حق المشكل فرض عين، إذا لم يمكن إعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه. والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، واشتمل عليه القرآن اعتقادًا جزمًا، فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته، بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدًّا مشرف على التزاول بكل شبهة، بل الإيمان الراسخ إيمان العوام، الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال، لا يمكن التعبير عنها، وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر، فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى، وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا، وملازمة ذكر الله تعالى دائمًا تجلت له أنوار المعرفة وصارت الأمور التي كان قد أخذها تقليدًا عنده كالمعاينة والمشاهدة، وذلك حقيقة المعرفة التي لا تحصل إلا بعد انحلال عقدة الاعتقادات، وانشراح الصدر بنور الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢] كما سئل رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدر فقال: [نور يُقذف في قلب المؤمن]، فقيل وما علامته منه؟ قال: [التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود] [1] فبهذا يعلم أن المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها غير مدرك حقيقة المعرفة ولو أدركها لتجافي عن دار الغرور قطعًا" انتهى كلام الإمام الغزالي.

(1) المستدرك للحاكم ح(٧٨٦٣)، شعب الإيمان للبيهقي ح(١٠٥٥٢)، مصنف ابن أبي شيبة ح(٣٤٣١٥).

أقول: الذين مالوا إلى هذا القول من المعاصرين، مع ما فيه من الحرج والتضييق، واتبعوا فيه طوائف المتكلمين، قد خالفوا سنة المصطفى ﷺ في ذلك، حيث لم يشترط ﷺ فيمن أسلم معرفة هذه الاصطلاحات والأدلة التفصيلية من عموم الأمة، بل قبل من أجلاف العرب وبسطائهم الإيمان المجمل، والتصديق والإقرار من غير تعلم دليل، وهو حديث مشهور في كتب السير والحديث كما نص على ذلك الحافظ العراقي في تخريج الإحياء، وأوضح مثال على ذلك قصة إسلام ضمام ابن ثعلبة رضي الله عنه في صحيح مسلم (**باب السؤال عن أركان الإسلام**) عن أنس بن مالك قال نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق. قال فمن خلق السماء؟ قال: الله؟ قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا قال: صدق قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال: صدق. قال: ثم ولى قال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبي ﷺ: "**لئن صدق ليدخلن الجنة**"[1]

(1) صحيح مسلم ح(١١١)، مسند أحمد ح(١٢٤٥٧)، سنن النسائي الكبرى ح(٢٤٠١) سنن البيهقي الكبرى ح(٨٣٩٤) .

قلت: وقد أورد الإمام النووي في شرح مسلم ج١ ص١٧١ عن الحافظ ابن الصلاح -رحمه الله تعالى- ترجيحًا لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون، وأنه لا يجب عليهم النظر والاستدلال بالأدلة القطعية على معرفة الرسالة وصدق الرسول حيث قال رحمه الله: "قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله وفيه دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون وأنه يكتفي منهم بمجرد اعتقاد الحق جزمًا من غير شك وتزلزل خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة وذلك أنه ﷺ قرر "ضماما" على ما اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه ومجرد إخباره إياه بذلك ولم ينكر عليه ذلك ولا قال يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية" انتهى كلام الإمام النووي.

أقول: فكان تقرير النبي ﷺ "ضماما" رضي الله عنه في تعرفه على رسالته وصدقه، بمجرد أن النبي ﷺ قد أخبره بذلك، أوثق دليل على عدم وجوب النظر والاستدلال، بالأدلة القطعية على عموم البسطاء والعامة من المقلدة، فيما شابه ذلك من المسائل، لأن هذا مما يوقعهم في الضيق والحرج، لعدم أهليتهم للبحث والنظر والاستدلال في أمثال هذه المباحث، كذلك كان في هذا الحديث وأمثاله التأكيد من النبي ﷺ على أن عوام أمته، من أمثال ضمام رضي الله عنه مؤمنون بمجرد اعتقاد الحق جزمًا، من غير شك وتزلزل، ويكتفي بذلك منهم، من غير بحث وخوض في اصطلاحات ومقدمات المتكلمين، خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة وبعض الأصوليين...

وقد نرى المقيدين لما أطلقه النبي ﷺ يتباعدون في المدى، وقد نلحظ أن تشقيقهم وتضييقهم يوقعهم في الردى، حيث ردوا ما ارتضاه خاتم النبيين ﷺ وتعنتوا في أحكام العامة من المسلمين، تشكيكًا في الإيمان تارة، وتبديعًا وتفسيقًا لعمومهم أخرى، فما ذهب إليه جماهير الأئمة من السلف والخلف من أن العامة من بسطاء الأمة، إذا اعتقدوا دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردد ولا شك فيه، كفاهم ذلك وهم مؤمنون موحدون هو الراجح

الصحيح، ولا يجب عليهم مع ذلك تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها، حيث أن هذا هو مذهب المعتزلة الذين أوجبوا على العامة تعلم هذه الاصطلاحات والدلائل التفصيلية...

وقد قرر الإمام النووي أن هذا المذهب خطأ ظاهر، مخالف للسنة الثابتة المتواترة في الصحيحين وغيرهما وإليك تفصيل كلامه في ذلك حيث قال -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم ج١ ص ٢١٠- ٢١١ "قوله ﷺ في الرواية الأخرى **[أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به]**[1] فيه بيان ما اختصر في الروايات الآخر من الاقتصار على قول لا إله إلا الله وقد تقدم بيان هذا وفيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردد فيه كفاه ذلك وهو مؤمن من الموحدين ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها خلافًا لمن أوجب ذلك وجعله شرطًا في كونه من أهل القبلة وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلا به وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا من المتكلمين وهو خطأ ظاهر فإن المراد التصديق الجازم وقد حصل ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به صلى الله عليه وسلم ولم يشترط المعرفة بالدليل فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي، وقد تقدم ذكر هذه القاعدة في أول الإيمان والله أعلم" انتهى كلام الإمام النووي.

فثبت من النقول السابقة عن أئمة الإسلام صحة ما ذهب إليه الجمهور، من أن معرفة العقائد والأصول، على ما يقوله المتكلمون، بالنسبة لعوام وبسطاء الأمة بعيد جدًا عن الصواب، وفي سنن أبي داود **عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل]**[2].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سنن أبي داود ح(٢٥٣٢)، الاعتقاد للبيهقي ح(١٤٥)، الإيمان للقاسم بن سلام ح(٢٨) .

قال الإمام الزركشي في البحر المحيط ج٨/ ١٩٨:

"وقال ابن السمعاني: إيجاب معرفة الأصول على ما يقوله المتكلمون بعيد جدًّا عن الصواب ومتى أوجبنا ذلك فمتى يوجد من العوام من يعرف ذلك؟ ويصدر عقيدته عنه؟ كيف وهم لو عرضت عليهم تلك الأدلة لم يفهموها، وإنما غاية العامي أن يتلقى ما يريد- أن يعتقده ويلقي [به] ربه- من العلماء، ويتبعهم في ذلك ويقلدهم، ثم يسلم عليها بقلب طاهر عن الأهواء والأدخال، ثم يعض عليها بالنواجذ، فلا يحول ولا يزول ولو قُطع إربًا، فهنيئًا لهم السلامة والبعد عن الشبهات الداخلة على أهل الكلام، والورطات التي تغولها، حتى أدت بهم إلى المهاوي والمهالك، ودخلت عليهم الشبهات العظيمة وصاروا متجرئين، ولا يوجد فيهم متورع عفيف إلا القليل، فإنهم أعرضوا عن ورع الألسنة، وأرسلوها في صفات الله تعالى بجرأة وعدم مهابة وحرمة، ففاتهم ورع سائر الجوارح وذهب عنهم بذلك ورع اللسان، والإنسان كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فإذا خرب جانب منه تداعي سائره إلى الخراب، ولأنه ما من دليل لفريق منهم يعتمدون عليه إلا ولخصومهم عليه من الشبهة القوية.

ونحن لا ننكر من الدلائل العقلية بقدر ما ينال المسلم به رد الخاطر، وإنما المنكر إيجاب التوصل إلى العقائد في الأصول، بالطريق الذي اعتقدوا وساموا به الخلق وزعموا أن من لم يفعل ذلك لم يعرف الله تعالى، ثم أدى بهم ذلك إلى تكفير العوام أجمع، وهذا هو الخطيئة الشنعاء، والداء العضال، وإذا كان السواد الأعظم هم العوام، وبهم قوام الدين، وعليهم مدار رحى الإسلام، ولعل لا يوجد في البلدة الواحدة التي تجمع المائة ألف، من يقوم بالشرائط التي تعتبرونها، إلا العدد القليل الشاذ الشارد النادر ولعله لا يبلغ عقد العشرة، فمن يجد المسلم من قبله أن يحكم بكفر هؤلاء الناس أجمع ويعتقد أنهم لا عقيدة لهم في أصول أصلا وإنهم أمثال البهائم". انتهى كلام الامام الزركشي.

أقول: وعند تأمل النص السابق نرى أن الشبهات التي دخلت على أهل الكلام ومَنْ قلدهم من المعاصرين المتأخرين صاروا بها متجرئين، لأنهم أعرضوا عن ورع الألسنة، وأرسلوها في صفات الله تعالى بجرأة وعدم مهابة وحرمة، ففاتهم ورع سائر الجوارح وحُرموا ورع اللسان، وزعموا أن من لم يسلك الطريق الذي سلكوا، ويتلفظ بما تلفظوا به لم يعرف الله تعالى، وأنه جاهل بصفاته ومن ثم أطلقوا لسانهم بتكفير عوام وبسطاء المسلمين، وقد رد الأئمة عليهم ذلك بأوضح بيان وأرجح دليل...

قال الإمام عبد الرحيم العراقي في طرح التثريب ج٣:

"ولو سئل الناس عن الصفات لوجد العالم بها قليلا وحكاه ابن عبد البر عن المتقدمين من العلماء ومن سلك سبيلهم من المتأخرين واستدل عليه بأن عمر وعمران بن حصين وجماعة من (الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن القدر) ومعلوم أنهم إنما يسألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين) انتهى

وها هو الإمام ابن تيمية يقرر أنه ليس في الشرع ولا في العقل، ما يدل على أنا لابد أن نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات، كذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافرًا، لأن كثيرًا من المؤمنين لم يسمع كثيرًا مما وصف به الرسول ﷺ ربه سبحانه وتعالى، وأخبر به عنه فقال رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى ج٧ ص٥٧٣: (والمقصود هنا) أن المدلول إذا كان وجوده مستلزمًا لوجود دليله كان انتفاء دليله دليلا على انتفائه، أما إذا أمكن وجوده وأمكن ألا نعلم نحن دليل ثبوته لم يكن عدم علمنا بدليل وجوده دليلا على عدمه، فأسماء الله وصفاته إذا لم يكن عندنا ما يدلنا عليها، لم يكن ذلك مستلزمًا لانتفائها، إذ ليس في الشرع ولا في العقل ما يدل على أنا لابد أن نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات، بل قد قال أفضل الخلق وأعلمهم بالله في الحديث الصحيح

" **لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**" [١] وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة "**فأخر ساجدًا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحصيها الآن**" [٢].

فإذا كان أفضل الخلق لا يحصي ثناءً عليه، ولا يعرف الآن محامده التي يحمده بها عند السجود للشفاعة، فكيف يكون غيره عارفًا بجميع محامد الله والثناء عليه، وكل ماله من الأسماء الحسنى، فإنه داخل في محامده، وفيما يثنى عليه به، وإذا كان كذلك فمن كان بما له من الأسماء والصفات أعلم وأعرف كان بالله أعلم وأعرف، بل من كان بأسماء النبي ﷺ وصفاته أعلم، كان بالنبي ﷺ أعلم، فليس من علم أنه نبي كمن علم أنه رسول، ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل، ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه سيد ولد آدم، ولا من علم ذلك كمن علم ما خصه الله به من الشفاعة، والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله ﷺ، وليس كل من جهل شيئًا من خصائصه يكون كافرًا، بل كثير من المؤمنين لم يسمع بكثير من فضائله وخصائصه، فكذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافرًا، إذ كثير من المؤمنين لم يسمع كثيرًا مما وصفه به رسوله، وأخبر به عنه) انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

فالجهل بالصفات ليس جهلاً بالموصوفات، لأن العبارات قد تختلف، والألفاظ قد تتنوع، ولكن المُشار إليه واحد، والمقصود المنوه به لا يتعدد أو يختلف، فقد غالى من أوجب على بسطاء المسلمين الإحاطة بصفات الله تعالى...

---

(1) صحيح مسلم ح (١١١٨)، موطأ مالك ح(٧٢٥)، سنن أبي داود ح(٨٧٩).

(2) أصل الحديث في البخاري ح(٦٩٧٥) ، مسلم ح(٥٠٠).

قال الإمام الزركشي في المنثور في القواعد ج٣ ص ٩٠ نقلاً عن الأئمة رحمهم الله تعالى (الجهل بالصفات ليس جهلاً بالموصوفات، وقال: اختلفنا في عبارات والمشار إليه واحد، وقد مثل ذلك بمن كتب إلى عبيده "فأمرهم ونهاهم" فاختلفوا في صفاته هل هو أبيض أو أسود أو أحمر أو أسمر؟ فلا يجوز أن يقال: إن اختلافهم في "صفته" اختلاف في كونه سيدهم المستحق لطاعتهم وعبادتهم، فكذلك اختلاف المسلمين في صفات الإله) انتهى.

أقول: الجهل بالصفة ليس جهلا بالموصوف مطلقًا بل جهل به من بعض الوجوه، ومن ثم لا يكفر أحد من أهل القبلة عند ذلك ومن ضيَّق على عوام الأمة هذا الباب فقد حجَّر عليهم واسعًا وعسَّر عليهم يسيرا.

قال الإمام الزركشي في "البحر المحيط" ج١ ص ٧٤

[تنبيه] من تصور في الذات أوصافا لم تكن، فهل هو جاهل بالذات من حيث أنها ذات أو بها من حيث إنها موصوفة بخلاف ما اعتقد؟ وقد يقال: الجهل بالصفة هل هو جهل بالموصوف مطلقًا أو من بعض الوجوه؟ الظاهر: الثاني ومن ثم لا يكفر أحد من أهل القبلة، وقد اختلف قول الشافعي فيما إذا نكح امرأتين وشرط فيهما الإسلام أو في إحداهما النسب أو الحرية، فاختلف هل يصح النكاح؟ والقول بالصحة هو الجديد الصحيح مأخذه أن المعقود عليه معين لا يتبدل بالخلف في الصفة" انتهى كلام الإمام الزركشي.

فكل أحد من المسلمين يدرك معنى التوحيد من قوله ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ . وأنه لا شريك له في الألوهية.

وقد قرر الأئمة رضي الله عنهم أن عموم الأمة وبسطاءها ومنهم أهل الدعوة، قد جعل الله تعالى الواجبات العينية في حقهم مما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه، من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، وجعل الألفاظ المعبرة عن هذه الواجبات العينية مما يفيد معنى

واحدًا جليًّا لا سواه، يُعلم منه أنه مراد الله تعالى، فلم يحوج الله تعالى الأمة في عمومها لتشقيقات النظار والمتكلمين، بل يسر على البسطاء واجبات دينهم، وجعلها معلومة لكل أحد بالضرورة..

وهو ما قرره الإمام السيوطي في الإتقان ج٢ ص٤٨٠ حيث قال رحمه الله: "وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد وكل لفظ أفاد معنى واحدًا جليًّا يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله وأنه لا شريك له في الإلهية، وإن لم يعلم أن "لا" موضوعة في اللغة للنفي، و"إلا" للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ونحوها من الأوامر طلب إيجاب المأمور به، وإن لم يعلم أن صيغة "افعل" للوجوب، فما كان من هذا القسم لا يعذر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة" انتهى.

وقد أورد الإمام القرطبي في تفسيره ج١٦ ص٢٤١ عن الإمام الماوردي أن تفسير الأمر بالعلم في هذه الآية على ثلاثة أوجه، وهي تأكيد على علم النبي ﷺ بربه لا أنه طلب من الرسول ﷺ أن يتعلم كما يظن البعض...

فقال رحمه الله تعالى:

"قوله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ قال الماوردي: وفيه وإن كان الرسول عالمًا بالله ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله.

الثاني: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينًا.

الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه" انتهى.

وفى تفسير الجلالين ج ١ص٦٧٥ذهب الإمام السيوطي في تفسير الأمر بالعلم في هذه الآية، بالثبات على علمه صلى الله عليه وسلم بربه وهو العلم النافع حيث قال رحمه الله: "فاعلم أنه لا إله إلا الله" أي دم يا محمد على علمك بذلك النافع في القيامة"انتهى.

**وفي تفسير أبي السعود ج٨ ص٩٧ بين المقصود من الأمر بالعلم في هذه الآية الكريمة حيث قال:** ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ **أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه" انتهى.**

والسؤال المتبادر الآن إلى الذهن هل المنفي في لا إله إلا الله المعبود بحق أم المعبود بباطل؟

والجواب على ذلك ما ورد فى تحفة الحبيب على شرح الخطيب ج١ حيث قال رحمه الله تعالى:

"فإن قلت: هل المنفي في لا إله الا الله المعبود بحق أو المعبود بباطل؟ قلت: وقع في ذلك نزاع، والحق أن النفي إنما يتسلط على الآلهة المعبودة بحق، لا الآلهة المعبودة بباطل، لأن المعبود بباطل له وجود في الخارج ووجود في ذهن المؤمن، بوصف كونه باطلا، ووجود في ذهن الكافر بوصف كونه حقا، فهو لوجوده في الخارج لا يصح نفيه، لأن الذوات لا تنفي، وكذا من حيث وجوده في ذهن المؤمن أي من حيث كونه معبودًا بباطل لا يُنْفَى، إذ كونه معبودًا بباطل أمر حق لا يصح نفيه، وإلا كان كذبًا، وإنما ينفي من حيث وجوده في ذهن الكافر، بوصف كونه معبودًا بحق، فالمعبودات الباطلة لم تُنْف إلا من حيث كونها معبودة بحق، فلم يُنْفَ في لا إله إلا الله إلا المعبودُ بحق غير الله تعالى" انتهى.

فمحال أن يُعلِّم النبي ﷺ أمته الاستنجاء ولا يعلمهم التوحيد، وقد بين الإمام مالك رضي الله عنه حقيقة التوحيد المقصود، وأنه هو ما عُصم به الدم والمال على ما أورده الإمام السيوطي في الحاوي للفتاوى ج٢ ص١٢٩. حيث قال رحمه الله:"روينا بإسناد صحيح من طريق المزني أن رجلا سأله عن شيء من الكلام فقال: إني أكره هذا بل أنهى عنه كما نهى عنه الشافعي فلقد سمعت الشافعي يقول: سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال مالك محال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد والتوحيد ما قاله النبي ﷺ: **"أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"** [1] فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد" هذا جواب الإمام مالك رضي الله عنه عن هذا السؤال وبه أجبت " انتهى كلام الإمام السيوطي.

ونحن نتوقف على ما توقف عليه أئمتنا، ونكره ما كرهوا، ونعتقد أن من شدد في هذا الباب قد ضيق الواسع على عموم وبسطاء المسلمين، خلافًا لما هو الثابت من سنة سيد المرسلين في ذلك، حيث كان فيها التيسير والتسهيل في هذا الباب والتي أثبت فيها النبي ﷺ بقول [لا إله إلا الله] عصمة المال والدم، وجعلها متضمنة لحقيقة التوحيد، وهو ما أفتى به إمام دار الهجرة الإمام مالك في النص السابق عنه، دون الحاجة لاصطلاحات النظار، رفعا للحرج عن العامة وإثباتًا لإيمان الكافة من بسطاء المسلمين، حيث أن عوام الأمة مؤمنون بمجرد اعتقاد الحق جزما، من غير شك وتزلزل، ولا يلزمهم اصطلاحات ومقدمات المتكلمين، ومن أوجب ذلك عليهم وشدد في ذلك فقد ضيق الواسع وعسَّر اليسير، هذا مع زيادة التأكيد على أن الإيمان هو أول الواجبات، وهو قبل العلم وقبل القول والعمل؛ والذي ليس من شروط صحته، أهلية البحث والنظر والاستدلال، بل هو متقدم عليها، لكون أكثر المسلمين لا يعرفون حقيقة النظر والبحث والاستدلال، فلو قلنا أن أول الواجبات العلم والمعرفة والنظر، لأدى ذلك إلى إخراج الجم الغفير من أمة النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان، وألا يدخل

(1) سبق تخريجه.

الجنة إلا العدد القليل، من المتكلمين وآحاد الناس، وهذا ضعيف بعيد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أمته، وهو ما سبق أن سقنا نصوص أئمة الدين بالتفصيل عليه نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا إتباعه، ويلهمنا الصواب في القول والعمل إنه ولي ذلك والقادر عليه آمين.

# العِلْمُ الوَاجِبُ مَا هُوَ ؟

أعظم عبادة بين يدي الله عز وجل هو الدعوة لحقيقة الكلمة "لا إله إلا الله" التي بها نتحصل على جهد الكلمة في حياتنا بالحقيقة، والتي بها يُقام نظام العبادة في العالم كله، فلا معبود بحق إلا الله، ولا مخصوص بغاية الخضوع والخشوع والمحبة إلا هو سبحانه، فكما أن القطرة من الماء لا تستطيع أن تُغرق أحدًا، فلا يستطيع البحر بقوته وجبروته أن يُغرق أيضًا إلا بإذن الله تعالى...

والمقصود الأعظم من عمل الدعوة أن تتحقق فينا وفي عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم وسائر البشرية هذه الآية ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ .

أي أن توافق عقيدتنا عقيدته صلى الله عليه وسلم، وعبادتنا عبادته، فالنبي صلى الله عليه وسلم أسوة للبشرية عامة إلى يوم القيامة...

وكل الحياة تقاس بحياته صلى الله عليه وسلم ما بقي الليل والنهار، فمن كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حاضرة معه في الدنيا، ويحيا بها، فاز الفوز الأبدي، وحصل على النعيم الدائم، وكان في الصحبة والقرب والمرافقة ﴿ **وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾.

والله تعالى أعطانا هذه الحياة القصيرة للتمرين والتدريب على حياته صلى الله عليه وسلم، لأنها المثال الذي ارتضاه الله تعالى من جميع الخلق ليعرفوه من خلاله، ويعبدوه كما يحب، ويعظموه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه...

كثير من الناس أتوا ورحلوا من هذه الحياة الدنيا، ولم يتعرفوا على سُنَّة واحدة من سُنن النبي صلى الله عليه وسلم المعظَّمة، بل لم يوجهوا نظرهم ولو مرة واحدة لحياته الزكية الشريفة، حتى الإرادات والمقاصد شردت بعيدًا عن غايات رسالته وأساس بعثته....

وبدون أي استثناء فأعظم ما ينتظر أي إنسان هو مصير آخرته، لأنه لابد لكل أحد من الخروج إلى هذه الدار الآخرة، المؤمن والكافر، والأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، فكل هؤلاء توزن حياتهم بمقدار ما فيها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضًا خروج الروح من الجسد عند الموت وراحتها في هذا الوقت، وفي القبر والحشر والميزان والصراط حسب موافقة حياتها لحياته صلى الله عليه وسلم، وحسب صلتها مع هذه الحياة...

فمن وصل حياته في الدنيا بحياة سيد البشرية صلى الله عليه وسلم، وصلته الملائكة عند الموت وتنزلت عليه تثبته وتبشره وتُحسن قوله في الدعوة إلى ربه ومولاه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ .

ولكن كيف تأتي الموافقة منا لحياة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحياة الدنيا؟ الله عز وجل أمرنا في ذلك باتخاذ الأسباب، فكما أن للماديات أسبابًا، كذلك للدين والروحانيات أسباب، وإذا أردنا مطابقة حياتنا لحياة النبي صلى الله عليه وسلم، فما علينا إلا أن نبدأ بما بدأ به رسولنا صلى الله عليه وسلم، وأتعب نفسه الزكية وكاد يقتلها من أجله، وهو الحرص على هداية الناس ودعوتهم إلى الله تعالى، وطلب نجاتهم في الدنيا والآخرة، وبذل كل غال ونفيس لهذا المقصود، حتى وإن كانت النفس ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾ ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾

ثلاثة عشر عامًا في مكة والنبي صلى الله عليه وسلم على هذا المقصود، وأتبعها بعشرة أعوام في المدينة حتى هدى الله تعالى به أعينًا عميا، وأسمع به آذانًا صُما، وأخرج بدينه ودعوته عموم الإنسانية من الظلمات إلى النور...

وما زالت هذه النيات والمقاصد تنتظر أصحابها، ليحملوها إلى يوم القيامة إلى سائر البشرية، وليتحقق قيام هذه الأمة المحبوبة على مقصد وجودها، وأساس بعثتها، ولتطابق حياتها بحياة نبيها وحبيبها وقدوتها صلى الله عليه وسلم..

ولما كان العلم شريفًا في ذاته، عظيمًا في مقداره، أعز الله سبحانه أهله وحملته، ورفع درجتهم ورتبتهم ، فجعلهم بسببه قرناء للسفرة المقربين ، ملائكته الكرماء المطهرين ،فقال عز من قائل: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨] فأضاف الفضل والتشريف للملائكة بإضافتهم إليه سبحانه ، وأضاف التكريم للعلماء عندما قرنهم بملائكته

وأصفيائه ، ومن أجل هذه الأهمية القصوى لتعاليم الدين ، سعت الأقدام لتشق طريقها إليه ، وقامت السواعد لرفع راياته وأعلامه ، فهو منار السبيل ، والأثـــر الجميل في الدنيا والآخرة ، وقد قال النبي ﷺ « **طلب العلم فريضة على كـــل مسلم** ».

ولكن ما هو المقصود بهذا العلم الذي هو فريضة ؟ وهل ينطبق على أي علم؟ أم هو علم موصوف على الخصوص ؟! وهل اتفق السابقون من الأئمة الأعلام في توصيف هذا العلم على قول واحد ؟ أم اجتهدوا واختلفوا فيه على أقوال ؟

الذي يتحققه الناظر في أقوالهم والمتابع لاجتهاداتهم وترجيحهم ، أن هـــذا العلم الواجب تعددت فيه أقوالهم ، وتنوعت حوله فتواهم ، إلا أن إمامًا جليلا من أئمة الدين ، كفانا مؤنة النظر والترجيح ، والتمحيص والتصحيح ، فجمع لنا أقوالهم ثم انتخب من بينها الراجح الصحيح ، في العلم الواجب الصريح المـــتعين على كل مسلم...

هذا العالم هو حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى حيث ذكر اختلاف العلماء في هذا العلم ، الذي هو فرض عين وذكر محصل كلامهم فيه ، ثم قـــام بترجيح القول الظاهر الصحيح ، فقال رحمه الله تعالى في الأحيـــاء ج١ ص ٢٠ تحت عنوان بيان العلم الذي هو فرض عين: « **واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقـــة ولا نطيـــل بنقـــل التفصيل ولكن حاصله أن كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده فقال المتكلمون هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه**

**وصفاته وقال الفقهاء هو علم الفقه إذ به تُعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلـــوم كلها، وقال المتصوفة المراد به هذا العلم فقال بعضهم هو علم العبـــد بحالـــه ومقامه من الله عز وجل وقال بعضهم هو العلم بالإخلاص وآفات النفـــوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان، وقال بعضهم هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه، وقال أبو طالـــب المكي هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله... »[1] إلى آخر الحديث لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفيـــة الوجوب ) انتهى.**

ثم شرع الإمام الغزالي في بيان علم المعاملة التي كُلف العبد العاقل العمل بها فقال رضي الله عنه ج١ ص ٢١: « والمعاملة التي كُلف العبد العاقل العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وليس يجب عليه أن يُحصِّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يُصدق به ويعتقده جزمًا من غير اختلاج ريب واضطراب نفس وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان

(1) صحيح البخاري ح(٨)، صحيح مسلم ح(١٢٠).

« إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل »[1] فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمها ليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريًا في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنها وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وأما في الاعتقاد. وأما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتحدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة فإن كان صحيحًا وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال وهكذا في بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل وكذلك في سائر الأصناف فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم

(١) قال الحافظ العراقي حديث اكتفى رسول الله من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل مشهور في كتب السير والحديث فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة.

الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل مَنْ ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكًا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج و لم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله فإنّ فعل ذلك نفل فعلمه أيضًا نفل فلا يكون تعلمه فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين. وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن فذلك أيضًا واجب بحسب ما يقتضيه الحال فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابسًا للحرير أو جالسًا في الغصب أو ناظرًا إلى غير ذي محرم فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابسًا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه. وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الإسلام إجماعا ولكن هذه الخواطر الموجبة

للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين » انتهى.

ثم قال رحمه الله تعالى فى ج١ ص٢٢ وهو يبين الأشياء التى هى من تتمة كلمتي الشهادة: « ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق وهو من تتمة كلمتي الشهادة فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبًا فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم « **طلب العلم**

فريضة **على كل مسلم»**[1] علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه والله أعلم» انتهى ملخصا

أقول: فتحصل من كلامه رحمه الله تعالى أن العلم الواجب **هو علم العمل الذي هو مشهور الوجوب، وهو الذي يتوقع وقوعه على القرب غالبًا وهو المشهور المعروف بعلم الحال ، فلا يفترض على كل مسلم فرض عين طلب كل علم، أو أي علم، وإنما يفترض عليه طلب علم ما يقع له في حاله، في أي وقت من ليل أو نهار على مدار الأربع وعشرين ساعة**، أما ما زاد على ذلك فهو فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ...

وقد بين الامام الغزالى هذا العلم، الذى هو فرض كفاية، وتعلقه بالعلوم الشرعية وإليك كلامه رحمه الله تعالى مختصرا كما فى الاحياءج١ص٢٣( وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان : فهى محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة فتنقسم الى المحمودة والمذمومة .

أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهى أربعة أضرب: الضرب الأول الأصول: وهى أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام واجماع الأمة وآثار الصحابة والاجماع أصل من حيث أنه يدل على السنة فهو أصل فى الدرجة الثالثة وكذا الأثر فانه أيضا يدل على السنة لأن الصحابة رضى

(1) سنن ابن ماجه ح(٢٢٤)، شعب الإيمان ح(١٦٦٥) قال الإمام السيوطي سئل الشيخ محيي الدين النووي عن هذا الحديث فقال بأنه ضعيف أي سندًا وإن كان صحيحًا أي معنى، وقال تلميذه جمال الدين المزي: هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن.

الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه وربما لاتحيط العبارات بما أدرك بالقرائن فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولايليق بيانه بهذا الفن.

الضرب الثاني الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعانى تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام"لايقضى القاضى وهو غضبان" أنه لايقضى اذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما بمرض وهذا على ضربين: أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء. والثانى ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وماهو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه.

والضرب الثالث المقدمات: وهى التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فانهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لاتظهر الا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط.

الضرب الرابع المتممات: وذلك فى علم القرآن فانه ينقسم إلى مايتعلق باللفظ كتعلم القرآت ومخارج الحروف، وإلى مايتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده أيضاعلى النقل إذ اللغة بمجردها لاتستقل به، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة

الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفيه استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذى يسمي اصول الفقه ويتناول السنه ايضا.وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة في الرواة والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك مايتعلق به فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات). انتهى باختصار كلام الامام الغزالى

ثم بين رحمه الله تعالى كيفية التدريج فى تعلم فروض الكفايات حيث قال فى ص٤٦ :(وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك وما أبعد ذلك منك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها فابتدئ بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ثم بأصول الفقه وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبًا للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة » انتهى

أقول : ولنتابع الكلام على العلم الواجب المفروض ما هو ؟..

واليك ما **قرره الإمام برهان الإسلام الزرنوجي ( تلميذ صاحب الهداية) في كتابه القيم تعليم المتعلم طريق التعلم ص ٤ حيث قال رحمه الله تعالى: (فصل: في ماهية العلم والفقه وفضله ).**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » اعلم أنه لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم ، وإنما يفترض عليه طلب علم الحال.

فإنه يقال: **أفضل العلم علم الحال ، وأفضل العمل حفظ الحال.** ويفترض على المسلم طلب علم ما يقع له في حاله في أي حال كان ، فإنه لا بد له من الصلاة فيفترض عليه علم ما يقع في صلاته، بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب، لأن ما يتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضًا، وما يتوسل به إلى إقامة الواجب يكون واجبًا. وكذلك في الصوم والزكاة، إن كان له مال والحج إن وجب عليه وكذلك في البيوع إن كان يتجر.

قيل لمحمد بن الحسن رحمه الله: ألا تصنف كتابًا في الزهد ؟

قال: صنفت كتابًا في البيوع! يعني الزاهد هو من يتحرز عن الشبهات والمكروهات في التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحرف. وكل من اشتغل بشيء منها يفترض عليه علم التحرز عن الحرام فيه ، وكذلك يفترض عليه علم أحوال القلب: من التوكل ، والإنابة ، والخشية ، والرضا ، فإنه واقع في جميع الأحوال.

وشرف العلم لا يخفي على أحد إذ هو المختص بالإنسانية لأنه جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان ، وسائر الحيوانات كالشجاعة ، والجراءة والقوة، والجور ، والشفقة وغيرها سوى العلم ، وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة وأمرهم بالسجود له وإنما شرف العلم لكونه وسيلة إلى التقوى التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية ، كما قيل محمد بن الحسن بن عبد الله رحمة الله عليه:

| | |
|---|---|
| **تعلم فإن العلم زين لأهله** | **وفضل وعنوان لكل المحامد** |
| **وكن مستفيدا كل يوم زيادة** | **من العلم واسبح في بحور الفوائد** |
| **تفقه فإن الفقه أفضل قائد** | **إلى البر والتقوى وأعدل قاصد** |
| **هو العلم الهادي إلى سنن الهدى** | **هو الحصن ينجي من جميع الشدائد** |
| **فإن فقيها واحدًا متورعا** | **أشد على الشيطان من ألف عابد** |

وكذلك في سائر الأخلاق نحو: الجود والبخل ، والجبن ، والجراءة والتكبر ، والتواضع ، والعفة ، والإسراف والتقتير وغيرها فإن الكبر والبخل والجبن والإسراف حرام ، ولا يمكن التحرز عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها.

فيفترض على كل إنسان علمها، وقد صنف السيد الإمام الأجل الشهيد ناصر الدين أبو القاسم كتابًا في الأخلاق ونعم ما صنف فيجب على كل مسلم حفظها. وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين ففرض على سبيل الكفاية ، إذا قام به البعض في البلدة سقط عن الباقين ، فإن لم يكن في البلدة من يقوم به اشتركوا جميعًا في المأثم ، فيجب على الإمام أن يأمرهم بذلك ، ويجبر أهل البلدة عليه وقد قيل: إن علم ما يقع في نفسه في جميع الأحوال هو بمنزلة الطعام لا بد لكل واحد

منه ، وعلم ما يقع في بعض الأحايين بمنزلة الدواء يحتاج إليه حين المرض فقط ، وعلم النجوم بمنزلة المرض فتعلمه حرام لأنه يضر ولا ينفع ، والهرب من قضاء الله تعالى وقدره غير ممكن فينبغي لكل مسلم أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالى والدعاء والتضرع وقراءة القرآن والصدقات الدافعة للبلاء ، ويسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، ليصونه الله تعالى عن البلاء والآفات فإن من رزق الدعاء لم يحرم الإجابة ، فإن كان البلاء مقدرا يصبه لا محالة لكن ييسره الله عليه ، ويرزقه الصبر ببركة الدعاء.

اللهم إلا إذا تعلم من النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة فيجوز ذلك.

وأما تعلم علم الطب: فيجوز لأنه سبب من الأسباب ، فيجوز تعلمه كسائر الأسباب ، وقد تداوى عليه الصلاة والسلام ، وقد حكى عن الشافعي رحمة الله عليه أنه قال: **العلم علمان: علم الفقه للأديان ، وعلم الطب للأبدان وما وراء ذلك بلغة مجلس.**

وأما تفسير العلم فهو صفة يتجلى بها لمن قامت هي به المذكور كما هو. والفقه: معرفة دقائق العلم مع نوع علاج. قال أبو حنيفة رحمة الله عليه: **الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها.** وقال: **ما العلم إلا العمل به ، والعمل به ترك العاجل للآجل.** فينبغي للإنسان ألا يغفل عن نفسه ، وما ينفعها وما يضرها في أولها وآخرها فيستجلب ما ينفعها ويجتنب ما يضرها كي لا يكون عقله وعلمه حجة عليه فيزداد عقوبة نعوذ بالله من سخطه وعقابه ) انتهى.

أقول: فالعلم الواجب على كل أحد من العامة هو أن يعرف ما يجب عليه وما يحرم عليه ، لا أن يعرف كل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل ما نهى عنه ، وكل ما أخبر به فإن ذلك يتعسر عليه ، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف الأمر المفصل الواجب في الزكاة ، وكذلك من لم يملك الزاد والراحلة لا يجب عليه معرفة المناسك على التفصيل ، فتحصل من ذلك أنه قد يجب من الإيمان تصديقًا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين...

وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٧ ص ١٩٦ فقال رحمه الله: «وهؤلاء غلطوا من وجوه (أحدها): ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الأمر كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد وأوجب على أمة محمد من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ، ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن، والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلا، ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا فإنه لا بد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث، وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر ، وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر.

« وأيضًا » لو قُدِّر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به. بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة ومن لا استطاعة له على الحج ، ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة. فصار يجب من الإيمان تصديقًا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين » انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

وها هو الإمام ابن تيمية أيضًا يؤكد ما سبق في مجموع الفتاوى ج٣ ص ٣٢٨.

حيث قال رحمة الله عليه وهو يرد على استفسار السائل عن العلم الواجب.

(« وأما قوله: ما الذي يجب عليه علمه ، فهذا أيضًا يتنوع فإنه يجب على كل مكلف أن يعلم ما أمر الله به ، فيعلم ما أمر بالإيمان به ، وما أمر بعلمه بحيث لو كان له ما تجب فيه الزكاة لوجب عليه تعلم علم الزكاة ، ولو كان له ما يحج به لوجب عليه تعلم علم الحج ، وكذلك أمثال ذلك!

ويجب على عموم الأمة علم جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث لا يضيع من العلم الذي بلغه النبي صلى الله عليه وسلم أمته شيء وهو ما دل عليه الكتاب والسنة ، لكن القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين فرض على الكفاية: إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين] انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

قلت: وعلم العمل الذي هو مشهور الوجوب والذي يتوقع وقوعه على القرب غالبًا وهو المعروف بعلم الحال ، هو الذي أرشد إليه الإمام مالك عندما سئل: « **ما تقول في طلب العلم ؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه** ».

وفي تاريخ بغداد ج٥ ص ٢٧: « **سئل أحمد بن عطاء عن قول النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، فقال: علم الحال وعلم الوقت وعلم السر فمن جهل وقته وما عليه فقد جهل العلم الذي أمر به** ».

من أجل هذا كان عمل الدعوة والخروج في سبيل الله لنشر فضائل الأعمال في الأمة ، حتى يأتي في المسلمين الطلب لتعلم علم الدين في كل فرد منهم، كل واحد بحسبه، الكبير منهم والصغير، يشعرون بالحاجة للعلم والعلماء، كما يأتي عندهم الاستعداد للعمل به، والامتثال والتطبيق لكل ما يسمعونه، فمقصود عمل الدعوة هو نشر جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، أي أن نكون سببًا في امتثال وانقياد الأمة لكامل الإسلام علميًّا وعمليًّا ، وهذا هو المقصود الحقيقي لعمل الدعوة، المتمثل في إحياء كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا ، وأما صورة عمل الدعوة من تفريغ الأوقات والخروج في سبيل الله في جماعات والتجول على عموم الناس، فهذا كله إنما هو وسيلة لتحقيق هذا المقصود، وكما أن قيام المبلغين بتعليم وتلقين عوام الأمة وبسطائها الشهادتين ، والوضوء والصلاة وسائر فرائض العين ، فهي كتعلم الألف والباء بالنسبة لمنهج الدعوة الكامل ، لذلك كانت طريقة التعليم والتربية التي يتم تعميمها على بسطاء

الأمة في عمل الدعوة ، هي نفس الطريقة التي كانت سائدة في زمن النبي صـلى الله عليه وسلم، وهى طريقه التلقين والتلقى، وعلى وفق هذه الطريقة كان تعلم جميع أحكام الدين وتعليمه، فى عصر النبى صلى الله عليـه وسـلم، والطـرق والوسائل الأخرى التي استحدثت بعدها مثل التأليف والتصنيف ونشر الكتـب وغيرها، إنما أحدثتها الحاجة والضرورة، فظن بعض الناس أنها هـي الأصـل ، ونسوا فضل طريقة العهد النبوي، مع أنها هي الأصل والأساس لكـل وسـائل التعليم المعاصرة ،وهذه الطريقة يكون معها أبلغ الأثر، في نفوس العامة والبسطاء من الأمة...

فتعلم العلم أثناء الخروج هو على نوعين:

**أولا: التعليم العملي:** حيث يتعلم الخارجون الجدد في سـبيل الله تعـالى، أحكام الشرع الواجبة عليهم على التعيين عمليا، من القدماء عن طريق المحاكـاة والتقليد، حتى تستقر وتثبت في النفوس كل ذلك في فرائض العين المختلفة، مثل الوضوء والصلاة والطهارة والصوم والحج، وهذا معلـوم تـواترا، أن معظـم الجماعات التي تخرج في سبيل الله، تجعل عند الوضوء من يلاحظ القادمين مـن الخارج للوضوء، فإن كانوا لا يحسنونه، يقومون بتعليمهم الوضـوء بـاللطف والحكمة، بقولهم دعنا نتوضأ كما كان يتوضأ النبي صلى الله عليه وسـلم ... كذلك كثيرًا ما ترى أحد الدعاة جالسًا بجوار آخر من القادمين من الخـارج، يردد معه التشهد لأنه لا يحسن حفظه حتى يتقنه ،أو الفاتحة أو غير ذلـك مـن الواجبات الكثيرة، التي تنتقل من أهل الدعوة إلى عموم الأمة، عن طريق التلقي

المباشر ومكثهم معهم في بيئة الخروج. كذلك يتم تعليم السنن والأذكار النبوية بنفس الترتيب، وعموم القربات التي تتخلل اليوم الكامل الذي يقضيه المسلم أثناء الخروج، فيتعلم آداب الطعام والنوم وقراءة القرآن، كل ذلك عمليًّا كما كـــان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك لأصحابه بقوله: «**صلوا كمـــا رأيتمـــوني أصلي**»[1] وقوله صلى الله عليه وسلم « **ألا أني أصوم وأفطر، وأقوم، وأنـــام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[2] وقوله صلى الله عليه وسلم « **توضؤوا بسم الله**»[3] ثم يشرع صلى الله عليه وسلم في بيان الوضوء أمـــامهم ودعوته صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يتعلموا منه مناسك الحج عمليًّا أثنـــاء حجه معهم في حجة الوداع وذلك بقوله: « **خذوا عني مناسككم** »[4].

**ثانيًا: التعليم النظري**: وهو على نوعين: أولاً: التعليم الجماعي عن طريـــق حلقة التعليم اليومية التي تمتد لثلاث ساعات يوميًا وهي على أربعة أقسام:

١- تعليم القرآن الكريم بتصحيح الفاتحة والقراءة، للسور الأخيرة من القرآن، بمقدار عشر سور وهي اللازمة للصلوات الخمس لكل مسلم حتى تصح صـــلاته بإتقانها وتصحيحها، سواء أكان المتعلم عربيًّا أم أعجميًّا وحاجة العجم لـــذلك أشد.

(1) صحيح البخاري ح(٦٠٥).

(2) صحيح البخاري ح(٤٧٧٦)، صحيح مسلم ح (٣٤٦٩).

(3) مسند أحمد ح(١٢٦٩٤)، سنن النسائي ح(٧٨)، سنن البيهقي الكبرى ح١٩٤.

(4) صحيح مسلم ح (٣١٩٧)، سنن البيهقي الكبرى ح(٩٣٠٧)، سنن النسائي ح(٣٠٦٢)، سنن أبي داود ح(١٩٧٢).

٢- تعلم وقراءة حديث النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب النفيس" رياض الصالحين" للإمام النووي، في أبواب الفضائل والأخلاق والمعاملات والمعاشرات، حتى يأتي في القلوب الشوق والرغبة للأعمال، وهو الكتاب الذى أوصى به الإمام الذهبى طالب العلم بقوله:" فعليك يا أخى بتدبر كتاب الله،وبإدمان النظر فى" الصحيحين"،و"سنن النسائى"،و "رياض النواوى"و "أذكاره"، تفلح وتنجح" انتهى

٣- قراءة ومدارسة حياة الصحابة رضي الله عنهم في آخر اليوم، حتى ترتفع فينا الهمم لبذل الجهد والتضحية لنشر الدين، كما فعلوا هم ذلك رضي الله عنهم، وحتى ننتقل مما نحن فيه الآن، من النسبة البسيطة في صفات الإيمان إلى ما كانوا عليه رضي الله عنهم من كمال الإيمان والتقوى، فمع ذكر جهودهم وتضحيتهم يظهر لنا أن كل ما نقوم به، بجوار ما بذلوه هو جهد متواضع قليل، فتتأهل الهمم والعزائم، لمزيد من البذل والجهد والتضحية، تشبها بهم رضي الله عنهم.

٤- تعلم الصفات الستة التي كانت بأكملها عند الصحابة رضي الله عنهم، والتي بالسير عليها وإحيائها فينا، وفي أمة النبي صلى الله عليه وسلم يسهل علينا السير على أوامر الدين كلها، وهذة الصفات هى:

١ _ تحقيق اليقين الصحيح على الكلمة الطيبة لا إله إلا الله وحسن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- الصلاة ذات الخشوع والخضوع.

٣- العلم مع الذكر.  ٤- إكرام المسلمين.

٥- تصحيح النية وإخلاصها لله تعالى.

٦- الخروج في سبيل الله والدعوة والتبليغ.

**ثالثًا: التعليم الانفرادي:**

وهذا في الوقت الذي لا يكون فيه أعمال جماعية أثناء الخروج ، ويكون بين الجدد والقدماء، كتعلم الطهارة أو الصلاة أو قراءة القرآن ،انفراديا بين الجديد والقديم، هذه باختصار طرق التعليم أثناء الخروج ، وهي نافعة مباركة لعموم وبسطاء الأمة ، حيث يستقيمون بها على الأحكام اللازمة في حقهم بيسر وسهولة، أما من أراد تحصيل الأحكام بالتفصيل، أو التوسع في التعليم، فيتم توجيهه إلى دروس العلم من المتخصصين من العلماء بعد العودة من الخروج...

فعمل الدعوة مبنى على العلم ، والعلم ملك لله سبحانه وتعالى وقد أعطاه للعلماء، ولكن عمل الدعوة لعموم الأمة ، فإن كان أساسه العلم وهو عمل عموم الأمة وبسطائها، فهم لا يستغنون عن العلماء وفي نفس الوقت لا يحاولون أن يدعوا بأنهم كلهم علماء ،بل إذا سألهم أحد المسلمين، ولم يكن بينهم عالم، فهم يوجهونه لقصد وطلب العلماء وسؤالهم ولا يتحرجون من ذلك ، وعبارتهم مشهورة بين عموم الناس وهي قولهم « **نسأل العلماء** »، بخلاف غيرهم ممن خاض في هذا الأمر بغير أهلية للبحث أو النظر أو الاستدلال ، حتى تجرأ البعض فتصدى لمسائل الكفر والإيمان ؟ ونواقض الإسلام، وهو لا يحسن معرفة نواقض الوضوء! فإنا لله وإنا إليه راجعون..

وعصم الله تعالى أهل الدعوة في عمومهم من هذه الآفة ، وهي التقول على الله تعالى أو على رسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم ، والتصدي للفتوى والمسائل بغير أهلية. فلزموا حدهم و لم يتجاوزوا قدرهم، ولو كان حالهم غير هذا لكنا أول المعترضين عليهم في ذلك، لما في الجراءة على الفتوى من غير المؤهلين من مفاسد عامة شاملة...

فإذا جاءت الرغبة للتعلم في نية أحد المبلغين أو الدعاة، فهذه رغبة محترمة وهي طلب العلم ، ولكن لا بد من التشاور مع أهل الاختصاص...

فقد لا يكون له صلاحية لذلك، وأهل الاختصاص عندما يتصل بهم طالب العلم ، يبدأون معه ببداية ونهاية، أما من يحضر هكذا في جلسات المساجد ، بدون منهج وتحقيق ودراسة السنوات الطوال، و لم يحصل علمًا من العلوم كاملا ، بل مجرد محاضرة يسمعها من هنا وهناك، فإذا ما انتهت لا يدري تحت أي علم من علوم الشرع هي تندرج ، وماذا قبلها وماذا بعدها ، وقد يكون المحاضر في المحاضرة المقبلة يتكلم في جانب آخر غير الذي سمعه من السابق ، وهكذا المحاضر الثالث، فليس هذا ترتيب العلم ، بل قد يكون هذا من البعض، شهوة كلام وشهوة سماع..

نسأل الله التوفيق والسداد على النيات الصالحات...

فترتيب علم الدين ليس فيه اختراع ، فلو كان من يطلبه من العوام ، فالعامى له فى ذلك طريق ، وهو تعلم علم الفضائل حتى تظل العواطف للدين عنده متقدة وقوية، أما علم المسائل فكلما عنت الحاجه لطلبه، فإذا جاء وقت الصوم مثلاً

يلزمه فى آخر شعبان أن يطلب أحكامه من المتخصصين، وإذا كان عنده مـــال وبلغ النصاب وحال عليه الحول وهو مسلم بالغ عاقل يلزمـــه حينئـــذ تعلـــم الزكاة...وهكذا الحج وبقيه فرائض العين ...الخ

وإن كان يريد التخصص، فله طريق آخر على ترتيب الخواص ، وفى هـــذا الطريق لابد له من عالم متخصص، ينقله من مرحله إلى مرحله، علـــى حســـب حاله، وعلى حسب همته وطلبه، فالعلم لابد له من طلب، والشاهد على ذلـــك حديث جبريل عليه السلام عندما سئل عن الاسلام والايمان، وحديث المســـيئ صلاته عندما أمره النبى صلى الله عليه وسلم بقوله **"ارجـــع فصـــلِ فإنـــك لم تصلِ"**[1].

ورجع هذا الصحابى مرارا ولم يعلمه النبى صلى الله عليه وسلم، حتى قال له يا رسول الله **(إنى لا أعلم غيرها فعلمنى)** عند ذلك علّمه النبى صلى الله عليـــه وسلم، عندما وجد عنده الهمة لطلب العلم...

فأهل الاختصاص هم الذين يحققون المسائل ...

أورد الإمام الآجري بسنده في كتاب أخلاق العلماء ص ٢٥ عن مجاهد قـــال: «بينما نحن وأصحاب ابن عباس حلق في المسجد. طاوس وســـعيد بـــن جـــبير وعكرمة. وابن عباس قائم يصلي إذ وقف علينا رجل فقال هل من مفت؟ فقلنا: سل فقال: انى كلما بلت تبعه الماء الدافق. قال قلنا: الذي يكون فيه الولد؟ قال نعم. قلنا: عليك الغسل. قال. فولى الرجل وهو يُرجِّع قال وعجَّل ابن عباس في

(1) ضحيح البخاري ح(٧٢٤)، صحيح مسلم ح(٣٩٧).

صلاته، ثم قال لعكرمة: عليَّ بالرجل وأقبل علينا فقال: أرأيتم ما أفتيتم به هـــذا الرجل عن كتاب الله ؟ قلنا: لا. قال: فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟. قلنا لا. قال: فعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلنا: لا قال: فعمه؟ قلنا: عن رأينا قال: فقال فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد** » قال وجاء الرجل فأقبل عليه ابن عباس فقال أرأيت إذا كان ذلك منك أتجد شهوة في قُبلك ؟! قال لا قال فهل تجد خدرًا في جسدك ؟ قال لا. **قال إنما هذه أبردة يجزيك منها الوضوء**»[1].

قال محمد بن الحسين ( أي الإمام الآجري): « كيف لا يكون العلماء كذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[2].

وأورد الإمام الآجري أيضًا بسنده في كتاب أخلاق العلماء عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم « **إن مثل العلمـــاء في الأرض كمثل نجوم السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فإذا انطمســت النجوم يوشك أن تضل الهداة** [3]».

(١) أخرجه ابن عساكر ١٨/٢٣٠، كتر العمال ح(٣٨٧٩٩).

(٢) صحيح البخاري ح(٧١)، صحيح مسلم ح (١٠٣٧) .

(٣) رواه أحمد ح (١٢٦٢١)، رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه. ج٢ ص ٧٠ وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب في هذا الحديث (رواه أحمد عن أبي حفص صاحب أنس و لم أعرفه وفيه رشد ابن سعد).

قال محمد بن الحسين ( أي الإمام الآجري ): فما ظنكم -رحمكم الله- طريق فيه آفات كثيرة ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء فإن لم يكن فيه ضياء وإلا تحيروا فقيض الله لهم مصابيح تضيء لهم فسلكوه على السلامة والعافية. ثم جاءت طبقات من الناس لا بد لهم من السلوك فيه فسلكوا. فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة فما ظنكم بهم. هكذا العلماء في الناس لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض ولا كيف اجتناب المحارم ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقه إلا ببقاء العلماء. فإذا مات العلماء تحير الناس ودُرس العلم بموتهم وظهر الجهل فإنا لله وإنا إليه راجعون مصيبة ما أعظمها على المسلمين!! ) انتهى كلام الإمام الآجري

فأهل الاختصاص هم الذين يحققون المسائل،وهم نجوم السماء يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، فإذا ما فقدوا تحير الناس ...

ومن هذا الباب ما أخرجه أبو داود بسنده في السنن عن جابر رضي الله عنه قال: « خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجَّه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك فقال: **قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيي السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب** -شك موسى- على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » الحديث.

**أقول:** ففي هذا الحديث أسند النبي صلى الله عليه وسلم القتل إليهم، لأنهم تسببوا فيه بتكليفهم لهذا الرجل باستعمال الماء ، حال وجود الجرح الشديد في رأسه، معتمدين في فتواهم على ظاهر اللفظ في قوله تعالى « فلم تجدوا ماءً »

لأن الاجتهاد والفتوى له شروط كثيرة، لا بد من تحقيقها وتحصيلها أولا، وهي لم تكن لديهم...

ثم بالغ صلى الله عليه وسلم في زجرهم وتهديدهم بأن دعي عليهم بقوله «**قتلهم الله** » ثم أردف ذلك بقوله « **ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العيي السؤال** »[1] أي أن الجهل وعدم العلم والتحقيق داء ، وشفاء ذلك السؤال والتعلم، قال الإمام الخطابي: (**في هذا الحديث من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم ، وألحق بهم الوعيد بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قَتَلَةً له** » انتهى

**أقول:** فبعض الفتاوى من غير المؤهلين ضررها كضرر القتل ، وأصحابها في وصف صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم قَتَلَة، زجرا وتهديدا لمن هذا حاله من أمة الإسلام إلى قيام الساعة، لأنهم لم يكونوا على الأهلية التامة في البحث والاجتهاد، فكلامهم قاتل للأمة، علموا ذلك أو لم يعلموا، وأقروا بهذا أو لم يُقروا، ومن الناس من يكون كلامه ليس قاتلا لرجل واحد، بل ثمرة اجتهاده بغير علم، وفتواه بغير أهلية، يكون أثرها ونتيجتها قتل أمَّة، وبلدا كاملا من المسلمين، فالله المستعان وعليه التكلان في حفظ عموم المؤمنين في بره وبحره أجمعين..

---

(١) سنن أبي داود (٣٣٦)، المستدرك للحاكم ح(٥٨٥) بنحوه، سنن البيهقي ح(١٠١٤)، صحيح ابن خزيمة ح(٢٧٣) .

فالمنتقدون على أهل الدعوة عدم التعلم، والواصمون لهم بالجهل، هل يقصدون بذلك فرائض العين، من واجبات الإيمان والطهارة، والوضوء والصلاة والصوم وغير ذلك، مما هو مشهور الوجوب ويقع على القرب، أم فرائض الكفاية وهي القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين، من معرفة علم المسائل والفتوى والخلاف والتفسير والحديث... إلخ

إن كان المقصود الأول وهو عدم معرفتهم بفرائض العين على اختلافها، فهو باطل ،لأننا نرى أن تاركي الصلاة مثلا يخرجون معهم، ويتعلمون منهم واجبات الإيمان والطهارة والصلاة بالتفصيل حتى يتقنوها وكذلك غيرها من الفرائض...

وإن قصد الثاني ،أي علم المسائل والفتوى والتفسير والحديث، فهو فرض كفاية للمستطيع، ولا لوم عليهم فيه فلا يطالب به البسطاء فيهم ،بل إن قام به العلماء منهم وهم كثير، أو من غيرهم، سقط عن الباقين، لأن فرض الكفاية فعل البعض كاف في الإتيان به...

أما ذكر الخلافيات فترك البحث فيها أثناء خروجهم، غرضه تأليف القلوب على الفضائل، واجتماعها على الود، بدلا من تفرق القلوب ونفرتها ،من الخلافيات، مع عدم وجود الصفات الإيمانية والعلمية والأخلاقية اللازمة، عند البحث والمناظرة ،بحيث لا تؤدي إلى هذه المفاسد.

ونختم ما سبق بتفاصيل زيارة لنا لإحدى البلاد الإسلامية، مما يعد غالب سكانها من العجم ، غير الناطقين باللغة العربية،عندما تم ترتيب زيارة لنا مع مسئول كبير، ممن يشرف على الشئون الدينية والمساجد، وكان معنا اثنان من

الأئمة من أهل الدعوة، من أهل تلك البلاد، وهما يخطبان في أكبر مساجد المدينة ويعرفان هذا المسئول، وهو يعرفهما، فلما دخلنا عليه، وجلسنا...

بادرنا بالسؤال: لماذا أهل الدعوة لا يحسنون الخطابة، وتجويد القرآن، التجويد اللازم، من مدود متصلة ومنفصلة ولازمة وإخفاء وإدغام وغير ذلك من الأحكام ، أى إنهم يقرءون القرآن بدون الأحكام ومخارج الحروف، وهم يتحركون بالدعوة في المساجد ؟

ونظرت إلى الإمامين ليجيبا عليه ولكنه قال لي:

أنا أريد الجواب منك أنت لا منهما... ؟

فلما خصني بالسؤال قلت له: تريد مني أنا الإجابة؟

قال: نعم

قلت له: قبل أن يخرج هؤلاء في الدعوة، أين كان إيمانهم؟ وأين كان قرآنهم؟ وأين كانت صلاتهم ؟!..

قال :كانوا بعيدين عن الطاعة ولا يحضرون فى المساجد..

قلت : فالدعوة لها فضل كبير في تغيير هؤلاء، ونحن لم نر بدايتهم قبل الدعوة كيف كانت، كذلك نحن لا نستطيع أن نتخيل قبل الدعوة، ما مدى البعد والحيرة الذي كان في حياتهم، ولأننا لم نرصد حجم المشكلة الكبيرة التي كانوا فيها، قبل أن يتعرفوا على عمل الدعوة، حتى الآن نحن لم نتفطن إلى قدر التغيير العظيم الذي طرأ عليهم، فنحن ننظر إلى المساحة القليلة من الكوب الفارغة التي

تملأ، ولا يلفت نظرنا كون الكوب ممتلأ أو شارف على الإمتلاء..

نحن نريد ممن كانوا لوقت قريب، تائهون في الحانات أو الطرقات أو البارات أو مجالس الغفلة، أن يتحولوا في لحظة فيكونوا مع السفرة الكرام البررة، وهو وصف الماهرين بالقرآن، ونعيب عليهم أنهم ليسوا كذلك، وأن الدعوة لم تغيرهم، ونسينا قبل الخروج والدعوة كيف كانوا!..

فقبل الدعوة هم كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بالكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وصاروا الآن يتلفظون بها، ويعرفون معناها وحقيقتها ...

وقبل الدعوة ما كانوا يقرءون آية واحدة من الفاتحة، وهي ركن من أركان الصلاة، وقراءتها واجبة عند الجمهور « **ومن لم يقرأ بأم الكتاب فصلاته خداج خداج** »[1] أي ناقصة، وقال صلى الله عليه وسلم « **لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب** »[2] والآن مع حلقات التعليم في الدعوة، صاروا يحفظونها، وكذلك يحفظون معها العشر سور الأواخر من القرآن، بمعدل سورتين لكل صلاة...

كذلك التشهد اللازم لصحة الصلاة، لم يتعلموه ويحفظوه إلا بالتلقين، في حلقات التعليم ،أثناء الخروج، وهو ركن من أركان الصلاة ،لا تصح بدونه، فضلاً عن بقية أركانها وشروطها، وأنا أسألك سؤالاً....!

فقال لي: وما هو هذا السؤال ؟

---

(1) صحيح مسلم ح(٩٠٤) .

(2) صحيح مسلم ح(٩٠٢).

قلت له: تعلم الخطابة وتجويد القرآن، والمهارة في ذلك وعلم القراءات، هل هذا كله فرض عين أم فرض كفاية ؟

قال لي هذا المسئول: تعلم الخطابة وتجويد القرآن وعلم القرآت فرض كفاية

قلت له: وفرض الكفاية إذا قام به مجموعة سقط عن الباقين، وأمامك الآن إمامين اثنين ،من أكبر الأئمة في هذا البلد، فهل نستطيع أن نسمع منهما كيف إتقان القرآن والخطابة عندهما....

قال لي: لا حاجة لذلك، فهما من أجود الناس قراءة وتجويدا للقرآن والتكلم باللغة العربية الفصحى، والخطابة بها..!.

قلت له: وهما من أهل الدعوة ،وغيرهما ممن يحسن التجويد والخطابة من أهل الدعوة فى بلدكم هذا ليس بقليل!

قال لي: ولكن عموم أهل الدعوة ليسوا مثل هؤلاء!

قلت له: الحد في فرض الكفاية، أن فعل البعض كاف في الإتيان به، وأنت الآن تطلب في فرض الكفاية فعل الكل، وليس البعض، وهذا حد فرض العين، الذى لا تغنى عين عن عين في أدائه، وليس حد فرض الكفاية، فأنت تطلب من كل عموم أهل الدعوة، أن يكونوا علماء بعلم التجويد والقراءات والخطابة...!

مع أن الضابط في فرض الكفاية أن فعل بعضهم كاف، وإذا قامت به مجموعة منهم سقط عن الباقين، فسكت هذا المسئول و لم يجاوبني على الاعتراض السابق، فقلت له أنا أسألك سؤالاً آخر؟!

قال: وما هو ؟

قلت: أيهما يجب أن يُقدم عند المسلم ،فرض الكفاية أم فرض العين ؟

قال: فرض العين مقدم على فرض الكفاية ،وأولى لأي مسلم!

قلت: فالقائمون بفرض العين أرجح أم القائمون بفرض الكفاية...؟

قال: القائمون بفرض العين.

قلت: فأهل الدعوة الآن قائمون بفرض العين في عموم الأمة، وأنت تطالبهم بفرض الكفاية!

قال: وكيف ذلك؟

قلت: يأتون بالناس من خارج المسجد ،لا يعرفون وضوءا ولا طهارة، فيعلمونهم ذلك عمليا، حتى يتطهروا، ويحسنوا الطهارة.

فتعلم الطهارة للصلاة والوضوء، فرض عين أم فرض كفاية ؟

قال: بل فرض عين على المسلم البالغ العاقل...

قلت له: بعد ذلك يجلسون معهم ، وهم عجم لا يحسنون قراءة الفاتحة أو التسبيح في الركوع أو السجود، ولا يحفظون التشهد، فيلقنونهم كل ذلك، حتى يعرفوه، وقد يستغرق تعلم الفاتحة أو التشهد معهم أيامًا، فيتحصلون على كل ذلك أثناء خروجهم مع أهل الدعوة، أو بمثابرتهم معهم الأيام الطوال ، والساعات العديدة، ترديدا وتلقينا، فهل تعلم الفاتحة فرض عين أم فرض كفاية ؟

قال: بل فرض عين.

قلت: والتشهد ما حكم تعلمه ؟

قال: فرض عين.

قلت له: والأن أغلب البسطاء من المسلمين انتشر فيهم سؤال غير الله تعالى، وتوجه الناس لغير الله عزوجل استعانة واستغاثة وتوكلا، ظنا منهم حصول المقصود بذلك...!

فجاء أهل الدعوة ليصححوا مع عوام وبسطاء الأمة ،التوجه الىالله تعالى وحده، والتوكل عليه وحده،والأعتماد عليه لاسواه،ولهم فىذلك عبارة مشهورة وهى قولهم عند أى حادثة"نتوجه الى الله تعالى وندعو" فهل احياء حقائق التوحيد وفطرة العبودية، واخلاصها لله عز وجل وحده..،

فرض عين أم فرض كفاية..؟

قال: بل فرض عين.

قلت: فهل تعرف أحدًا يقوم في عموم الأمة الآن بإحياء فرائض العين الضائعة والعكوف على ذلك تعليما وتلقينا ،آناء الليل وآناء النهار الساعات والليالي الطوال،لكل من لا يعرف ذلك من المسلمين ، غير الخارجين في سبيل الله، أثناء خروجهم ودعوتم في عموم الناس، وخروج الناس معهم....

قال: بل هم الذين وفقهم الله للقيام بذلك.

قلت: فالآن أهل الدعوة فرائض الكفاية بعضهم قائم بها ، وفرائض العين عامتهم قائمون بها ، وينشرونها في عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم فهل يحسن بعد ذلك أن نلومهم ؟

قال: بل الواجب شكرهم.

قلت له: أحسن الله إليك من أجل إنصافك ...

وأزيدك فأقول: كثيرًا ممن نقابلهم في غير بلاد العرب لا يستطيعون التلفظ بالشهادة، وعندما يأتون إلى المسجد مع أهل الدعوة لا يتركونهم حتى يحسنون ذلك، فهل التلفظ بالكلمة مطلوب أم غير مطلوب.

قال: بل هو أول المهمات والواجبات.

قلت: فالعاكفون على نشر الكلمة والتلفظ بها في عموم الأمة، والنطق بالشهادة على وجهها الصحيح هم هؤلاء البسطاء من أهل الدعوة...

ثم أنهينا زيارتنا مع هذا المسئول شاكرين له إنصافه، مع شكره لنا على توضيح ما كان غائبًا عنه من حقيقة عمل أهل الدعوة، وقيمة ما يبذلون من جهد وتضحية، وأهمية أن يتعرف العاملون في الحقل الإسلامي على حجم التغيير الإيجابي الذي يقوم به هؤلاء البسطاء ...

وأقول: لمن له نية صادقة في هذا الأمر، الإنصاف يقتضي إذا أردنا المقارنة، بين بسطاء أهل الدعوة، وغيرهم من سائر المنتسبين إلى العمل الإسلامي، أن نقارن النظير بنظيره..

فإذا أردنا المقارنة، نحن لا نقارن بين مزارع يخرج في سبيل الله، وبين عالم حديث من المنتسبين إلى العمل الإسلامي، أو عالم فقه، أو تفسير، أو أحد طلبة العلـــم المتخصصين، ويقوم أحدهم بتسجيل شريط، مع أحد البسطاء من أهل الدعوة، ليظهر به حجم الفارق في الخلفية العلمية والاستدلال...!

بل الإنصاف يقتضي، أن نقارن الوصف بالوصف، والنظير بنظيره...

أنت تريد أن تقارن، بين عموم أهل الدعوة وغيرهم، نقول لـــك مرحبًـــا، أجعل المقارنة بين هذا المزارع الذي تستشهد به، من أهل التبليغ أو من البسطاء، وأي مزارع مسلم آخر مثله، منتسب لأي عمل أو منهج إسلامي، وفي أي بلد إسلامي، ولا يخرج في سبيل الله...

وانظر إلى صفات كل منهما، في محافظته على الصلوات في الجماعة، وامتثاله للسنة ظاهرًا وباطنًا، وفي معاملاته، ونصحه وأخلاقه ومعاشراته ،وفي التزام أهل بيته وأسرته بآداب الإسلام، ثم بعد ذلك أذكاره، وقراءته للقرآن، وعموم عبادته لله تعالى، ونصحه ومحبته وشفقته على عموم المسلمين...

وإذا أردت أن تقارن بين عامل من البسطاء، من أهل الدعوة ،فقارنه بعامل آخر مسلم في أي بلد إسلامي، وهكذا في سائر الحرف والتخصصات والصناعات.

عند ذلك سوف نجد الحكم في غالبه، في صالح أهل الدعوة ومعهم...

حين نتعرف على القيمة الحقيقية، التي يمثلونها في عموم الأمة، وبين البسطاء فيها، أو حجم الثغرة التي يحفظونها على أمة الإسلام، في ربوع المعمورة..

فالأصل أن الضرر لا يزال بالضرر، قال ابن السبكي وهو كعائد يعود على قولهم { الضرر يزال ، ولكن لا بضرر} فشأنهما شأن الأخص مع الأعم. بل هما سواء لأنه لو أزيل بالضرر {لما صدق الضرر يزال}...

ومن هذا فعل بعض المعترضين على عمل أهل الدعوة، بصَّرنا الله تعالى وإياهم بعيوبنا، وألهمنا وإياهم رشدنا ،حيث يقومون بالصد عن سبيل الدعاة، بدعوى عدم العلم ، أو أن بعضهم ليس له الأهلية اللازمة، ليقوم بدعوة الناس، فهو يخلط في الآية والحديث، و يخطئ في قراءة كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك له نسبة من ضرر، حيث أن غير المجيد لتلاوة كتاب الله تعالى وحفظه، إذا تكلم به فأخطأ هذا ضرر، كذلك غير المتقن لحفظ أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الأولى له عدم التعرض لها فى كلامه ...

بل الثابت والمتيقن عن جميع مشايخ وعلماء الدعوة، هو منع غير المجيد لتلاوة القرآن وقراءة الحديث، من التعرض لهما أثناء كلامه، بل إن هذا الأمر من الأصول الثابتة، في التوجيهات والإرشادات، التي تُعطى وتلقن للدعاة أثناء استعدادهم للخروج والمشاركه فى الدعوة..

فهذا الضرر إن وقع مع ذلك من البعض ،بنسبته كيف كانت، لا يزال بضرر أعظم منه، وهو إيقاف الدعوة ومعاداة أهلها، والصد عن سبيلها، ومنع أصحابها من أداء أمانة النبوة، بالحرص على الناس، وأن يعبد الله تعالى ويعظم في أرضه، وأن يجلب النفع كل النفع لكل الناس، بإيمانهم ودخولهم الجنة، وأن يدفع الضرر ، كل الضرر عن كل الناس ،بتبصرتهم والخوف عليهم، وإبعادهم عن النار..

إذ الضرر يزال، ولكن لا بضرر، والضرر يزال، ولكن لا يزال بالضرر، خاصة إذا كان الأمر يتعلق ببعض المنتسبين إلى الدعوة ،لا إلى كل أهلها، وأن هذا الأمـــر يتعلق بمراحل تعليم الدعوة ،لبعض المبتدئين، لفترة من الوقت، وهذه الفترة مـــن التلعثم والخطأ ونسيان الآيات والأحاديث، عند مواجهة الناس، مرحلة قد مر بها أكثر العاملين في مجال الدعوة، من سائر المنتسبين إلى العمل الإسلامي في بدايـــة طريق دعوتهم، فلا مجال للعيب على مبتدئين يتلمسون أول طريقهم، في الـــبلاغ والدعوة، وما هى إلا مدة يسيرة ، وإذا بهؤلاء يصيرون من أفضل المتحدثين إلى الناس، وقد رأينا ذلك ولمسناه في الكثيرين، بل صار أمرًا يقينًا مستفيضا، لا يحتاج إلى إثبات وبرهان...

فبقي من هذا الاعتراض أنها مرحلة زمنية، لازمة للتمرين والتدريب والتعليم لأمر الدعوة، وبعدها لن يوجد الاعتراض لزوال سببه...

ونحن مع ذلك نقول: لا شك والله أعلم، أن المصلحة المترتبة على خـــروج هؤلاء العوام، مع أهل الدعوة أعظم بكثير جدًا، من المفسدة التي تقع بسبب جهل بعضهم، ضف إلى ذلك أن هؤلاء العوام، الذين يقعون في الخطأ، هم بأنفســـهم محتاجون إلى الفهم والعلم والعمل ، فلو أننا منعناهم من الخروج مع أهل الدعوة لترتب على ذلك مفسدة ،بالنسبة لهم، كتقصير بعضهم في أوامر الله ، وضـــعف بعضهم عن محاربة الهوى، والنفس والشيطان، الي غير ذلك من المفاسد...

فنحن ننظر إلىالنتائج والثمرات التى نستخلص منها فقه المآلات، الذى يترجم لنا إستناد الفقه إلى المستقبلات،ففقه المآلات موازنة بـــين مصـــلحتين أحـــدهما

مستقبلية والأخرى حاضرة، وموازنة بين مفسدتين،أحدهما مستقبلية وأخرى حاضرة..

ومن هنا ظهر أن العوام الذين يقعون في الخطأ عند خروجهم، لا يتم علاجهم بمنعهم، وإنما يتم الشفاء بتعليمهم وإرشادهم في داخل عمل الدعوة، وهذه مهمة كل طالب علم يخرج مع الجماعة، من المنتسبين إليها أو من غيرها...

فالنفرة من المعاصي والتوحش من المخالفات، والأنس بالطاعات، هذه الصفات تأتي فينا بالبيئة الصالحة من الدعوة إلى الله تعالى والتعليم والتعلم والعبادات والذكر، والتوحش من الطاعات والأنس بالمعاصي، والحقد والحسد والجدال والخصام وترك الصلاة، وعقوق الوالدين هو تأثير صحبة الشيطان ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ فهو يتبرأ منهم ومن اتباعهم إياه، فالذي يتبع هواه ويطيع الشيطان، يزداد يقينه على المادة والأسباب والشهوات والغرائز، ولكن بعد الموت تظهر له الحقيقة ﴿ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ أي بموعوداتك الغيبية التي كنا نردها بالعقل والفهم، وقد رأيناها الآن رأي العين ولكن بعد فوات الفرصة ﴿ **أَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾

فعندما ينتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة يستطيع أن يرى الأشياء على حقيقتها ﴿ **فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾

وإذا استقام العقل يفهم عن الله تعالى ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾.

إنا إذا وجدنا في أنفسنا الضعف، وعدم القوة على امتثال أوامر الله تعالى وتعظيم السنة المشرفة نحن لا نيأس، بل نخرج من البيئة الفاسدة إلى البيئة الصالحة، نخرج من المكان الذي يصيبنا فيه الغفلة والمخالفة ويتسلط علينا فيه الشيطان، إلى بيئة الطاعة والإيمان، وصحبة الطاعة والإيمان، ونتوجه إلى استماع كلام الإيمان، حتى تتقوى أرواحنا على طاعة الله تعالى، ونُصبِّر أنفسنا في مجالس الإيمان وحلقات التعليم، ليحفظنا الله تعالى بنزول السكينة وغشيان الرحمة ومصاحبة الملائكة "تحفهم الملائكة"، ونكتسب بهذه المصاحبة صفات الملائكة وهم ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾.

وإذا ابتعدنا عن بيئة الدعوة ومجالس الإيمان نقع في حبائل الشيطان، ويصبح قريننا ﴿ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ وتظهر فينا صفات شيطانية من الحقد والغل والحسد والكبر... إلخ..

لذلك نجتهد على أن نُصبِّر أنفسنا على دعوة الإيمان وتجديده، ومعرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾ هؤلاء وصية الله عز وجل لرسوله ﷺ بالإقبال عليهم وأن يلحظهم بنظره الشريف، من غير التفات إلى غيرهم أو النظر إلى سواهم....

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع، وأن يهدينا بنور العلم، فلا يلتبس علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.. آمين.

# زعمهُم أَنَّ أَهْلَ الدَّعْوَة لا يَعْرِفُونَ تَوْحِيدَ العِبَادَةِ أَو الأُلُوهِيَّةِ

الداعي إلى الله تعالى هين لين سهل، يستحضر خلال دعوته قيمة عمل الدعوة إلى الله عز وجل والدلالة عليه، المتمثل في خدمة هذه الأمة المحبوبة المجتباه عند الله عز وجل، ويستحضر أن الله تعالى بفضله وعونه وتوفيقه منَّ عليه بأن يخدم هذه الأمة، التي جعل فيها خاصية المقصود له سبحانه، وهو غلبة الحق وزهق الباطل، والتي بها عصم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة في اجتماعها من الخطأ والزلل بقوله "**لا تجتمع أمتي على ضلالة**" وإذا تحقق الجهد من هذه الأمة على الحق بحقيقته، فالله عز وجل يزهق بها الباطل ، فوعد الفلاح والنجاح مع هذه الامة ليس على قول الإيمان، ولكن على حقيقة الإيمان ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ...** ﴾ كذلك وعد العلو والرفعة ﴿ **وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ أي الإيمان الحقيقي التام المطلوب من الله عز وجل..

كذلك وعد العزة ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾

ووعد النصرة ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾

ووعد المعية ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي الإيمان الكامل الحقيقي.

فعمل الدعوة إلى الله تعالى هو وظيفة الأنبياء ، والله سبحانه وتعالى تكفَّل بحفظ دينه، ومن حفاظة الدين حفظ من يدعو إلى هذا الدين ، وهذا السبيل الله سبحانه وتعالى أكرم به أمة النبي صلى الله عليه وسلم بأن أقامه في العلماء ،وبدأ به العلماء ،فخرج حلوا صافيا ، مصلحة ومنفعة لأمة النبي صلى الله عليه وسلم لا مفسدة فيها...

وهذا السبيل ...سبيل الدعوة والتبليغ ،الله تبارك وتعالى جعله على أوثـق قواعد الإسلام ، ولكن كثيرًا من الناس نظروا إلى بعض من يتحـرك في هـذا السبيل، وفهموا حركتهم على غير مرادها ، والبعض تكلم على هذا السبيل بما لا يليق، والله تبارك وتعالى حسيب كل أحد ورقيبه...

والله عز وجل نسأل أن يُفهمنا وأن يفهم عنا ، ونسأله أن يطيب قلوبنـا وصدورنا، وأن يؤلف بين أمة النبي صلى الله عليه وسـلم في مشـارق الأرض ومغاربها، فتتوحد النيات والمقاصد ،على خدمة هذا الدين كلٌ بحسبه.

وقد بالغ البعض في الحط على أهل الدعوة، وزعم أن عملهم فاقد للـركن الأصيل فيها، والأساس الأول لها، وهو الدعوة لنشر توحيد العبادة أو الألوهية، الذي هو زبدة الرسالة ،وأساس عمل الأنبياء، وبه نزلت الكتب وبُعثت الرسل، وإن عملهم قائم فقط على معرفة توحيد الربوبية ،لا يتجاوزونـه ولا يعرفـون سواه..

وللجواب على ذلك نقول: أهل الدعوة هم القائمون بالدعوة إلى العمل بتوحيد الألوهية والعبادة، في أنفسهم أولا ، ثم في عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نقول هذا القول لشيء مزعوم ، أو لأمر غير معلوم ،بـل نقولـه بـيقين، مشاهدين له ومستدلين عليه ، ونحن نقدم بين يديه لواقعة حدثت ،نستخلص منها ما أردنا من برهان، ونذلل بها على ما أسلفنا من أحكام ...

فنقول مستعينين بالله تعالى: « في أحد المساجد المشهورة كان أحد المشايخ يعطي درسا في شرح العقيدة الطحاوية ، وكان يتكلم في موضوع توحيد الألوهية والربوبية واسترسل في الشرح ثم قال هذا الشيخ ما نصه: « والله وأنا صادق في هذا القسم ألتقيت برجل لحيته تسبق لحيتي وتحدثت معه هذا اليوم فصار يدعوني إلى الخروج في سبيل الله فقلت له أي شيء نُعلم الناس إذا خرجنا ؟

قال: نعلمهم اليقين على لا إله إلا الله.

قلت له: ما معنى اليقين على لا إله إلا الله .

قال: يعني نعرف أنه لا رب إلا الله.

قلت له: يعني إيه لا رب إلا الله ؟

قال: يعني ليس هناك خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا الله .

قلت له: هذه عقيدة المشركين، فتغير لونه ،وقال :سبحان الله عقيدة المشركين كيف يا أخي ؟!

قلت له:والله هذه عقيدة المشركين.. قال: هل عندك دليل؟

قلت له:إن الله يقول: « **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله**»[الزمر: ٣٨] « **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** »[الزخرف: ٨٧] « **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله**»[العنكبوت: ٦٣] من الذي قال ذلك ؟ » انتهى كلام هذا الشيخ وكل النص السابق نقلا عنه من شريطه بلفظه.

بجواب سؤاله: أن المشركين هم الذين قالوا ذلك، وكان في هذا الدرس، الذي يشرح فيه هذا الشيخ العقيدة الطحاوية، أحد الإخوة من أهل الدعوة، وكان يلبس العمامة المعروفة، فلما وصل الشيخ في كلامه إلى هذا الموضع، ورآه يقول « وهذه هذه عقيدة المشركين » قام من المجلس، ليأخذ حذاءه ويخرج ، فرآه هذا الشيخ فقال: ( قد يغضب من كلامي رجل ويخرج ، أقول له: هداك الله لأن المسلم إذا سمع النصيحة يجب ألا يضيق صدره وألا يتبرم بها ) انتهى كلامه .

ولكن هذا الأخ من أهل الدعوة لم يتأثر بكلامه وواصل السير ، حتى أخذ حذاءه وخرج من المسجد، ثم أتى إليَّ في بيتي فقال: لقد كنت في المسجد وكان الشيخ فلان يعطي درسا فيه ، وكان يعطي درسا في التوحيد، وزعم إن العقيدة التي يتعلمها أهل الدعوة في خروجهم هي عقيدة المشركين ...

وحكي القصة وعندما انتهى من كلامه لم أصدق ما قاله ، وهالني ما سمعته فقلت له: هل قال إن من يتعلم، أو يدعو الناس إلى أن يعلموا أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، أن هذه هي عقيدة المشركين ،ويقسم على ذلك!

فقال: نعم

قلت: بهذه البساطة؟

قال: نعم

قلت له: هذا يكفر بلازم كلامه أمة الإسلام قاطبة، وليس الأمر خاصًّا بأهل الدعوة فقط فهل تستطيع أن تأتيني بالشريط الذى قال فيه ذلك؟؟

قال: نعم،ثم جاءني بالشريط فى اليوم الثانى بعد صلاة العصر، فلما استمعنا إليه، إذا هو نفس الكلام السابق الذي ذكره بنصه...

قال هذا الأخ الذي جاء بالشريط، وكان حاضرا في هذا الدرس: إن هذا الشيخ عندما يأتي إلى المسجد ويعطي الدروس فيه، يتكلم بهذا الكلام كثيرًا..

قلت له: عفا الله عنه وسامحه الله ،وأنت جزاك الله خيرًا أنك انصرفت ولم تتحدث ، ولكن نسأل المولى تبارك وتعالى أن يغير طريقة هؤلاء الناس، وأن يقذف في قلوبهم حقوق الإسلام وحقوق المسلمين وحقوق الإخوة في الله ..

لأن النبي صلى الله عليه وسلم عصم كل مسلم، بالتلفظ بالشهادتين، قال «**فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله تعالى** »[1] فثبت إسلام المسلمين بالأمر الثابت القطعي اليقيني، بالتلفظ بالشهادة، فهذا اليقين لا يزول إلا بيقين مثله ، لا يزول بالشكوك، ولا بالظنون، ولا بالترهات، ولا بهذه الكلمات التي تقال من هنا وهناك.

وهؤلاء قرأوا بعض الكتيبات، ثم أصبحوا يتكلمون بهذه الكلمات ،ثم يُخرجون من شاءوا من الإسلام ،ويدخلون من شاءوا، بعمومات الأدلة وبتلفيق النصوص ،وهذا يذهب إلى النار، وهذا يذهب إلى الجنة..!

وأصبح الواحد منهم قسيم الجنة والنار ، من وافقه في الجنة وهو موحد ، ومن خالفه في النار وهو مشرك ، فغالوا في حشد الآيات التي تؤدي إلى بغض

(1) سبق تخريجه .

المسلمين وهجرهم وتكفيرهم، والتي نزل غالبها في الكفار وغير المسلمين وأجروها على المسلمين، مع تحريم الشارع لكل ذلك، وأهملوا وأسقطوا المئات من النصوص التي تحض على إكرام المسلم ، وحفظ حقوقه ومحبته ، وحرمة ماله وعرضه ودمه مع أمر الله تعالى بها ، ووصية رسوله الكريم بذلك في غير ما موضع « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في عامكم هذا** »[1].

ومن مثل قوله ﷺ: « **لا تظالموا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا** »[2].

وإذا كان الجهل بوجود الصانع الخالق، أو صفاته العلى من الرازقية والإحياء والإماتة هو أصل الكفر، لأنه انتهاك لحرمة الربوبية، فإن إثبات ذلك لله عز وجل وتعليمه من أهل الدعوة هو أصل التوحيد ، بخلاف من زعم أنه عقيدة المشركين ، ووصفه بذلك مثل هذا الشيخ ومن هو على طريقته ، ممن دأب على التشغيب على المؤمنين وإثارة الشقاق والخلاف بين المسلمين...

---

(1) صحيح البخاري ح(٤١٤١) بلفظ في شهركم بدل في عامكم، صحيح مسلم ح(٣٠٠٩)، (٤٤٧٧).

(2) صحيح البخاري ح(٥٧١٨)، صحيح مسلم ح(٦٦٩٠) بلفظ لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا.

قال الإمام القرافي رحمه الله تعالى وهو يبين خطأ هؤلاء ، في أنوار البروق فى أنواع الفروق: {(الفرق الحادي والأربعون والمائتان بين قاعدة المعصية التي هي كفر وقاعدة ما ليس كفر).

:وأصل الكفر إنما هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية، إما بالجهل بوجود الصانع، أو صفاته العلى ويكون الكفر بفعل كرمي المصحف في القاذورات أو السجود للصنم، أو التردد للكنائس في أعيادهم بزي النصارى. ومباشرة أحوالهم أو جحد ما علم من الدين بالضرورة }انتهى كلام الإمام القرافي.

وكان الأولى بالعلماء والمشايخ وطلبة العلم ، أن يكونوا أرعى الناس بحفظ وصية النبي صلى الله عليه وسلم في العناية والرعاية بأمته ، وتعظيم أمر الله تعالى في حفظ حقوق المسلمين ، ومحبتهم والإخوة معهم ...

ونحن في هذا الزمان ، لا يوجد عندنا العلم بطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والتزكية ، وغاب عنا هدي القرآن في ذلك مثل قوله تعالى﴿ **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا** ﴾ [الإسراء: ٥٣]

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

فشرط الله تعالى لصلاح الأعمال، وغفران الذنوب ، الالتزام بالتقوى والقول السديد لا القول الفاسد..

وقول الله عز وجل ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]

فعندما كنا بخلاف ذلك جعل بيننا الجدال والخلاف والعداوة ، اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا ،ووحد كلمتنا، وفكرنا، ونياتنا ومقاصدنا...

ثم قلت لهذا الأخ من أهل الدعوة، الذي كان حاضرًا في هذا الدرس، ولكن كان هناك حل آخر، فيما سمعت من هذا الشيخ ...

قال: وما هو ؟

قلت: عندما تكلم بهذا الكلام ، ودمغ فيه الموحدين من أهل الدعوة بأن ما يعلمونه هو عقيدة المشركين، كان عليك أن تجلس معه على انفراد أنت وهو ، ولا تكلمه أمام الناس ...

ثم تقول له: فضيلة الشيخ.. جزاك الله خيرًا ، نحن نتعلم منك التوحيد ونتعلم منك العقيدة ، ولكن بربك أسألك سؤالين فأجبني عنهما...

**السؤال الأول:** من الخالق ؟ من الرازق ؟ من المحيي ؟ من المميت ؟

إن أجاب فقال: هو الله تعالى ، فهذا القول عقيدة مشركين على أصله ، أي على أصله هو المتعدي فيه على أحكام الإسلام ، والذي يتهم به من يقول بذلك من المسلمين ،ومنهم أهل الدعوة أو من يتعلم ذلك..

ولكنه عندنا نحن هو موحد لله تعالى بهذا القول، ونعترف لـــه بالتوحيـــد. وأخوة وحقوق الإسلام والمسلمين..

**السؤال الثاني:** تقول لهذا الشيخ: من الخالق؟ من الرازق ؟من المحيي؟ مـــن المميت ؟ فإن أجاب على خلاف الإجابة الأولى فقال: غير الله ، أي أن غير الله هو الخالق وغير الله هو الرازق وغير الله هو المحيي والمميت ...

فهذا القول قول كفر وقول شرك بالإجماع عنده ، وعند أي مســـلم وأي موحد ، وكل من يقول أن الله ليس بخالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ، فهذا القول منه قول كفر ، لا شك فيه بالاتفاق والإجماع ، ولكن صاحبه لا يكفر إلا بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع ...

ونحن نقول له محذرين ، إذا كنت قد وصفت من يتعلم أن الله هو الخـــالق الرازق المحيي المميت ، بأن هذه عقيدة المشـــركين وأقســـمت علـــى ذلـــك ، واستدللت خطأ بآيات من القرآن العظيم ، وحملتها على غير محملها وقد نزلت في عبدة الأصنام ، وأنت أجريتها في أهل الإسلام ..!

فما زعمت أنت أنه عقيدة المشركين نحن نرد ادعاءك فيه ، ونهديك عليـــه كلام أئمة الدين ، أنه التوحيد الواجب بالإجماع ، على عموم المسلمين لتعظيم رب العالمين ، حيث يجب على كل مسلم بالإجماع ، أن يعتقد توحيد الله تعالى وتوحده بالخلق والرزق والإماتة والاحياء على سبيل الحقيقة ...

وهو ما قررة الإمام القرافي في أنوار البروق في أنواع الفروق ج٤ صفحة ٤٣٩، ٤٤٠ [الفرق الرابع والعشرون والمائة بين قاعدة ما يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم وبين قاعدة ما لا يجب توحيده به].

حيث قال رحمه الله: « القسم الأول الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالإجماع فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها والصوم على اختلاف رُتبه في الفرض والنفل والنذر فلا يجوز أن يُفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى وكذلك الحج ونحو ذلك.

وكذلك الخلق والرزق والأماتة والإحياء والبعث والنشور والسعادة والشقاء والهداية والإضلال والطاعة والمعصية والقبض والبسط فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى وتوحده بهذه الأمور على سبيل الحقيقة وإن أضيف شيء منها لغيره تعالى فإنما ذلك على سبيل الربط العادي ، لا أن ذلك المشار إليه فعل شيئا حقيقة ، كقولنا قتله السم وأحرقته النار ورواه الماء ، فليس شيء من ذلك يفعل شيئًا مما ذكر حقيقة ، بل الله تعالى ربط هذه المُسَبَّبات بهذه الأسباب ، كما شاء وأراد، ولو شاء لم يربطها وهو الخالق لمسبِّباتها عند وجودها ، لا أن تلك الأسباب هي المُوجدَة.

وكذلك إخبار الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه كان يحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص معناه أن الله تعالى كان يحي الموتى ويبرىء عند إرادة عيسى عليه السلام لذلك لا أن عيسى عليه السلام هو الفاعل لذلك حقيقة بل الله تعالى هو الخالق لذلك، ومعجزة عيسى عليه السلام في ذلك ربط وقوع ذلك الإحياء

وذلك الإبراء بإرادته فإن غيره يريد ذلك ولا يلزم إرادته ذلك فاللزوم بإرادته هو معجزته عليه السلام وكذلك جميع ما يظهر على أيدي الأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات الله تعالى هو خالقها، وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والإلهية وعموم تعلق صفاته تعالى فيتعلق علمه بجميع المعلومات وإرادته بجميع الكائنات وبصره بجميع الموجودات الباقيات والفانيات وسمعه بجميع الأصوات وخبره بجميع المخبرات فهذا ونحوه توحيد واجب بالإجماع من أهل الحق لا مشاركة لأحد فيه ) انتهى كلام الإمام القرافي.

**أقول:** فهل رأيت التوحيد الواجب من أهل الحق بالإجماع ، كيف انقلب عند البعض فصار عقيدة المشركين!!

وهل معنى أن يُقر مسلم بتوحيد الربوبية أنه أنكر توحيد الإلوهية ؟ كما يقول هذا الشيخ ، هذا من باب تلفيق الأدلة والرجم بالغيب ، ومن يجازف على أمة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يركلها بقدمه إلى النار ، إذا ما تكلمت في توحيد الربوبية، وأضافت صفات الباري إليه ، ووحدت الله تعالى بأفعاله بإثبات الخالقية أو الرازقية أو الإحياء أو الإماتة له وحده لا سواه ، فيزعم أنها أنكرت توحيد الإلوهية ، وأصلا( لا ينسب إلى ساكت قول) كما تقرر في علم الأصول..

وإذا كان المتكلم بتوحيد الربوبية لم يتلفظ بإنكار توحيد الإلوهية، كيف نفتري عليه ونزعم أن عقيدته هي عقيدة المشركين ، ونقسم على ذلك ! وهل للمشركين عقيدة وهم يعبدون الأصنام ؟!

هل عبادة الأصنام عقيدة ؟ وهل عند المشركين توحيد ؟

وهل الكفر يصلح أن يكون معتقدا وأن يعبر عنه أنه عقيدة!

لأن من معاني العقيدة أنها شيء معقود، لأنها مشتقة من المصدر عقد، الذي يعني الإحكام والشد والربط، فهي ثابتة لا تحل ، لازمة لا تُفك ،حتى لا تكون محلا للتفتيش والفحص المرة وراء المرة ، على سبيل الشك والريبة ، وذلك لاستقرارها في القلب لمنهج حياة، فهي تدخل القلب عن اعتقاد لا يحل أبدًا ولا يتغير سرمدًا...

نحن الآن نسمع اصطلاحات غريبة!! ونسمع ألفاظًا غريبة! ونسمع دينًا غريبًا!! الكفر هل يصلح أن يعبر عنه بأنه معتقد ، والذي يُعبر عن الكفر بأنه معتقد يدرس التوحيد ؟..

وهل للمشركين توحيد ؟ كيف كفر وتوحيد ؟كيف للكفر على إطلاقه أن يتجانس مع التوحيد ؟..

والمشرك عندما تكلم بهذا القول وأجاب لما سئل كما في الآية ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ على أي وجه كانت إجابته؟ وكيف قالها ؟

هل قالها تصديقًا وإيمانا أم قالها إفحامًا وانقطاعًا بعد أن بُهت بالسؤال ؟..

نقول: هو قالها إفحامًا وانقطاعًا وما قالها توحيدًا وما يعرف هؤلاء التوحيد ، والذي يدعي توحيد الربوبية لهؤلاء، قد أهمل الآيات الأخرى كما جاء في القرآن العظيم ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ فهؤلاء دهريون لا يعترفون بالصانع ولا بالخالق ولا بالبعث ولا بالإحياء ولا بالإماتة.

وليس كل العرب كانوا يجيبون إذا ما سئلوا بالإجابة الأولى ، فيقولون ﴿**الله**﴾ ولكن كانوا على أقسام ، فمنهم من يقر بالصانع ومنهم من لا يقر ، فهذه آية من القرآن ، فهل لهؤلاء الموصوفين فيها عقيدة ؟..

فلماذا أخذ هذا الشيخ بالآية الأولى ، التي بُهتوا وأجابوا فيها انقطاعًا بقولهم « الله » وأهمل منطوق هذه الآية ، والتي ينكرون فيها أن الله هو الخالق المحيي المميت ، ويرفعون بذلك عقيرتهم ﴿ **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ الآية..

والأصل أن الحكم يؤخذ من مجموع الأدلة لا من دليل واحد، فالاعتماد لا يكون على آية واحدة مع الترك والإهمال لما سواها ، ولو كان المشركون صادقين في قولهم «الله » لنطقوا بالشهادتين وامتثلوا أحكام الإسلام ، وانقادوا لشريعته ، وواقعهم وأفعالهم تخالف كل ذلك فثبت أنهم ما تلفظوا بذلك إيمانًا وتصديقًا..

بل إفحامًا وانقطاعًا ، مع ثباتهم على شركهم وكفرهم...

فعلى هذا نحن نسأل من يدعي لهم عقيدة ، من أين أتيت بالتوحيد والعقيدة للمشركين ؟ وإذا ما بُهت المشرك بالسؤال ، فانقطع وعجز أمامه أو تلفظ قائلا « الله » بدون نية الدخول في الإسلام والتصديق والامتثال لأحكامه ، والخروج من ملة الكفر، هل تضيف هذه اللفظة إليه الإيمان، كما تضيفه للمسلمين وأهل التوحيد الذين يقولونها ممتثلين مُزعنين، ومنهم أهل الدعوة...

كما أنَّ المذكورين في هذه الآية عندما قالوا « الله » قالوها لأنه ليس هنالك غير الله تعالى يدعي أنه خلقهم ، ولو وجدوه لهتفوا باسمه فلا دعوى لأحد بالخالقية والرازقية والإحياء والإماتة إلا من رب السماوات والأرض ، فلما سُئلوا انقطعوا وأفحموا وقالوا « الله »، فهل يثبت لهم ذلك توحيدًا وعقيدة كالمسلم الذي قالها تصديقًا وإيمانًا..

قال الإمام السبكي في الطبقات ج١ ص ٤٢.

« واجمع أهل الحل والعقد أن اللسان لا يكفي ما لم يكن معه الاعتقاد وقد كانت المنافقون تلفظ ولا تعتقد وهم في الدرك الأسفل من النار »انتهى.

**أقول:** فانظر إلى إجماع أهل الحل والعقد أن اللسان وحده لا يكفي ما لم يكن معه الاعتقاد والتصديق، ومن أين الزعم أن كل المشركين عندما قالوا ﴿الله﴾ كانوا معتقدين تفرده وحده سبحانه بالخلق والإحياء والبعث والنشور....

على أن النبي ﷺ قد حذر أمته من السير وراء الهوى وطاعة الشيطان، في الصولة والتعظم على عموم أمته، وهدر حقوقها، وإسقاط عصمتها وذلك بقوله ﷺ "**من قال لمسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما**".

قال الإمام ابن فرحون اليعمري في تبصرة الحكام ج٥ ص٣١١ في بيان أحكام هذا الحديث: (وفي رواية "**إذ قال لأخيه يا كافر فقد وجب الكفر**"[1] قيل معناه فقد رجع عليه تكفيره ، فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير لكونه جعل أخاه المؤمن كافرًا فكأنه كفر نفسه إما لأنه كفّر من هو مثله أو لأنه كفّر من لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان الإسلام قاله النووي في شرح صحيح مسلم. وقال المازري قوله: وإلا رجعت عليه يحتمل أن يكون إذا قالها مستحلا فيكفر باستحلاله. قال النووي: وقيل معناه أن ذلك يئول به إلى الكفر ، يعني أنه يخاف على المكثر من ذلك أن يكون عاقبة شؤمها الكفر والمصير إليه قال ابن عبد البر: والمعنى فيه عند أهل الفقه والأثر والجماعة النهي عن تكفير المسلم في هذا الحديث) انتهى كلام الإمام ابن فرحون.

وقال الإمام ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ج١ ص٤٢٠ « في شرحه لحديث « **من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله ، وليس كذلك إلا حار عليه** »[2]: (وأما من وصف غيره بالكفر فقد رتب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: « حار عليه » بالحاء المهملة: أي رجع قال الله - تعالى-: ﴿ **إنه ظن أن لن يحور** ﴾ [الانشقاق: ١٤] أى يرجع حيًا، وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحدًا من المسلمين، وليس كذلك وهي ورطة عظيمة وقع فيها

(1) المعجم الأوسط للطبراني ح(١١١)، مشكل الآثار ح(٧٢٠) .

(2) صحيح مسلم ح(٢٢٦)، مسند أحمد (٢١٥٠٣)، سنن البيهقي ح(١٥١١٢) .

خلق كثير من المتكلمين ، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث لما اختلفوا في العقائد فغلظوا على مخالفيهم ، وحكموا بكفرهم وخرق حجاب الهيبة في ذلك جماعة من الحشوية ، وهذا الوعيد لاحق بهم إذا لم يكن خصومهم كذلك »
انتهى كلام الإمام ابن دقيق العيد.

وإذا عدنا إلى كلام هذا الشيخ ، وتفكرنا فيما يقوله....

ودعواه أن إثبات صفات الباري -سبحانه إليه- ، بالخالقية والرازقية هو عقيدة مشركين ، وفصَّلنا قوله على النحو التالي إذا قال مسلم أو مؤمن الله هو الخالق ، والله هو الرازق ، والله هو المحيي و المميت ، فأتيت أنت ووصفت هذا الإثبات لصفات الباري بأنه عقيدة المشركين ، فهذا القول منك في حد ذاته هو قول مشئوم يُخشى عليك فيه لأنك سميت الإيمان ، وإثبات صفات الباري إليه شركًا وكفرًا...

وهو الذي قرره الإمام الطحاوي في مشكل الآثار ج١ في [باب بيان مشكل ما روى عن رسول الله عليه السلام فيمن قال لأخيه يا كافر].

حيث روى الأحاديث الواردة في ذلك وختمها بحديث جندب بن عبد الله البجلي أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حدثه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **إن مما أتخوف عليكم لرجلا قرأ القرآن حتى إذا رئيت عليه بهجته وكان ردءا للإسلام أعثره إلى ما شاء وانسلخ منه ونبذه وراء ظهره وخرج على جاره بالسيف ورماه بالشرك قال: قلت يا رسول الله أيهما أولى بالشرك**

**المرمي أو الرامي قال: بل الرامي**[1].

قال الإمام الطحاوي معلقًا: "فتأملنا ما في هذا الحديث طلبًا منا للمراد به ما هو ؟ فوجدنا من قال لصاحبه: يا كافر ، معناه أنه كافر ، لأنه الذي هو عليه الكفر ، فإذا كان الذي عليه ليس بكفر وكان إيمانًا كان جاعله كافرًا جاعل الإيمان كفرًا ، وكان بذلك كافرًا بالله تعالى لأن من كَفَر بإيمان الله تعالى فقد كفر بالله ومنه قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ [المائدة: ٥] فهذا أحسن ما وُفِّقنا عليه من تأويل هذا الحديث والله نسأله التوفيق ) انتهى كلام الإمام الطَحاوي.

وأنا أعجب أشد العجب ، ممن ينتسب إلى العلم الشرعي ومع ذلك يعتبر أن المسلمين خطوة لمشروع ناري ، وإلا فما معنى أن مسلمًا يوحد الله تعالى بإثبات الخالقية ، ويفرد الله تعالى بالرازقية والإحياء والإماتة فيصدِّق الله تعالى ، بصفاته ومع ذلك نحن نخرجه من التوحيد ونلقيه في النار.. مع أبي جهل وأبي لهب ، ويكون شرك أبي جهل وأبي لهب ، أفضل من عقيدة هذا الذي قال لا إله إلا الله... « أي لا معبود بحق إلا الله » ونقول للذي يخوض في هذه الكلمات ، ويرتكب هذه الجناية ، كيف أخذت من لسانه توحيد الربوبية فوصفته بأنه عقيدة المشركين...

(1) صحيح ابن حبان ح(٨١)، المطالب العالية لابن حجر ح(٤٤٨٣)، مشكل الآثار للطحاوي ح(٧٢٥).

وأهملت توحيد الإلوهية والعبادة ،الذي هو ملازم له ، ولم تأخذ بالأصل الذي هو منطبع فيه ، وهو الإسلام « فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ».

فالإسلام ثبت بالأمر الثابت اليقيني لمن تلفظ بالكلمة ، واليقين لا يزول بالشك فإذا قال المسلم « لا إله إلا الله » فكيف تسقط عنه عصمة الإسلام ؟ وإذا أقر بأن لا معبود بحق إلا الله فأثبت توحيد الإلوهية لله تعالى وحده ، فكيف تنعت عقيدته بالشرك والوثنية ؟

على أن إدعاء هذا الشيخ أن من يتعلم في دعوته أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت بأن « هذه عقيدة المشركين » بعيد عن ظاهره...

لأن تعلم ذلك ظاهره توحيد الله بأفعاله ، وظاهره الإيمان وإثبات صفات الباري إليه...

وقوله إن « هذه عقيدة المشركين » واستدلاله الخاطئ على ذلك ببعض الآيات، تأويل لجلب مفسدة، والتأويل انما يصار اليه لدفع مفسدة، لا لجلبها ...

وإن أول وأهم ثمرات العلم أن يراجع المرء حياته ويحاسب نفسه، بأن يعلم ما فُرض عليه من الأحكام والأوامر فيلتزم بها، ويعمل على تمامها وكمالها، وأن ينظر إلى غفلته أو تقصيره في بعضها الآخر فيشمر عن ساعد الجد، في الإتيان بها وأدائها...

أما من استغنى عن ذلك وبدأ يصحح ويصوب، ويراقب ويحاسب سواه، بما حصَّله من علم وما جمعه من نصوص، ويعدد الأخطاء على غيره، وينسى نفسه، فقد سقط في الكبر وهو لا يدري، وأصابه الغرور العلمي الذي هو الهلاك الكبير لأهل العلم ،بما فيه من صولة وتعظم على المؤمنين، وتسفيه وحقرية لعموم المسلمين..

والأئمة رضي الله عنهم نصوا ، على عدم إكفار المسلم بقول تلفظ به ، حتى تنسد أمام قوله كل أبواب المعاني الصحيحة ، فكيف إذا كان قوله هو حقيقة الإيمان ، وما يجب بالإجماع اعتقاده على عموم المسلمين ، في تعظيم الله تعالى وتوحيده ، كما سبق ونقلناه عن الإمام القرافي رحمه الله تعالى...

كما أكد أئمتنا رضي الله عنهم أيضًا أنه لا ينبغي تخطئة كلام أمكن إصلاحه، ولو باحتمال ضعيف ، فكيف إذا الكلام صحيحًا لا شبهة فيه ، منضبط مستقيم لا غبار عليه...

وإليك تأكيد ذلك كما قرره الإمام الخادمي في « بريقة محمودية » ج٢ ص٥٠ حيث قال رحمه الله تعالى « وقد عرفت قريبًا عدم إكفار مسلم ما لم تنسد أبواب التأويل بالكلية كما قال أهل المعقول أيضًا لا ينبغي تخطئة كلام يمكن إصلاحه ولو باحتمال ضعيف » انتهى كلام الإمام الخادمي.

وقد نص الأئمة رحمهم الله تعالى على أنه لا يفتي بتكفير مسلم ، أمكن حمل كلامه على محمل حسن ، أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة ..

وهو ما أورده الإمام الحموي في(غمز عيون البصائر ج٣ ص٤٢٥ في باب الردة) حيث قال رحمه الله تعالى: «قوله متى وجدت رواية أنه لا يكفر»: يعني ولو كانت تلك الرواية ضعيفة كما في شرح المصنف رحمه الله تعالى على الكنز. أقول: ولو كانت تلك الرواية لغير أهل مذهبنا، ويدل على ذلك اشتراط كون ما يوجب الكفر مجمعا عليه. وفي شرحه أيضًا من باب البغاة يقع في كلام أهل المذهب تكفير كثير لكن ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل غيرهم، ولا عبرة بغير الفقهاء. نقله عن ابن الهمام وفيه من باب المرتدين بعد كلام ساقه ثم قال: الذي تحرر أنه لا يفتي بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة، فعلى هذا فأكثر ألفاظ التكفير المذكورة في كتب الفتاوى لا يُفتى بها قال المحقق ابن الهمام: وقد ألزمت نفسي أن لا أفتي بشيء منها». انتهى كلام الإمام الحموي.

كما أن الأئمة رضي الله عنهم أفتوا بخلاف ظاهر اللفظ إن كان ظاهره يحمل معنى قبيحا ، وذلك حقنًا للدم على قدر الوسع والطاقة سيما إن لم يكن القائل متهما فى إيمانه بعقيدة سيئة ، مع تعزير صاحبه لشناعة لفظه..

قال الإمام ابن حجر الهيثمي في تحفة المحتاج شرح المنهاج ج٩:« وقد أفتى أبو زرعة من محققي المتأخرين فيمن قال له اهجرني في الله فقال هجرتك لألف الله بأنه لا يكفر إن أراد لألف سبب أو هجرة لله تعالى وإن لم يكن ذلك ظاهرًا للفظ حقنًا للدم بحسب الإمكان لا سيما إن لم يعرف قائله بعقيدة سيئة لكن يُؤدب على إطلاقه لشناعة ظاهره » انتهى.

واذا كان الأصل عند أئمتنا أئمة أهل السنة والجماعة، أن لازم القول ليس بقول ولازم المذهب ليس بمذهب، فهل لازم القول بتوحيد الربوبية هو الكفر بتوحيد الألوهية؟

ما من أحد من أهل الإسلام عالمًا كان أم جاهلاً قال بذلك!

بل هو حقيقة الإيمان ووصف الله تعالى بمعاني صفاته وإثباتها له سبحانه عز وجل وحده لا سواه...

فإذا كنا لا نستطيع أن نكفر الناس، بالأقوال التي تؤدي لوازمها إلى الكفر، حتى يكون ذلك هو مرادهم وقصدهم، فكيف نكفر عموم الأمة بالأقوال التي تؤدي لوازمها إلى حقائق الإيمان، ووصف الله تعالى بصفاته وتوحيده بأفعاله..

فإلى هؤلاء الذين يأخذون بعض بسطاء الأمة بلوازم الأقوال...

نقول لهم قد أخطأتم بذلك، لأن لازم القول ليس بقول، وما تشققون أنتم من المعاني القبيحة، زعما أنها مفهوم هذه الأقوال والألفاظ، هو مفهومكم أنتم، ولا يلزمهم، لأنه لا ينسب إلى ساكت قول كما تقرر ، وهم ما نطقوا بهذا المفهوم وقد بين أئمة الدين هذه القواعد في فتواهم، التي حفظوا بها حق الإسلام والكلمة، وحموا بها عموم المسلمين...

وإليك بعض الأمثلة على ذلك..

وهو ما أورده الإمام علاء الدين الطرابلسي في معين الحكـــام ج٢ صـــفحة ٤٣٠ حيث قال رحمه الله: (ووقعت مسألة في أيام شهاب الدين القرافي بمصر ، وكان أهل العلم -إذ ذاك- متوافرين وهي أن رجلاً قال لآخر: أمات الله البعيد كافرًا فأفتى شرف الدين الكركي بكفره قال: لأنه أراد أن يكفر بالله.

وأفتى القرافي بعدم كفره واحتج بأن إرادة الكفر لم تكن مقصودة له وإنمـــا أراد التغليظ في الشتم وإرادة التَّكَفُّر شيء يئول إليه الأمر، وما قاله القرافي هـــو مذهب أبي يوسف حيث قال: لو قال لآخر: قبض الله روحك على الكفر إنه لا يكفر » انتهى كلام الإمام الطرابلسي.

أقول: إذا تكلم مسلم بكلمة مجملة، يلزم منها معنى صحيح، ويلزم منها معـــنى فاسد، إن ألزمتها أنت المعنى الفاسد، فهذا تجاوز واعتداء منك وكذب عليه ، لأن لازم المذهب ليس بمذهب ولازم القول ليس بقول ...

قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٥ ص ٣٠٦ « فلازم المذهب ليس بمذهب إلا أن يستلزمه صاحب المذهب فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظًـــا أو يثبتونها بل ينفون معان أو يثبتونها ويكون ذلك مستلزما لأمور هي كفر وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون وما أكثر تناقض الناس لا سيما في هذا البـــاب ، وليس التناقض كفرًا ) انتهى.

فالذي يسير الآن بين المسلمين، لإلزامهم الحجة بلوازم أقوالهم، إنما يرمي عموم المؤمنين بالبلاء، ويرميهم بالمصائب، وهو ليس بأخ على حقيقة الأخوة الإسلامية، بل يورد المسلمين المهالك، بالألفاظ المحتملة واللوازم التي لا يقصدونها ..

وقد بين الأئمة رضي الله عنهم خطأ من ألزم المسلمين ما لا يقصدونه من لوازم أقوالهم، وهو ما ذكره العلامة ابن حجر في الإعلام بقواطع الإسلام ص ٥٥ حيث رد على أحد المفتين في ذلك بقوله رضي الله تعالى: « وما ذكره في أنصف الله ينصفك يوم القيامة من أنه كفر فيه نظر ظاهر ، لأنه إن أراد به أنك إن أطعته أثابك فواضح أنه غير كفر ، وإن أراد حقيقة الإنصاف المشعرة بالاحتياج اتجه الكفر لأن من اعتقد أن الله يحتاج إلى أحد من خلقه فلا شك في كفره وإن أطلق تردد النظر فيه والظاهر أنه غير كفر لأن الإنصاف لا يستلزم ذلك ، وعلى تسليم أنه يستلزمه فلا بد من قصد ذلك اللازم كما علم مما مر » انتهى.

وإذا كان توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله والاعتراف بالرب الحق خالقًا ورازقًا ومحييًا ومميتًا، فإن توحيد الإلوهية هو تخصيصه وحده بالعبادة لا سواه وتوحيد الله تعالى بأفعال العباد التي يتقربون بها إليه مما شرعه لهم..

والمشركون عندما اعترفوا بالله ربًا وخالقًا، ورازقًا، ومحييًا، ومميتًا، لم ينفعهم ذلك ، لأنهم مع اعترافهم بربوبيته انقطاعًا وإفحامًا قد عبدوا معه غيره ، ودعوا معه سواه فاتخذوا الأصنام لذلك آلهة من دون الله ، لها يدعون وإليها يسجدون ، وخصوها بجميع أنواع العبادة ، فأشركوا مع الله غيره في العبادة والإلوهية وهو الذي عبَّرت عنه الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ

**حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٣٨].

وهذا الشيخ الذي استدل بهذه الآية السابقة، على من تكلم معه من أهل الدعوة، عندما قال له نحن نتعلم أثناء دعوتنا أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فأجابه بأن هذه عقيدة المشركين..

نقول له: هلا أكملت نصف الآية التي استدللت بها، فإنك لو أكملتها لكفتك وكفتنا وكفت عموم المسلمين ، ما يثار من فتن ومشكلات حول هذه الآيات، فلا يصلح أن تأتي إلى نصف آية أو ثلث آية أو ربع آية ثم تستدل بها على عموم الحكم ، ولاتكن على طريقة من يستدل بـ ﴿ **لا تقربوا الصلاة**﴾[النساء: ٤٣] ويسكت فأنت لو أكملت الآية التي استدللت بها ، لخجلت أن تطبقها على أهل الإسلام، أو على مسلم موحد يصلي معك في المسجد، ويقر لله تعالى بالإلوهية والربوبية، ويدعو الناس إلى ذلك، لأن هذه الآية قد نزلت في عباد الأصنام، فتأتي أنت فتطبقها في أهل الإسلام، وتجري آيات عبدة الأصنام في المسلمين ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ أهذا يصلح لهذا، أن نسوي بين الطيب والخبيث ونجعل المتقين كالفجار ﴿**قُل لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾ [المائدة: ٣٦] ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩].

والآية التي ذكرت نصفها وحجبت بقيتها نصُها الكامل هو ما سبق ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾.

فهل عند أهل الدعوة ومنهم هذا الأخ الذي تكلم معك، أصنامًا يدعونها من دون الله حتى تسوي بينهم وبين عبدة الأصنام في صدر الآية وأولها، وتحجب عجزها ونصفها الأخير لأنه يسقط استدلالك ويرد اتهامك...

على أنا نلفت الانتباه أن الله تعالى في هذه الآية ما عاب المشركين وذمهم، على أنهم أقروا أنه خالق السماوات والأرض، كما ذممت أنت أهل الدعوة على ذلك، بل عابهم على أنهم دعوا معه غيره، وعبدوا معه سواه..

وأهل الدعوة عندما اقروا بالله ربًا وخالقًا ومحييًا ومميتًا ، وتعلموا ذلك في دعوتهم هل عبدوا معه غيره؟

وهل قدسوا وعظموا سواه ؟ حتى نبهتهم ونزعم أن عقيدتهم هي عقيدة المشركين ، وحتى نسوي بينهم وبين المشركين أهل الأوثان ....

وقد عاني المسلمون أشد المعاناة من هذه الطوائف من المعاصرين التي غالت في التكفير والتبديع على غير أسس علمية مع مصادمتهم للكتاب والسنة ، وزللهم في تسمية الشرك والكفر توحيدا، ووصفهم توحيد بسطاء الأمة بالشرك والكفر..

وإذا تقرر في علوم العقيدة وأصول الدين أن توحيد الربوبية هو توحيد الله تعالى بأفعاله، والإقرار بأنه الخالق الرازق..

وتوحيد الإلوهية هو توحيد الله تعالى بافعال العباد، و تخصيصه وحده بالعبادة لا سواه ، فلا بد أن يكون ذلك على سبيل التلازم التام، وعدم الانفكاك بين الإيمان بالرب الحق ،وإفراده وحده بالعبادة..

فلا يسمى الإنسان مؤمنًا إلا بحقيقة هذا التلازم، حيث لا يصح الإيمان مع الانفكاك بينهما، فلو أقر أحد بربوبية الله تعالى وأنه الخالق الرازق، ثم عبد معه غيره، كان كافرًا بالاتفاق، ولا نقول أنه موحد توحيد ربوبية، لأنه لا يوصف بوصف التوحيد إلا بتلازمه مع توحيد الإلوهية، وهو إفراده سبحانه وحده بالعبادة، فبدون هذا التلازم لا يستحق وصف الإيمان أو التوحيد ، بل وصف الكفر هو اللائق به ، وبذلك نطق الكتاب وأفصح البيان حيث قال تعالى ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزمر: ٣].

فهؤلاء قد اعترفوا بوجود الله تعالى حيث قالوا ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ فعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله الذي سلّموا بوجوده وقد سمى البعض اعترافهم هذا « **توحيد ربوبية** » و « **عقيدة** » ولم يدرِ أنه بذلك مصادم للقرآن مخالف لوصفه إياهم وحكمه عليهم فاعترافهم هذا لا يسمى توحيدا ولا إيمانًا مع عبادتهم غير الله تعالى ، ومع انفكاكه عن التلازم مع توحيد الإلوهية وهو إفراده

سبحانه وحده بالعبادة فالله تعالى دمغهم في نهاية الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فوصفهم بالكذب والكفر وهؤلاء المتأخرون يصفونهم بالتوحيد والعقيدة، ونحن نصدق القرآن فيما قال، ونرد قول من خالف منطوق آياته، وصرف عنها الأبصار ....

وقد نص الأئمة على أن الإيمان هو التلفظ بالشهادتين، مع الإقرار بالقلب بكل ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، ومع الامتثال والإذعان بالجوارح لأحكام الإسلام، وهو الثابت في حديث جبريل عليه السلام حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم عند سؤاله عن الإسلام والإيمان « **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت، فأخبرني عن الإيمان. قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره** »[1].

فالإيمان عند أهل السنة والحديث « هو التصديق بالجنان: أي بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان: أي الجوارح فمن صدَّق بقلبه وأقر بلسانه وعمل بأحكام الإسلام بجوارحه فهو المؤمن ...

فالإيمان عند أهل الحديث هو جميع الطاعات فرضها ونفلها، ووصفوه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضًا ونفلا، والانتهاء عما نهى عنه تحريمًا وأدبًا، فهذا هو المؤمن في عرف أهل الشرع، وهذا الإيمان هو الذي ينجو به صاحبه من الخلود

---

(1) صحيح البخاري ح(٥٠)، صحيح مسلم ح(١٠٢).

في النار ويُحصل به الفوز بالجنة .

أما الإيمان في اللغة فهو التصديق ، فهل المشركون الذين أقـــروا في الآيـــة بقولهم « الله » صدقوا بقلوبهم وعملوا بأحكام الإسلام بجـــوارحهم، وتلفظـــوا بالكلمة بألسنتهم، حتى نقول إنهم موحدون أو لهم عقيدة ؟

وقد وضَّح كل ذلك الإمام النووي في شرح صحيح مســـلم ج١ ص ١٤٨ حيث قال رحمه الله: « قال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله قولـــه صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رســـول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشـــهادتين وإنمـــا أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم لكونها أظهـــر شـــعائر الإســـلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله ثم أن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وســـائر الطاعـــات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمـــان ومقويـــات ومتممـــات وحافظات له ولهذا فسر صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم ولهـــذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بدل فريضة لأن اسم الشـــيء مطلقًا يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهرًا إلا بقيد ولذلك جاز

إطلاق نفيه عنه في قوله صلى الله عليه وسلم لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهـو التصـديق البـاطن ويتناول أصل الطاعات فإن ذلك كله استسلام قال فخرج مما ذكرناه وحققنا أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا قال وهذا تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات الكتاب والسنة الواردة في الإيمـان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافـق لجمـاهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو بن الصلاح » انتهى كلام الإمام النووي.

وإذا أردت الحق والحقيقة فإن هذا الخلل في التنظير ، الذي يقع من البعض ، نتيجته وثمرته تكفير الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم ، الذين دعوا أقوامهم بالدلالة على الربوبية ، وتوحيد الله تعالى بأفعاله ، وإثبات صفاته ، ومنهم الخليل إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين عندما خاطب النمرود بقوله ﴿ **ربي الذي يحي ويميت** ﴾ [البقرة: ٢٥٨] والآية نص في الاحتجاج على منكري الإلهيةومنهم النمرود بإثبـات الربوبية .

ونحن نريد جوابًا هل هذا توحيد ربوبية أم توحيد إلوهية ؟

**الجواب**: هذا توحيد ربوبية أي توحيد الله تعالى بأفعاله ، فالآن الخليل عليه السلام يدعو بتوحيد الربوبية ، فهل يستطيع أحد أن يرمي أبا الأنبياء إبـراهيم عليه السلام بهذه التهمة وتلك الجناية التي دُمغ بها هذا الداعي إلى الله تعـالى ، عندما قال نحن نتعلم في دعوتنا أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، وهـل

يستطيع أحد الآن أن يقول أن سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو إلى عقيدة المشركين ، عندما قال « **ربي الذي يحي ويميت** » ..

وانظر معي إلى القرآن العظيم كيف يأمر المولى عز وجل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسأل المشركين ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ**﴾[سبأ: ٢٤] أي قل إن الذي يرزقكم في السماوات والأرض هو الله عز وجل ، فالله عز وجل يأمر رسوله بإثبات الرازقية له ...

وهذا الأخ من أهل الدعوة عندما قال أمام هذا الشيخ نحن نتعلم أن الله هو الخالق الرازق ، قال له هذه عقيدة المشركين، فالعجب أن النمرود فهم كلام الخليل عليه السلام بإثبات الربوبية لله تعالى بقوله:"ربى الذى يحى ويميت" وأدعى الربوبية لنفسه، وهذا الشيخ لم يفهم كلام هذا الداعى وزعم أنه عقيدة مشركين وهذه الآية نص في الدعوة بتوحيد الربوبية وهي نص أيضًا في الاحتجاج على منكري الإلهية بإثبات الربوبية، وقد طلب المولى عز وجل من الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يخاطب به المشركين ، فهل يأمر الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى عقيدة المشركين ؟،وهل يُعلم القرآن أمة الإسلام التوحيد أم يعلمهم عقيدة المشركين عندما قال ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم تنبتوا شجرها أله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾ [النمل: ٦٠].وإذا تكلم داع إلى الله،بإضافة الرازقية والخالقية إلى الله عز وجل تبعًا لهذه الآية، فهل نقول أنه بذلك يدعو إلى عقيدة

المشركين؟ رغم أن توحيد العبادة ملازم له في عبادته لله وحده لا سواه ، وتوحيد الإلوهية هو متعلق به في ليله ونهاره صلاة ودعاءً وتوجها وتوكلا...

والله تبارك وتعالى في كتابه العزيز قد علمنا كيف نستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، لأن الله عز وجل لما كان هو الخالق لنا ولعموم البشرية وأنعم علينا بكل النعم الظاهرة والباطنة، وجب علينا ألا نعبد سواه ولا نقصد غيره، وأن نفرده وحده بالخضوع والطاعة كما قال عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ .

وهؤلاء الذين يقولون أن أهل التبليغ أو أهل هذه الدعوة ليس عندهم توحيد ألوهية...!

وليس عندهم توحيد عبادة...!

ولا يدعون إلى توحيد الالوهية، ولا يدعون إلى توحيد العبادة، إلى آخر ما يقولون ، يا إخواننا.. يا أصحابنا اتقوا الله تعالى ، أسألونا ونحن نجيبكم أنصفوا حتى يبارك الله سبحانه وتعالى في علومكم وفي كلمتكم...

ما هو توحيد الألوهية الذي تنازعون المسلمين فيه وتثيرون حوله المعارك في الدين.

**الجواب**: هو توحيد الله تبارك وتعالى بأفعال العباد، والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة فكل ذلك محض حق الله تعالى.

أي أن التوكل يكون على الله تعالى وحده ، والمحبة والاستعانة تكون بـــالله، والاستغاثة تكون لله وحده لا سواه ، والركوع والسجود والدعاء كله لله تعالى وحده ، هذا توحيد العبادة وتوحيد الإلوهية...

وقد علَّم الله عز وجل عبادة كيفية اجتناب الشرك في توحيد الإلهية، وأنـــه تعالى حقيق بإفراده وحده وليًّا وحكمًا ومعبودًا، بان يتولاه النـــاس في جميـــع أمورهم، ويحكمونه ويخصونه وحده بجميع أنواع العبادة، من الخشوع والخضوع والامتثال والانقياد والطاعة فقال عز من قائل ﴿**قل أغير الله أتخذ وليا**﴾ وقال عز وجل ﴿ **أفغير الله أبغي حكما**﴾ فلا ولي ولا حكم يحتكم اليه ولا معبود بحق إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته.

فنحن نسأل من يتهم أهل الدعوة ونريد منه جوابًا: هذا الداعي الذي قال نحن نتعلم في دعوتنا أن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميـــت ، ودمغـــت عقيدته بأنها عقيدة المشركين...

أليس يصلي معك في المسجد ؟

يصلي لله وحده ، ويركع ويسجد ويسبح الله عز وجل.

ويدعو الله تعالى وحده لا سواه ، يصلي خمس صلوات أمامـــك فى كـــل يـــوم لسنوات طويلة وكل هذا توحيد عبادة وتوحيد ألوهية...

طوال خمسة عشر عامًا وهو معك في المسجد على هذا الوصف..

وبعد ذلك تقول له ليس عندكم توحيد ألوهية ولا توحيد عبادة... ؟

يا إخواننا ماذا تقولون؟ وما هذا الذي يقال عنكم ؟ ؟ وما كان ينبغي له أن يقال؟...

هذا وأغرب منه أن هذا الداعي الذي يتهمه هؤلاء ، لم يطبق ويعمل بتوحيد الالوهية وتوحيد العبادة فقط فى نفسه ، ولكن انظر الى مايقوم به من عمـــل ، لنرى كيف اجتهد الشيطان على قناعات البعض ، فقلب معها المعروف المحمود من الشارع عز وجل منكرا ، حتى قامت لذمه ومعاداته والحط عليه، وإنكار ما ليس بمنكر مذموم كعكسه...

الآن أهل الدعوة في مشارق الأرض ومغاربها ، الله تعالى جعلهم سببًا في أن عموم الناس يُسلمون على أيديهم ، فيتلفظون بالكلمة « لا إله إلا الله » الـــتي معناها « لا معبود بحق إلا الله » فهم ينشرون توحيد العبادة وتوحيد الالوهية في عموم البشرية ، وليس في أنفسهم فقط ، حيث يخرجـــون إلى الطرقـــات وإلى المقاهي وإلى الحانات والبارات ، فيأتون بالناس من هذه الأماكن ، والله سبحانه يجعلهم سببًا لذلك ...

وقد كان هؤلاء الناس قبل ذلك لا يعرفون ربهم ولا خالقهم ولا معبودهم ، فيدخلون المساجد على أيديهم ، وبسبب صحبتهم ومنهجهم يصبحون عبادا لله عز وجل، إليه يبتهلون وله يركعون ويسجدون، مطلوبهم الله عز وجل آناء الليل وآناء النهار ، به يستغيثون وعليه يتوكلون ، وإياه يقصدون ويرغبون..

فنسأل من يتهمهم...هل تراهم يفعلون ذلك أم لا تراهم ؟ ،وهل هم يقيمون هذا التوحيد، توحيد الألوهية والعبادة في عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم أم

لا يقيمونه؟، أم أنت تبحث فقط عن الاصطلاحات، أو تظـن أن التوحيـد في ترديدها، فتقيم الألفاظ وتسقط المعاني...

وإن كنت لا ترى فأسأل من ير ، نحن لا نرجم بالغيب أو نتحدث بالظنون ، كم من شارد صار عابدا على ايديهم، وكم من بعيد صار قريبًا ، وكم ممن لا يعرف له ربا ولا صلاة ولا صيامًا ولا زكاة ، أصبح من كبار الدعاة معهـم ، ومن كبار المبتهلين لله عز وجل وحده ...

وهم لا يقيمون توحيد الألوهية وتوحيد العبادة في أنفسهم ، وفي عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل في عموم البشرية والإنسانية فيمن يسـلم علـى أيديهم ، فكيف تدعي عليهم ما ليس فيهم....

والنبي صلى الله عليه وسلم قد جعل بيننا وبين بعضنا البعض سياجا، لابد مـن حفظه ، وهنالك حقوق للإسلام لا يصلح أن نهدرها ، قال صلى الله عليه وسلم "**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**"[1] وهذا معاذ رضي الله عنه عنـدما ذهب إلى اليمن بأمر النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أهلها ، فلما عاد من اليمن ورأى النبي صلى الله عليه وسلم سجد له ، فلما سجد أمام النبي صلى الله عليـه وسلم ماذا فعل معه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟..

يا إخواننا يا أصحابنا انظروا إلى إمام هذه الأمة ، وإمام التوحيد إلى قيام الساعة، انظروا إلى إمام المرسلين، إلى سيد المرسلين كيف تعامل مع الخطأ الذى وقع أمامه، ومعاذ رضي الله عنه لما سجد للنبي صلى الله عليه وسلم ماذا قال له ،

---

(1) صحيح البخاري ح(٢٣١٠)، صحيح مسلم ح(٦٧٠٦) .

هل قال له يا معاذ أنا أرسلتك إلى اليمن تعلم الناس التوحيد ، لا لتتعلم منهم الشرك ولا لتتعلم منهم أفعال المشركين!

هل قال له النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ..؟

الجواب ماقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك، ولكنه قال له ( يا معاذ، ما هذا؟ قال يا رسول الله، أتيت أهل اليمن فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم وأحبارهم فقلت والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بذلك فلما جئت سجدت لك )

فماذا كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم هل زجره؟ هل نهره؟

ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا من ذلك ، بل علمه بكامل الرفق واللين وقال: « **يا معاذ لو كان لأحد أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها لعظيم حقه عليها** »[1] « ولو » هنا حرف امتناع لامتناع ، أي لا أحد يسجد لأحد ، فممتنع أن يسجد أحد لأحد ، وإذا حدث ذلك لكانت الزوجة تسجد لزوجها لعظيم حقه،ولكن ذلك ممتنع، أى أن الزوجة ممتنعة أن تسجد لزوجها رغم عظيم حقه عليها ...

فهذا هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم فيمن أخطأ، بفعل فيه مخالفة لمسألة من مسائل التوحيد والعقيدة ، وهي السجود لغير الله تعالى ولم يكن يقصد ذلك أو يتعمد هذا ، أو يعلم حكمها ...

(1) المستدرك للحاكم ح(٧٣٢٥) قال على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي سنن ابن ماجه ح(١٨٥٣) .

لذلك حرص أئمة الإسلام رضي الله عنهم على حماية المسلمين ، وحفظوهم بوثق رباط ، حتى يحفظ كل واحد منا حقوق أخيه..

لذلك قال الإمام الشوكاني رحمة الله عليه في السيل الجرار ج ص ٥٤٩ « اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار ، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة « أن من قال لأخيه: ياكافر فقد باء بها أحدهما » هكذا في الصحيح [1] وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: « من دعا رجلا بالكفر ، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » [2] أي رجع ، وفي لفظ في الصحيح « **فقد كفر أحدهما**» ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر ، وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير ، وقد قال الله عز وجل: « ولكن من شرح بالكفر صدرا ) فلا بد من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه ، فلا اعتبار ما يقع من طوارق عقائد الشر ، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام ولا اعتبار بصدور فعل كفر لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه)انتهى

قلت فانظر إلى كلام الإمام الشوكاني السابق: « اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله

(١) صحيح البخاري ح(٥٧٥٣)، صحيح مسلم ح(٢٢٥).

(٢) صحيح مسلم ح(٢٢٦)، مسند أحمد ح(١٤٦٥).

واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا برهان أوضح من شمس النهار»

وانظر إلى من يأتي إلى مسلم داع إلى الله يصلي معه الصلوات الخمس ، ويقول له هذا الداع أنا أثبت لله تعالى صفاته من الخالقية والرازقية وأوحده تعالى بأفعاله ، فيرميه بعقيدة الشرك ويسمى إيمانه وتوحيده هذا عقيدة مشركين مع أن كلامه لا يحتمل ما واجهه به ولو بأقل الاحتمالات، هذا رغم أن هذا الداعي مصيب في كلامه، فكيف إذا أخطأ في قوله ، ماذا كان سوف يفعل معه؟ وبماذا كان سيواجهه؟.

وكيف لو قال كلاما محتملا للكفر او الشركً أو محتملا للخطأ أو الصواب ، ماذا كان سيصنع به ؟ ؟

هؤلاء الذين يتكلمون بهذه الكلمات يجترئون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعرفون خطورة هذا عليهم ، وخطورة هذا على الإسلام، وعلى أخوة الدين وعلى حقوق المسلمين.

وانظر إلى قول الإمام الشوكاني رحمه الله السابق « فلا بد من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه » فالذي ينشرح صدره بالكفر ، ويطمئن قلبه به، وتميل نفسه إليه هذا الذي يكفر، ولكن بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع..

وأما إذا كان يثبت أمامك الإيمان، ويتكلم في الإيمان، وتسمى عقيدة الإيمان التي يثبتها عقيدة المشركين، فنسأل الله تعالى أن يلطف بأمة الإسلام، وأن يرزقنا حقيقة الإخلاص للمولى تبارك وتعالى في القول والعمل ، وأن يرزقنا حسن الظن

بجميع المسلمين ، وأن نكون على قدم النبوة وهدي الرسالة، وأن نلزم أحكام أئمتنا وأحكام شريعتنا في حفظ حقوق الإسلام وتعظيم حقوق المسلمين...

فمن القواعد التي قررها أئمتنا في هذا الباب، أنه من أطلق لفظًا لا يعرف أو يقصد معناه لم يؤاخذ بمقتضاه، ولا يحمل كلام أي أحد إلا على المعنى الذي أراده، لا على المعنى المتبادر من اللفظ عند أي أحد ، كما أن من قواعد ديننا عدم التكفير بالمحتملات ، لأن اللفظ إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، لأنه قد يحتمل معنى صحيح فينبغي المصير إليه.

وقال العلامة ابن حجر في الإعلام بقواطع الإسلام، معلقًا على بعض حالات الحكم بالكفر، من بعض المفتين على الألفاظ المجملة الغير متضحة الدلالة ، أو على الألفاظ المحتملة ، وهي لا تصلح أن توصف بكفر إلا على معنى معين مذموم ، ونص الفتوى التي علق عليها هو الآتي: « وأنه لو قيل ألا تقرأ القرآن أو ألا تصلي ؟ فقال: شبعت من القرآن أو من الصلاة كَفَرَ » انتهى.

وقد رد على هذه الفتوى العلامة ابن حجر بقوله: « والذي يتجه أن محل الكفر هنا إن أراد الاستخفاف بالقرآن أو الصلاة وإلا فلا كفر لأن ذلك قد يعبر به عن وقوع ملل في النفس وإبائها عن تحمل ثقل الطاعات من غير الاستخفاف بها » انتهى كلام الإمام ابن حجر.

قلت: الذي أطلق الكفر على هذا اللفظ ، وجّهه بأن صاحبه مستخف بالقرآن والصلاة ، وهو يفترض في المتكلم قصد هذا المعنى في ذاك اللفظ ، وهذا لا يُسلَّم له على الإطلاق والعموم ، لأن بعض من يقول مثل هذه الألفاظ قد

يكون جاهلا بأبعاد معانيها ، بل أكثرهم لايقصدون منها هذه المعانى القبيحة، غير أنهم على هذا الوصف من الجهل والرعونة ، فإطلاق الكفر على عموم كل من يتلفظ بمثل هذه الألفاظ ، خاصة في حالة الجهل، وعدم قصد المعانى القبيحة، والخصومة غير سديد ، وهذه طريقة الكثير من طلبة العلم الآن، يأتي إلى الألفاظ المحتملة المجملة الغير متضحة الدلالة، ويحملها على أرذل المعاني الخبيثة، ويرمي بها أخاه المسلم، الذى لم تخطر بباله هذه المعانى قط، بل و لم يتصورها أو يتخيلها والأئمة رضي الله عنهم كان هديهم بخلاف ذلك ...

فهذا أحد كبار المفتين العلامة عليش في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك ج٢ يقول رحمه الله: وقد قالوا إن كان للتكفير تسعة وتسعون وجهًا ولعدمه وجه واحد فإنه يقدَّم ولا يفتى بالكفر الموجب للقتل وحل العصمة وعدم الميراث وغيرها من أحكامه الصعبة » انتهى.

كل ذلك تحسينا لحسن الظن بالمسلم ، وهؤلاء الجامدين على أحكام الشرك والكفر ، الكلام الذي يحكمون عليه بالكفر، لا يحتمل الذي يفكرون فيه ، أو يتصورونه في اللفظ ، ليحملوه على هذه المحامل القبيحة..

وها هو الإمام مالك رضي الله عنه يؤكد أنه لا يكون الرجل كافرًا عنده، وإن أقر على نفسه بالكفر في صورة يمين إن فعل كذا أو كذا ، ولا يعتبر ما صرح به يمينًا، ولا يكون كافرًا بفعل ما علق الكفر عليه، وأقر به على نفسه، حتى يكون قلبه مضمرا على هذا الكفر ..

قال في المدونة ح٢ صفحة ١٠٦: في « الذي يحلف بما لا يكون يمينًا » «قلت: أرأيت إن قال الرجل أنا كافرًا بالله إن فعلت كذا وكذا أتكون هذه يمينًا في قول مالك ؟

قال: قال مالك: لا تكون هذه يمينًا ولا يكون كافرًا حتى يكون قلبه مضمرا على الكفر وبئسما قال.) انتهى.

أقول: وإنما قال الإمام مالك بأن ذلك ليس بيمين ، لأنه خال عن ذكر اسم من أسماء الله عز وجل، أو صفة من صفاته ، وليس عليه كفارة في الحنث به لذلك ، مع كون الحلف به معصية ، والتلفظ به حرام.

والمسلم إذا تكلم بالكلمة ، فالواجب على من يسمعها أن يحملها على أحسن المحامل ، أما لو جاء الشيطان ليوسوس لك بالمحامل الخبيثة، فلا بد لك في هذه الحالة، من أن تتبين منه مراده منها ، فقد يكون له فيها مخرج صحيح ،أما أن تحملها على معنى قبيح متبادر من اللفظ ،وتتهمه بذلك ، فهذا من سوء الظن وهو أكذب الحديث..

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ج٣ ص ٩٢:

إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفا ودلالة على ما في نفوسهم فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرَّفه بمراده وما في نفسه بلفظه.ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول ولا على مجرد ألفاظ: مع العلم بأن المتكلم بها

لم يرد معانيها و لم يُحط بها علمًا بل تجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به ، وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه. فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم. هذه قاعدة الشريعة وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته فإن خواطر القلوب وإرادة النفوس لا تدخل تحت الاختيار. فلو ترتبت عليها الأحكام لكان في ذلك أعظم حرج ومشقة على الأمة ورحمة الله تعالى وحكمته تأبى ذلك والغلط والنسيان والسهو وسبق اللسان بما لا يريده العبد بل يريد خلافه والتكلم به مكرها وغير عارف لمقتضاه من لوازم البشرية لا يكاد ينفك الإنسان من شيء منه فلو رتب عليه الحكم لحرجت الأمة وأصابها غاية التعب والمشقة فرفع عنها المؤاخذة بذلك كله حتى الخطأ في اللفظ من شدة الفرح والغضب والسكر كما تقدمت شواهده. وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولغو اليمين. فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده بالتكلم في حال منها لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذ به » انتهى كلام الإمام ابن القيم.

وانظر إلى سلطان العلماء العز بن عبد السلام وهو يوضح كيف نرعى الحقوق الإسلامية بسياج الحفاظة والعناية ، خاصة عند عدم قصد المعاني المذمومة، إما للجهل بها ، أو عدم تبادرها إلى الأذهان عند إطلاقها ..

فقال رحمه الله تعالى في قواعد الأحكام ج٢ ص١٠٢ « فصل: ( **من أطلق لفظًا لا يعرف معناه لم يؤاخذ بمقتضاه** ) إذا نطق الأعجمي بكلمة كفر أو إيمان

أو طلاق أو إعتاق أو بيع أو شراء أو صلح أو إبراء لم يؤاخذ بشيء من ذلك لأنه لم يلتزم مقتضاه و لم يقصد إليه وكذلك إذا نطق العربي بما يدل على هذه المعاني بلفظ أعجمي لا يعرف معناه فإنه لا يؤاخذ بشيء من ذلك لأنه لم يـــرده فـــإن الإرادة لا تتوجه إلا إلى معلوم أو مظنون وإن قصد العربي بنطق شيء من هـــذه الكلم مع معرفته بمعانيها نفذ ذلك منه ، فإن كان لا يعرف معانيها مثل أن قال العربي لزوجته أنت طالق للسنة أو للبدعة وهي حامل بمعنى اللفظين ، ، أو نطق بلفظ الخلع أو غيره أو الرجعة أو النكاح أو الإعتاق وهو لا يعرف معناه مـــع كونه عربيًا فإنه لا يؤاخذ بشيء من ذلك إذ لا شعور له بمدلوله حتى يقصد إلى اللفظ الدال عليه ، وكثيرًا ما يخالع الجهال من الذين لا يعرفون مدلول اللفـــظ للخلع ويحكمون بصحته للجهل بهذه القاعدة » انتهى كلام سلطان العلماء.

وإليك ما قرره العلامه عليش وهو يؤكد ما سبق عن سلطان العلماء في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك ج٢:

(وسئل الشيخ عبد العليم الفيومي رحمه الله ) عمن قال بحضرة فقيه نـــاولني جوادي أو الجواد يعني بذلك نعله فقال الفقيه لرب النعل مرتد بقولك ذلك لأن الجواد اسم من أسمائه تعالى فهل يكون الفقيه مصيبا في فتواه ؟ ( فأجاب بقوله ) الحمد لله قول الفقيه القائل ما ذكر مرتد كذب وجهل منه لأنه[1] صار في بعض البلدان علمًا على النعل والله تعالى أعلم ) انتهى.

---

(1) أي لفظ جواد.

وقال العلامة عليش أيضًا في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك ج٢ إجابة على السؤال:

( ما قولكم ) فيمن تنازع مع عمه في متاع فتوسط الناس بالصلح بينهما فامتنع منه فألحوا عليه فيه فقال أنا نصراني وهو مسلم قاصدًا الامتناع من الصلح وشدة التباعد عن عمه فهل يعوَّل على قصده ولا يحكم بردته خصوصًا وقرائن الأحوال تدل على قصده كمن غَّر به نصرانية ليتزوجها، أفيدوا الجواب.

فأجبتُ بما نصه: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نعم يعول على قصده ولا يحكم بردته لخطرها ويستتاب ويؤدب كما يفيده كلام البرزلي المتقدم والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم...)انتهى

على أننا نذكِّر من يغالي في هذا الباب بسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وصحيح سنته في ذلك مع أحب الناس إليه ، وابن حبه أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، عندما أزال اليقين بالشك ، وكيف علَّم النبي صلى الله عليه وسلم عموم أمته قواعد العصمة ، التي ثبتت بالإسلام وبالتلفظ بالكلمة، كذلك حقوق المسلمين بعضهم على بعض وتعظيمه صلى الله عليه وسلم للشهادة ، وتعظيمه لحقوق المتلفظ بها ، في قصته مع أسامة بن زيد رضي الله عنه ، ورده عليه المرة بعد المرة ، تبكيتا وتأنيبا، إرشادًا للأمة لئلا تسلك هذا السبيل ، وحتى لا تقع في الزلل، وذلك بما يدهش الأذهان ويذهل العقول ، من مدى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ، وتعظيمه حقوقها وتأكيده لعصمتها، ومن إهدار

المتأخرين لهذه الحقوق وتهوينهم لهذه العصمة الثابتة بكلمة الإسلام ، وشعار التوحيد...

وهو الحديث المروي في الصحاح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا من المسلمين إلى قوم من المشركين وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله وإن رجلا من المسلمين قصد غفلته قال وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره حتى أخبره الرجل كيف صنع فدعاه فسأله فقال: **لم قتلته؟ قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين وقتل فلانًا وفلانًا وسمى له نفرا وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إله إلا الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلته؟ قال: نعم. قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال يا رسول الله، استغفر لي. قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال: فجعل لا يزيده على أن يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة** »[1].

وفي الرواية الأخرى في صحيح مسلم: « **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ** »[2].

---

(1) صحيح مسلم ح(٢٨٩)، سنن النسائي ح(٨٥٩٥).

(2) صحيح مسلم ح(٨٧)، سنن أبي داود ح(٢٦٤٥).

فلم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم من حبه وابن حبه إزالة اليقين بالشك ، بل زجر وبكّت وحسَّر حبه وابن حبه بقوله « اشققت عن صدره » لأنه بتلفظه بالكلمة ثبت له الإسلام بيقين، فلا يزول هذا اليقين إلا بيقين مثله، ولا يزول هذا اليقين بالظن أنه كان متعوذاً كما قال أسامة رضي الله عنه أو خوفًا من السلاح ، بل لا بد من يقين يرقى لدرجة اليقين المراد إزالته ، وقد مثّله رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة من يشق ويفتح صدر من أمامه ، ويطّلع على قلبه ، ويرى مدى الصدق ، والكذب فيه ، والسؤال هو: ماذا يقصد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التساؤل ، ( أشققت عن صدره )؟

أقول: النبي صلى الله عليه وسلم يرشد صحابته ويعلّم عموم أمته ، أنه إذا تلفظ المسلم بلا إله إلا الله ، فقد عُصم بيقين في ماله ودمه وعرضه ، وفي كل شيء « **كل المسلم على المسلم حرام** » أما أن تقول إنه كان متعوذا أو خائفا فهذا شك وظن ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يقبله، وحتى يقبله، طلب ممن أدعاه أن يشق الصدر ، وينظر إلى القلب ، فيرى أنه كان متعوذا أم غير متعوذًا! خائفا أم غير خائف! ويرى هل كان في حينها مصدقًا بقلبه مؤمنًا أما شاكا مكذبا !...

فهل يستطيع أسامة رضي الله عنه أن يفعل ذلك؟

الجواب: لا يستطيع، لا هو ولا أي أحد من الأمة إلى قيام الساعة، أن يقدر على ذلك ، لأن هذا الذي طلبه النبي صلى الله عليه وسلم أعز درجات التثبت واليقين لا يبلغها أحد ولا يستطيعها بشر ، تأكيدًا من النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا أمر محال لا يكون ، فتكون نتيجته وهي رفع العصمة بالظنون والشكوك،

مخالفة وخطأ لا يجب أن تكون ، لأنها تندرج تحت المحال الذي لا يقـــدر عليــه محال، مما يؤدي إلى إغلاق باب المزايدة أو المراهنة على حقوق الإسلام ، وعصمة المتلفظين بالكلمة بيقين في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ...

فالإسلام يَعلُو ولا يُعلى عليه ، وعسر إزالة هذه العصمة ورفع أحكامهـــا بالأوهام والخيالات الفاسدة والظنون القبيحة ، كتعسر شق الصدر والنظر إلى ما في داخل القلب، من صدق وإيمان، أوكذب وكفر وعصيان.

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر أصحاب هذه الطريقة الذين يحملون الأقوال والأفعال من أمته على الظنون والشكوك ، الـــتي قـــد لا توجـــد إلا في نفوسهم هم ، ولم تخطر ببال أحد ممن تلفظ بها أو فعلها ، وبين ذلك وأجـــلاه على أكمل وجه في تأنيبه لأسامة رضي الله عنه ، وتحذيره من خطـــر مخاصـــمة كلمة التوحيد له عن حقوقها يوم القيامة ....

وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «**ما تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة** » أي تطالب بحقها لصاحبها ممن أهدره ولم يحفظه في الحياة الدنيا ، ونحن نقول لمن ديدنه التكفير بالمحتملات ، ولإخواننا الذين لهم هذه الكلمات والذين يسارعون في هذه المواقف ، ويحملون أقوال وأفعال بسطاء الأمة علـــى أســـوأ المقاصد والنيات..

دونكم تحذير النبي صلى الله عليه وسلم إن كنتم ممن يتذكر أو يخشى لأسامة رضي الله عنه بقوله « **ما تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة** » والتي ظل يكررها عليه حتى طار منها قلب أسامة بن زيد رضي الله عنه ، خوفًا وفزعًا من

تبكيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأنيبه حتى قال رضي الله عنه: « **حتى تمنيت أني ما أسلمت إلا يومئذ** ».

فتمنى أن جميع ماضيه الذي يُسطر بماء الذهب ،يمحى كله ، وأنه لم يسلم إلا هذه اللحظة ، وإنما قصد بتمنيه رضي الله عنه عدم الإسلام إلا ذلك اليوم ، حتى لم يكن يقتله ، أو أن الإسلام يجبُّ ما قبله ، فلو أسلم يومئذ كفَّر إسلامه هذه الجناية العظيمة ، التي ارتكبها بقتله من تلفظ بالكلمة، وكأنه استصغر واستقل كل ما مضى من عمله الصالح ، وجهاده وطاعته قبل ذلك في جنب ما ارتكبه من هذه المخالفة ، وما وقع في نفسه من شدة إنكار النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم غضبه منه ومما فعل..

قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ج٢ صفحة ١٠٤ معلقًا على حديث أسامة رضي الله عنه ( وقوله صلى الله عليه وسلم أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ) الفاعل في قوله أقالها هو القلب ومعناه أنك إنما كُلفت العمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس له طريق إلى معرفة ما فيه فأنكر عليه امتناعه عن العمل بما ظهر باللسان وقال أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب يعني وأنت لست بقادر على هذا فاقتصر على اللسان فحسب يعني ولا تطلب غيره وقوله حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ معناه لم يكن تقدم إسلامي بل ابتدأت الآن الإسلام ليمحو عني ما تقدم وقال هذا الكلام من عظم ما وقع فيه).

انتهى كلام الإمام النووي.

أقول: وتدبر معنى قول الإمام النووي السابق ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة امتناعه عن العمل بما ظهر باللسان ، في هذا الذي تلفظ بالكلمة عندما غشاه بالسيف ، ونحن ننعي على الذين يمتنعون عن العمل بما ظهر باللسان وبقية الجوارح،من عموم المسلمين الذين تلفظوا بالكلمة ، واستمروا على أحكام الإسلام امتثالا وطاعة طوال أعمارهم، من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوكلاً ومحبة وإنابة، ومع ذلك يسقطون عنهم العصمة الواجبة ، في الدم والمال والعرض وسائر الحقوق الإسلامية ، ويحكمون عليهم بالشرك والكفر بأدنى الشبهات ، وبأسخف المقالات ، وأضعف الحجج والنقول..

ويجعلون الدليل شبهة والشبهة دليلاً، للوصول إلى مقصودهم في ذلك،وأوضح مثال على ذلك هذه الواقعة التي بين أيدينا ، والتي دمغ فيها هذا الشيخ المشار إليه فيما سبق الدعاة إلى الله تعالى ، الذين هم أهل الصف الأول في الصلاة فى مسجده ، والذين يتعلمون في دعوتهم أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، بأن ما يتعلمونه هو عقيدة المشركين ، ونحن نطالبه بمقتضى منطوق حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع أسامة رضي الله عنه ونقول له: « **هلا شققت عن قلوبهم** » ورأيت أن عقيدتهم هي عقيدة المشركين ، وليست عقيدة الإسلام والمسلمين وإذا كنت لست بقادر على ذلك ، فاقتصر على ما ظهر على اللسان والجوارح منهم ومن عموم المسلمين ، من علامات الإيمان وأمارات الإسلام والتوحيد ، ولا تطلب غيرها مما خفي في الضمائر والصدور ، مما لا طاقة لك في الوصول إليه... أو الاطلاع على ما فيه ، وإن اقتصرت على الظاهر في اللسان والجوارح ، عوفيت من الخطأ في الحكم على الباطن والسرائر ...

ونحن إذا مددنا ظنوننا إلى القلوب والضمائر ، فنحن ننازع الله تعالى في علمه بما تخفى الصدور ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ [غافر: ١٩] وهناك فرق بين المخلوق والخالق، وهو ما علّمه النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة رضى الله عنه وعموم الأمة في هذا الحديث ...

هدانا الله تعالى ومن سلك هذا السبيل إلى التزام الجادة ، والعصمة من إهدار حقوق الكلمة ، وحفظ أخوة الإسلام والمسلمين ، وعصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم وتعظيم ذلك في كل حين... آمين.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه العظيم بالتحقق والتبين ، وحفظ حقوق الكلمة وعصمة المسلمين والتي قال فيها أبو عبيدة رحمه الله « **جعل الله هذه الكلمة أمنة للمسلم وعصمة ماله ودمه** »[1] ...

حيث قال عز ثناؤه في سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا**﴾.

والتي دعى في سبب نزولها النبي صلى الله عليه وسلم على من ضيّع عصمة الكلمة وقال له: « لا غفر الله لك ».

وهو ما ورد في فتح القدير ج١ ص٥٠٢ حيث قال رحمه الله: أخرج ابن أبي

(1) المطالب العالية ح(٢٩٤١)، إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ح(١٠٦).

شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحرث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس الليثي فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع ورطب من لبن فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة لشيء كان بينه وبينه فقتله وأخذ بعيره ومتيعه فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ...﴾ الآية وفي لفظ عند ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث أبي حدرد هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمحلم أقتلته بعدما قال آمنت بالله فنزل القرآن.

وأخرج بن جرير من حديث ابن عمر أن محلما جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال: لا غفر الله لك فقام يتلقى دموعه ببرديه فما مضت به ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا ذلك له فقال إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ثم طرحوه في جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾** الآية.

وها هو الإمام البيضاوي رحمه الله يوضح في تفسيره الأحكام الجليلة لهذه الآية ومعاتبة الله عز وجل لمن لم يرع حقوق الكلمة في ج ٢ ص ٢٣٧ ، حيث

قال رحمه الله: ( كذلك كنتم من قبل) أي أول ما دخلتم في الإسلام تفــوهتم بكلمتي الشهادة فحصنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يعلم مواطأة قلوبكم ألسنتكم فمنَّ الله عليكم بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين فتبينوا وافعلــوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم ولا تبادروا إلى قتلهم ظنا بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفا فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم » انتــهى كلام الإمام البيضاوي.

ونختم بكلام ناصر الحديث الإمام الشافعي رضي الله عنه وهو يقرر في «كتابــه الأم » ج١ صفحة ٢٩٧ أن أحكام الله وأحكام رسوله تدل على أنه ليس لأحد أن يحكم على أحد إلا عن طريق الظاهر ، وهذا الظاهر يكون عن طريق الإقرار أو بقيام البينة فقال رضي الله عنه: « وأحكام الله ورسوله تدل على أنه لــيس لأحد أن يحكم على أحد إلا بظاهر والظاهر ما أقر به أو ما قامت به بينة تُثبت عليه ، فالحجة فيما وصفنا من المنافقين ، وفي الرجل الذي استفتى فيه المقــداد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قطع يده على الشرك ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم ( فهلا كشفت عن قلبه ؟ ) يعني أنه لم يكن له إلا ظــاهره ، وفي ( قول النبي صلى الله عليه وسلم في المتلاعنين إن جاءت به أحمر كأنه وَحَرَة فــلا أراه إلا قد كذب عليها ، وإن جاءت به أدعج جعدا فلا أراه إلا قــد صــدق فجاءت به على النعت المكروه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمره لبين لولا ما حكم الله )١ وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إنما أنــا بشــر وإنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وأقضي لــه على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ به فإني إنمــا

أقطع له قطعة من النار )٢ ( قال الشافعي): ففي كل هذا دلالة بينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يقضي إلا بالظاهر والحكام بعده أولى أن لا يقضوا إلا على الظاهر ، ولا يعلم السرائر إلا الله عز وجل والظنون محرم على الناس ، ومن حكم بالظن لم يكن ذلك له والله تعالى أعلم » انتهى كلام الإمام الشافعي.

وقد نهى الله تعالى عن اتباع ما لا دليل عليه ، وما ليس عليه برهان وأمر بالتثبت والتحري والتبين في الأنباء والأخبار، ومن باب أولى في آيات القرآن وحديث المصطفى العدنان صلى الله عليه وسلم، كل ذلك حفظا للروابط والأواصر بين المؤمنين، ورعاية لأسس المعاملات والمعاشرات بين المسلمين..

نقولها في نهاية الأمر.. لمن وصف الدعاة الموحدين، بأن عقيدتهم عقيدة المشركين ، لأنهم يتعلمون في دعوتهم أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، ويثبتون لله تعالى صفاته ، مع انهم يتعلمون أيضًا فى دعوتهم ألايسألوا الا إياه ، وألا يستعينوا بسواه ولا يتوجهوا الا نحوه ، ولا يتوكلوا إلا عليه ، ولا يقصدوا غيره ...

وهو ما قرره العلامة الزرقاني في مناهل العرفان ج ١ ص ٢١٩ حيث قال رحمه الله تعالى:« إن الله تعالى أمر في محكم كتابه بالتثبت والتحري وحذر من الطيش والتسرع في الأنباء والأخبار بله القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فقال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ [الحجرات: ٦]، وكذلك نهى الله عن اتباع ما لا دليل عليه إلا أن تسمع الأذن أو ترى العين أو يعتقد القلب عن

برهان فقال عز من قائل ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصـــر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾.

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكفي فيه الظن فقـــال الله جل شأنه ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا** ﴾ [النجم: ٢٨] إلى غير ذلك من أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تأمر بالنظر »انتهى كلام العلامة الزرقانى

فالعلم إنما هو للتحقيق، فإذا جاء معه الصدق رزق صاحبه الامتثال والطاعـــة، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والغفلة، والإنسان إذا نظر إلى المخلوق دون الخالق يقل معه الإيمان درجة تليها درجة، ففي كل عمل يريد الإنسان أن يعمله يأتى أمر الله تعالى ويحضر المخلوق ، فاذا عظم الانسان أمر الله تعالى ،فالله عزوجل يسهل له أموره كلها، فلابد لنا أن نجتهد على إصلاح علاقتنا مع أوامر الله تعالى، حتى يزين قلوبنا بالإيمان...

والرسول ﷺ بعث على حين فترة من الرسل بعثًا نبويًا، وهذه الأمة المحبوبة مبعوثة بعثًا خيريًا تيسيرًا ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ "**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا** مُعسرين"

وكما أن الله تعالى جعل حفاظة الإنسان بالدين، جعل حفاظة هذا الـــدين بالدعوة إلى الله تعالى، وإذا جاء الدين في حياة أي مخلـــوق فهـــو أغلـــى مـــن السماوات والأرض، وإذا امتثل الإنسان لأوامر الله عز وجل وتشريعات الـــدين يصبح سيد المخلوقات، ويكون الكون كله في خدمته ومسخر لمنفعته ﴿ **وسخر**

**لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**

والذي يسير على طريق الله تعالى ونظامه الله عز وجل يسهل له كل شيء ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾

أما إذا خالفنا ترتيب الله تعالى ونظامه فكل شيء للإنسان يكون مشكلة لأنه مشي وفقًا لهواه غافلاً عن ذكر مولاه ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا** ﴾

نسأل الله تعالى أن يُحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأن يجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، وأن يؤلف بين قلوبنا ويصلح ذات بيننا، ويهدينا والمسلمين سبل السلام ، ونسأله خير المسألة وخير الدعاء وخير العلم وخير العمل وخير الثواب وخير الحياة وخير الممات...آمين والحمد لله رب العالمين

# آفَاتُ الْمُنَاظَرَةِ والْجَدَلِ
# وَشُرُوطُ إِبَاحَتِهَا

وعد نصره الله تعالى في الأشياء على حقائقها، لا على أسماءها أو صـــورها ،كلمة النار لفظًا أو قولاً لا قوة فيها، ولا إحراق ولا تأثير، أما إذا كانت النار حقيقية فالقوة فيها والإحراق والتأثير الهائل...

كذلك نحن إذا تلفظنا بالاستغفار وكلمـــة التوبـــة، لا يكـــون في توبتنـــا واستغفارنا الأثر والقوة اللازمين للتحصل على الموعود في حقائقهمـــا، أمـــا إذا توجهنا إلى الله تعالى وأنبنا إليه بحقيقة الاستغفار وحقيقة التوبة، هنالك يفتح الله عز وجل لنا أبواب النعم والعطايا في الدنيا والآخرة، ويمنحنا الكمالات والقـــوة والعزم على ألا نعود إلى المعاصي أبدًا...

وهذا يتحصل معنا في بيئة الدعوة، والمذاكرة عن عظمة الله تعالى وقدرته، ومحبته وقيوميته على عباده، فيأتي في القلوب عظمة أوامره، وكمـــال الامتثـــال والطاعة له، فنحن إذا عظمنا الآمر عز وجل بالحقيقة تتعظم فينا أوامره، فمجالس الإيمان وصحبة الصالحين، بهما نتحصل علـــى التوبـــة والندامـــة، والاســـتغفار الحقيقي...

وهما نعمة عظيمة، والإنسان قد يكون عنده معلومات كثيرة، ولكن العمل معه مفقود، فالعلم يجري منه على اللسان، والأعمال ضائعة، كذلك الخشية غير موجودة بل الصولة والتعظم على الأنام، والخوف ممن كان هذا حاله على عموم أمة الإسلام....

والنبي صلى الله عليه وسلم كان أعلم الناس، وأتقى الناس، وهو رحمة الله للعالمين، ومع ذلك كان أخشى البشر أجمعين، وأقتضى العلم معه صلوات ربي وسلامه عليه الخشية لله تعالى، والإنابة في كل حال ومقال...

فإذا هاجت الريح يفزع صلى الله عليه وسلم إلى الدعاء فيقول: « **اللهم إني أسألُك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أرسلت به** »[1].

وإذا سمع الرعد يزمجر يفزع متبتلا إلى مولاه فيقول « **اللهم لا تقتُلْنا بغَضَبِكَ ولا تُهلكْنَا بعَذَابِكَ، وعافِنا قبلَ ذَلك** »[2].

وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر يوجه أصحابه رضي الله عنهم إلى الابتهال إلى الله عز وجل لكشف ذلك فيقول لهم: « **فادعُوا الله وكَبِّرُوا وصَلُّوا وتصَدقُوا** »[3] ويخاف صلى الله عليه وسلم ويتوجه إلى المسجد للصلاة.

وهذا عمر رضي الله عنه وهو الخليفة الراشد، والفاروق الذي فرق الله تعالى به بين الحق والباطل، والملهم الذي تتكلم الملائكة على لسانه يسأل سيدنا حذيفة رضي الله عنه، هل اسمه مع أسماء المنافقين الذين ذكرهم له النبي صلى الله عليه

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم ح٢٢/٢.

(2) سنن الترمذي باب ما يقول إذا سمع الرعد ح(٣٤٥٠) ومستدرك الحاكم ح(٧٧٧٢) سنن البيهقي الكبرى باب ما يقول إذا سمع الرعد ح(٦٢٦٢)، سنن النسائي باب ما يقول إا سمع الرعد والصواعق ح(١٠٧٦٤).

(٣) مستدرك الحاكم كتاب الكسوف ح(١٢٣٤).

وسلم فيقول له: « هل اسمي مع أسمائهم » وأبو بكر رضي الله عنه يقول: لا آمنُ مكر الله وإن كانت إحدى قدميَّ في الجنة.

ولقد عاتب الله تعالى بعضًا من خلقه بقوله عز وجل ﴿ **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ [الأعراف: ٩٩] ووصف سبحانه وتعالى عباده الذين نسبهم إليه وارتضى صفاتهم لديه بقوله ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴿٦٣﴾ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ [الفرقان] أخلاقهم طيبة وعبادتهم طيبة، والذي يمدحهم هو الخالق عز وجل لا المخلوق، ورغم هذا الخوف دأبهم، والخشية وصفهم ولسانهم التضرع والإنابة، ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** ﴿٦٥﴾ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴿٦٦﴾ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴿٦٧﴾ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ولا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان] لذلك هذه الدعوة المباركة إذا أرد أهلها النصح فهم يتهمون أنفسهم أولا، ويمدحون الآخرين، ولا ينظرون إلى عيوب الناس، بل ينظرون إلى محاسنهم، فعمل الدعوة هو مناولة بالمحاسن، يبغضون المعصية ويكرهونها، ولكن لا يكرهون صاحبها، بل يحبون توبته وإنابته، يكرهون صفته ولا يكرهون ذاته، ويبغضون من تتبع العاصي لأنه يشيع الفاحشة، ولأن المستتر بالمعصية عنده حياء إيماني، لسنا مطالبين بإظهاره، ورفع الحياء فيه...

فلا يفهم الإنسان أنني صاحب العلم والتحقيق، والمتحدث بلسان الشـــرع الحنيف، وصاحب المجلس الكبير، والصوت الجهير، فيقول لهؤلاء أنتم فيكم عيب كذا، ولهؤلاء أنتم عندكم مخالفة كذا، وقد يكون الحق علـــى خـــلاف قولـــه والعجب يصرخ من أطرافه، ويقفز من فيه، وقد قال الله تعالى مؤدبًا لأهل الإيمان ﴿فلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

وقد يُقيم الإنسان نفسه مُقَعِّدًا ومؤصِّلا للآخرين، ومناظرا عن مسائل الدين، يزعم أن غرضه من المناظرات كشف اللثام عن الحق، والتعاون على طلبه، لأنـــه أوجب واجبات الدين، والذب عن أحكام المسلمين، والنضال عن السنة، وقمع المبتدعين، وقد تكون الفكرة التي ينشرها أعظم ضررًا، وأخطر شررا، وأن مـــا يذمه هو الممدوح بيقين، من أئمة السنة الثقات المجتهدين ، و لم يدر أنه لا يكون على الوصف الذي يدعيه إلا إذا كانت هذه المناظرات على بابها، متحققة فيهـــا أركانها وشروطها، وسننها ومقاصدها...

وقد ذكر لها الإمام الغزالي ثمانية شروط وعلامـــات في الإحيـــاء في ج١ ص٤٩ تبين وتظهر من يناظر لله تعالى ومن يناظر لِعلّة ، ينبغي لكل قائم في هذا الباب ألا يغفل عنها، وأن يعتني بها، وإلا فالزلل والإغواء، وطلب المدح والثنـــاء واستتباع المتبوعين هي شهوة هؤلاء المغترين فقال رحمه الله تعالى:

[بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف].

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا مـــن المنـــاظرات المباحثة عن الحق ليتضح فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد

الخواطر مفيد ومؤثر هكذا كان عادة الصحابة رضي الله عنهم في مشـــاوراتهم كتشاورهم في مسألة الجد والأخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفًا من عمر رضي الله عنه وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحســـن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى ويطلعك علـــى هـــذا التلبيس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شـــروط وعلامات ثماني. **الأول:** أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصـــيل الثيـــاب ونسجها ويقول غرضي أستر عورة من يصلي عريانًا ولا يجد ثوبًا فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنـــها البحـــث في الخلاف ممكن والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه ردّ وديعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به فلا يكفي في كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات ما لم يرع فيه الوقت والشروط والترتيب)[1] انتهى كلام الإمام الغزالي.

**أقول:** من هذا الباب قيام أهل التبليغ للدعوة إلى العمل بالأركان وفـــرائض العين في أنفسهم أولا ثم في عموم المسلمين، والمناظر لا يعبأ بهـــم، ولا يلتفـــت لعملهم تحقيرا وتصغيرا، ظنا منه أن ما هو فيه من طلب التوسع في غريب المسائل

(1) لأنه بإحرامه بالصلاة يؤخر رد الوديعة التي حلَّ وقتها وحكمها الرد على الفور.

الكلامية، والمحاورات الجدلية، هو أولى وأجدى مما يقومون به ويحرصون عليه، ومن هذه الفرائض العينية تعلم وتلقين التلفظ بالكلمة والشهادة، ومعرفة حقيقة اليقين الصحيح عليها، في غالب بلاد العجم، غير الناطقين باللسان العربي المبين، والذين يمثلون أغلبية في عدد المسلمين، والذي يمثل معهم هذا الواجب تعذراً وثقلا شديدين، كذلك تعلم الطهارة والوضوء للصلاة عمليا عن طريق المحاكاة، وفقا لسنة سيد المرسلين في ذلك، وتعلم فرائض الصلاة وأركانها عمليا، ابتداءً من الفاتحة تلقينا وحفظًا، حتى التشهد الأخير في الصلاة تلقينا ومدارسة، وعلم فرائض العين في الواجبات المشهورة الوقوع على القرب، وهى المعروفة بعلم الحال.

هذا في عموم وبسطاء الأمة، الذين لا قدم لهم وثيقة في علوم الشرع أو الدين، وليس لهم إقبال على مجالس العلم، أو العلماء المتخصصين، فهم على هذا ضائعون مهملون مهمشون، لا يد حانية تمتد إليهم نصحا وشفقة وحرصا إلا هذا السبيل، من الدعاة المتطوعين، الذين وصلوا إليهم في غفلتهم، وتحدثوا إليهم بلسانهم، وحملوهم بعون الله وتوفيقه إلى كنف الطاعة والدين، عن طريق التلقين والتدريب وعلم الترغيب والفضائل، فقيمة عملهم هذا بقيمة من يخدمه من عموم الأمة، وما يغطيه من أفرادها فكم هي نسبة المرتبطين بالصلوات الخمس في الجماعة في المسجد، من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، وكم هم الذين في خارج المسجد، بعيدين عن تلبية النداء بالصلاة من المسلمين، النسبة كبيرة، وهؤلاء المتخلفين عن المسجد، ليس لهم من يخرج إليهم إلا هؤلاء الدعاة المحتسبين، الذين هم الآن حاجة وضرورة العامة، من بسطاء أمة سيد المرسلين صلى الله عليه

وسلم، فيجعلهم الله تعالى بحسن مقاصدهم وجهودهم معهم سببًا للهداية، ويتحولون بنية نصحهم والحرص عليهم، إلى تعظيم أوامر الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، والله تعالى بمنته وفضله على هؤلاء الدعاة، مع بذلهم للنفس والمال وتفريغ الأوقات من أجل هذه المقاصد، يبعث فيهم وفي عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم الطاعة وأعمال الإيمان، ومع هذه الطاعة تتكون التقوى في القلوب.

وهذا أحد الأمثلة على ذلك: (فعندما خرج أهل الدعوة قبل ثلاثين عامًا إلى إحدى البلاد، وبدأوا في أعمال الدعوة، قال لهم أحد العلماء من أهل تلك البلاد بعد أن نظر في أعمالهم خلال ٢٤ ساعة، يا إخواني، أنتم لا تظنوا أن التبليغ والدعوة هو كلامكم، ولكن هو أفعالكم، فالتأثير ليس في لسانكم ولكن في أعمالكم) انتهى.

وقد صدق رحمه الله لأن الإنسان إذا أقام نفسه داعيًا إلى الله تعالى، فإنه يكون سببًا لتعظيم الله تعالى بين خلقه فالله عز وجل يهديه هو أولا، مثل الصحابة رضي الله عنهم، ويؤتيه الإيمان والتقوى ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٧] والتقوى أساس كل الخيرات، وهي الخوف والحذر، وبالتقوى ختم الله تعالى كتابه في آخر آية نزلت من القرآن حيث قال عز وجل ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ وبالتقوى يتغير حال الإنسان من جانب المعصية إلى جانب الطاعة، لذلك نرى كثيرًا من الناس عندما يخرجون في سبيل الله، مع مصاحبتهم لأعمال

الدعوة تكون هذه الأعمال سببًا في تحصلهم على الإيمان والتقوى، ونجد أن الإيمان بعد ذلك يحرضهم على فعل الخير، والتقوى تحفظهم من الشرور والمعاصي وتفتح عليهم بركات السماء والأرض﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

ثم شرع الإمام الغزالي في بيان الشرط الثاني من شروط المناظرة التي هي لطلب الحق حيث قال رحمه الله تعالى:

**الثاني:** أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها. فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعًا ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر في مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسًا ومفروشًا وهو ساكن ويناظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من

الفقهاء. ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات وقد روى أنس رضي الله عنه أنه « قيل يا رسول الله، متى يُترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فقال عليه السلام: « **إذا ظهرت المداهنة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفقه في أرازلكم** »[1].

**أقول:** ومن الأمثلة الواضحة على ذلك هذا المناظر، الذي كان يشغب على المتجولين في خارج المسجد من أهل الدعوة، الذين يذهبون إلى الغافلين عن المسجد وعن الصلاة من المسلمين، وذلك بقوله: « عملكم هذا ليس بمشروع، بل مردود في الدين وممنوع، ومحدث وزور وغرور، وعندما قال له أحد الدعاة الذين كان يخاطبهم، إذن قل لنا بربك هؤلاء الذين هم خارج المسجد في الحانات، والمقاهي والغفلة والمخالفات، والبعيدين عن الله تعالى والصلوات، كيف كنت ستدعوهم أنت؟...

إذا كانت طريقتنا هذه في التجول عليهم بدعة وضلالة....!

فأجابه منفعلا متجهمًا: « أنا ليس لي دعوة » ...

وظن أنه قد ألزم الآخرين خطأً، وهو في ذات الوقت من المحسنين، في تقصيره ذلك، وتفريطه في النصح والحرص على إخوانه المسلمين، ومع أن صفته على خلاف سنة سيد المرسلين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وهو لا يدري يحسب أنه من الناجين....

---

(١) حديث أنس قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحديث ابن ماجة بإسناد حسن. شعب الإيمان للبيهقي بنحوه ح(٧٥٥٥).

وكمال الاتباع والتوحيد والسنة، لا يتحقق معه إلا بأن يكون له دعوة لهذ الدين، وسبيلا ونصحا للمؤمنين ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

فالدعوة إلى الله تعالى هي فطرة الإيمان، ويأبى الإيمان إلا أن يدعو إلى الخالق، وكل الذين أسلموا على يد النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة رضي الله عنهم، قاموا وعظموا خالقهم ومعبودهم أمام جميع المخلوقين، آناء الليل وآناء النهار، وتفصيل ذلك بأدلته له موضع آخر من بحثنا هذا بإذن الله تعالى ومشيئته.

ثم قال الإمام الغزالي رحمه الله وهو يبين الشرط الثالث من شروط المناظرة:

**الثالث:** أن يكون المناظر مجتهدًا يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافقه رأي الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه فأي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره وما يشكل عليه يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبي جوابًا عن هذا فأني لست مستقلا بالاجتهاد في أصل الشرع ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط...بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا.

**الرابع**: أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالبًا فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الأخبار أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام. والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول.

**الخامس**: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أو مبطلا وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدمة أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام.

**السادس**: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينًا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقًا في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته

في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح بـــه فهكـــذا كانـــت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس فقال أصابت امرأة وأخطـــأ رجل. وسأل رجل عليا رضي الله عنه فأجابه فقال ليس كذلك يا أمير المـــؤمنين ولكن كذا وكذا فقال أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم. واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال هو في الجنة وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال أعده علـــى الأمير فلعله لم يفهم فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود وأنا أقـــول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة فقال أبو موسى الحق ما قال وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسودّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يخجل بـــه وكيف يجتهد في مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق.

**السابع:** أن لا يمنع معينة في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال فهكذا كانت مناظرات السلف ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله هذا لا يلزمني ذكره وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصله بعلة يظنها

فيقال له ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة فيقول هذا ما ظهر لي فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذا لا يلزمني ذكرها ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمني كذب على الشرع فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها وإن كان صادقًا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويًا رجع إليه وإن كان ضعيفًا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله لا يلزمني أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمني وإلا فهو لازم بالشرع فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضي الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه.

**الثامن:** أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفًا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعًا في ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن

في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلـــة. واعلـــ
بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستولي على قلبه وهو أعدى عدو له و لا
يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب
أو مساهم للمصيب في الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين ولـــذلك
شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعددها ونذكر تفاصيله
فنسأل الله حسن العون والتوفيق.

## بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهـــار الفضـــل
والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي
منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس ونســبتها إلى
الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه
وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقـــذف والقتـــل
والسرقة وكما أن الذي خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم
عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليـــه
حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلـــك إلى إضـــمار
الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة وهذه الأخلاق ستأتي
أدلة مذمتها من الأخبار والآيات ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المنـــاظرة
فمنها الحسد. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **الحسد يأكل الحسنات**

**كما تأكل النار الحطب»** [1].

ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يُغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره فمادام يبقى في الدنيا واحد يُذكر بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلامًا وأقوى نظرًا فلابد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه والحسد نار محرقة فمن بلى به فهو في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة.

ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « **من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله»** [2]**وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»** [3].

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبي هريرة وقال البخاري لا يصح وهو عند ابن ماجة من حديث أنس بإسناد ضعيف وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن. سنن أبي داود باب في الحسد ح(٤٩٠٥) سنن ابن ماجه باب الحسد ح(٤٢١٠)، شعب الإيمان ح(٦٦٠٨).

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ح(٣٣٥) و الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال غريب من حديث الثوري ولابن ماجة نحوه من حديث **أبي سعيد بسند** حسن.

(٣) سنن أبي داود باب ما جاء في الكبر ح(٤٠٩٢) سنن ابن ماجه باب البراءة من الكبر والتواضع ح(٤١٧٤). بنحوه في مستدرك الحاكم ١٢٩/١ ح(٢٠٣)، شعب الإيمان ح(٨١٥٧) صحيح ابن حبان باب التواضع والكبر والعجب ح(٥٦٧١).

ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيــه في الارتفــاع والانخفــاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضايق الطــرق وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم « **وأن المــؤمن منهي عن الإذلال لنفسه**»[1].

فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقــوت عند الله بعز الدين تحريفا للاسم وإضلالا للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلــم وغيرهما.

ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه. وورد في ذم الحقد ما لا يخفى ولا تــرى مناظرا يقدر على أن لا يضمر حقدًا على من شاهد رأسه من كلام خصمه ويتوقــف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المســتمعين علــى تــرجيح كلامــه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر.

**ومنها الغيبة** وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابرا على أكل الميتة فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه

---

(١) سنن الترمذي ح(٢٢٥٤)، سنن ابن ماجه باب قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ ح(٤٠١٦)، مسند أحم٢٣٤٩١).

عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض من كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة.

**ومنها تزكية** النفس قال الله تعالى- ﴿**فلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ وقيل لحكيم ما الصدق القبيح؟ فقال ثناء المرء على نفسه ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم بالفضل على الأقران ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله لست ممن يخفي عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعًا وعقلا.

**ومنها التجسس** وتتبع عورات الناس وقد قال تعالى - ﴿ولا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به

إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم .

**ومنها الفرح** لمساءة الناس والغم لمسارهم ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسرُّه لا محالة ما يسوءُ أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرا تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانًا ماردا أو سبعا ضاريًا فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السراء والضراء حتى قال الشافعي رضي الله عنه: العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيهات هيهات وناهيك بالشر شرًّا أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين.

**ومنها النفاق** فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداء بمكانهم وأحوالهم ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور فإنهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه.

**ومنها الاستكبار** عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلامًا إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل.

قال صلى الله عليه وسلم « **من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة**»[1] وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذبًا وبين من كذب بالحق فقال تعالى — ﴿ **ومن أظلم ممن افترى عل الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه** ﴾ [الزمر: ٣٢] — وقال تعالى ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ**﴾

**ومنها الرياء** وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم.

والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر كما سيأتي في كتاب الرياء، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه، فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ

---

(١) رواه أبو داود باب في حسن الخلق ح(٤٨٠٢) سنن الترمذي باب المراء ح(١٩٩٣)، سنن ابن ماجه باب اجتناب البدع والجدل ح(٥١).

باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح فإن أولئـــك ليســوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشرة نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هـــو ظـــاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطـــول بـــذكرها وتفصـــيل آحادها مثل الأنفة والغضب والبغضاء والطمع وحب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة والمباهاة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتـــردد إلـــيهم والأخذ من حرامهم والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة والاســـتحقار للناس بالفخر والخيلاء والخوض فيما لا يعني وكثرة الكلام وخـــروج الخشـــية والخوف والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم دينًـــا وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤهـــا ومجاهـــدة النفس بها. واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضًا إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهي لازمة أيضًا للمشـــتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة

فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: « **أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه** »[1].

فقد ضره مع أنه لم ينفعه وليته نجا منه رأسا برأس وهيهات هيهات فخطر العلم عظيم وطالبه طالب الملك المؤبد والنعيم السرمد فلا ينفك عن الملك أو الهلك وهو كطالب الملك في الدنيا فإن لم يتفق له لإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال.

فإن قلت في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذا لولا حب الرياسة لاندرست العلوم فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ولولا حب الرياسة لاندرس العلم ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم: « **إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم** »[2] وقال صلى الله عليه وسلم « **إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر** »[3] فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضمر قصد

---

(1) رواه الدارمي باب العمل بالعلم وحسن الفهم فيه ح (٢٦٢) البيهقي في شعب الإيمان ح(١٧٧٨)، مسند الشهاب ح(١١٢٢).

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح وقد سبق تخريجه.

(٣) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد سبق تخريجه.

الجاه فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها فالعلماء ثلاثة إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهرًا وباطنًا وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل). انتهى باختصار كلام الإمام الغزالي.

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري في كتابه أخلاق العلماء في باب أوصاف العلماء الذين نفعهم الله بالعلم في الدنيا والآخرة، عند ذكر « صفة مناظرة هذا العالم إذا احتاج المناظرة »:

« فإن قال قائل فإن احتاج إلى علم مسألة قد أشكل عليه معرفتها لاختلاف العلماء فيها لا بد له من أن يجالس العلماء ويناظرهم حتى يعرف القول فيها على صحته وإن لم يناظر لم تقو معرفته.

قيل له بهذه الحجة يدخل العدو على النفس المتبعة للهوى فتقول إن لم تناظر وتجادل لم تفقه فيجعل هذا سببًا للجدل والمراء المنهي عنه الذي يخاف منه سوء عاقبته الذي حذرناه النبي صلى الله عليه وسلم وحذرناه العلماء من أئمة المسلمين

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « **من ترك المراء وهو صادق بنى**

**الله له بيتا في وسط الجنة »**[1].

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول: «**إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم وبها يبتغي الشيطان زلته »**[2].

وعن الحسن قال: « ما رأينا فقيها يماري » وعن الحسن أيضًا قال: « المؤمن يداري ولا يماري ، ينشر حكمة الله فإن قبلت -حمد الله وإن ردت حمد الله »[3].

وروي عن معاذ بن جبل أنه قال: « إذا أحببت أخا فلا تماره ولا تشاره ولا تمازحه » [رواه أبو نعيم في ترجمة جبير بن نفير من « الحلية » بسنده عن معاذ ابن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أحببت رجلا فلا تماره ولا تجاره ولا تشاره ولا تسأل عنه فعسى أن توافق له عدوًا فيخبرك بما ليس فيه

---

(1) سبق تخريجه .

(٢) رواه أبو نعيم في ترجمة مسلم بن يسار من (الحلية) ورواه الإمام الآجري في "باب ذم الجدال والخصومات في الدين" من كتابه الشريعة. سنن الدارمي باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ح (٣٩٦)، الزهد لأحمد بن حنبل ص٢٥١.

(٣) روى معنى هذين الأثرين عن الحسن نعيم بن حماد في زوائده على ما رواه المروزي عن ابن المبارك في كتاب الزهد قال ابن المبارك أنا سفيان بن عيينة قال أنا رجل قال قيل للحسن في شيء قاله يا أبا سعيد ما سمعت أحدا من الفقهاء يقول هذا قال وهل رأيت فقيها قط إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة الدائب في العبادة قال وما رأيت فقيها قط يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فإن قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله" ورواه الحافظ ابن بطة في مقدمة رسالته في إبطال الحيلة في إسقاط الطلاق المعلق بالخلع.

فيفرق ما بينك وبينه »[1] قال أبو نعيم بعد روايته هكذا « غريب من حديث جبير بن نفير عن معاذ متصلا وأرسله غير ابن وهب عن معاوية ».

قال محمد بن الحسين (أي الإمام الآجري): وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس.

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل** »[2].

فالمؤمن العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء.

فإن قال قائل فما يصنع في علم قد أشكل عليه. قيل له إذا كان كذلك وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه. قصد إلى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله ممن يرتضي علمه وفهمه وعقله فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة وأعلمه أن مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق وليست مناظرة مغالب ثم ألزم نفسه الإنصاف له في

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد ١/١٩١ ح(٥٤٥) موقوفًا على معاذ بن جبل وأبو نعيم في الحلية ١٣٦/٥.

(٢) رواه المؤلف « الآجري » في باب « ذم الجدل والخصومات في الدين » من كتابه الشريعة بسنده عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ضل قوم بعدي إلا أوتوا الجدل ثم تلا هذه الآية « **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** » ورواه ابن ماجه في « باب اجتناب البدع والجدل » من سننه من طريق الحجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم. والحديث في سنن الترمذي سورة الزخرف ح(٣٢٥٣) سنن ابن ماجه، باب اجتناب البدع والجدل ح(٤٨)، مستدرك الحاكم ح(٣٦٧٤)، شعب الإيمان للبيهقي فصل في الحلم والتؤدة والرفق في الأمور ح(٨٤٣٨)، مسند أحمد ح(٢٢٢١٨).

مناظرته وذلك أنه واجب عليه أن يحب صواب مناظره ويكره خطأه كما يحب ذلك لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ويعلمه أيضًا إن كان مرادك في مناظرتي أن أخطئ الحق وتكون أنت المصيب ويكون أنا مرادي أن تخطئ الحق وأكون أنا المصيب فإن هذا حرام علينا فعله لأن هذا خلق لا يرضاه الله منا وواجب علينا أن نتوب من هذا. فإن قال فكيف نتناظر قيل له مناصحة. فإن قال كيف المناصحة أقول له لما كانت مسألة فيما بيننا أقول أنا إنها حلال وتقول أنت أنها حرام فحكمنا جميعًا أن نتكلم فيها كلام من يطلب السلامة مرادي أن ينكشف لي على لسانك الحق فأصير إلى قولك أو ينكشف لك على لساني الحق فتصير إلى قولي مما يوافق الكتاب والسنة والإجماع فإن كان هذا مرادنا رجوت أن تحمد عواقب هذه المناظرة ونوفق للصواب ولا يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب.

ومن صفة هذا العالم العاقل إذا عارضه في مجلس العلم والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرته للجدل والمراء والمغالبة لم يسعه مناظرته لأنه قد علم أنه إنما يريد أن يدفع قوله وينصر مذهبه ولو أتاه بكل حجة مثلها يجب أن يقبلها لم يقبل ذلك ونصر قوله. ومن كان هذا مراده لم تؤمن فتنته ولم تحمد عواقبه.

ويقال لمن مراده في المناظرة والمغالبة والجدل أخبرني إذا كنت أنا حجازيا وأنت عراقيا وبيننا مسألة على مذهبي أقول أنا أنها حلال وعلى مذهبك أنها حرام فسألتني المناظرة لك عليها وليس مرادك في مناظرتك الرجوع عن قولك والحق عندك أن أقول فيها قولك وكان عندي أنا أن أقول وليس مرادي في مناظرتي الرجوع عما هو عندي وإنما مرادي أن أرد قولك ومرادك أن ترد قولي فلا وجه

لمناظرتنا فالأحسن بنا السكوت على ما تعرف من قولك وعلى ما أعرف من قولي وهو أسلم لنا وأقرب إلى الحق الذي ينبغي أن نستعمله فإن قال وكيف ذلك قيل لأنك تريد أن أخطئ الحق وأنت على الباطل ولا أوفق للصواب ثم تسر بذلك وتبتهج به ويكون مرادي فيك كذلك فإذا كنا كذلك فنحن قوم سوء نوفق للرشاد وكان العلم علينا حجة وكان الجاهل أعذر منا.

قال محمد بن الحسين (أي الإمام الآجري): وأعظم من هذا كله أنه ربما احتج أحدهما بسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خصمه فيردها عليه بغير تمييز كل ذلك يخشى أن تنكسر حجته حتى أنه لعله أن يقول بسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة فيقول هذا باطل وهذا لا أقول به فيرد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه بغير تمييز ومنهم من يحتج في مسألة بقول صحابي فيرد عليه خصمه ذلك ولا يلتفت إلى ما يحتج عليه كل ذلك نصرة منه لقوله لا يبالي أن يرد السنن والآثار.

قال محمد بن الحسين: «من صفة الجاهل الجدل والمراء والمغالبة ونعوذ بالله ممن هذا مراده. ومن صفة العالم العاقل المناصحة في مناظرته وطلب الفائدة لنفسه ولغيره كثر الله في العلماء مثل هذا ونفعه بالعلم وزينه بالحلم».انتهى.

**أقول:** والمعترضون على أهل الدعوة من طلبة العلم، تحركوا من أصل صحيح وهو المحافظة على السنة ومعاداة مخالفها، وهم في هذا تمسكوا بظواهر بعض النصوص وأهملوا سائرها، وعمموا خاصها وقيدوا بعض مطلقها على غير دليل، فأنتج ذلك معهم أنهم اصطدموا بقواعد الأحكام، وخالفوا مقاصد الشريعة التي

تأصلت بما لا يحصى من نصوص، في حفظ حقوق المسلمين ومحبتهم وموالاتهم الموالاة التامة، وذلك عملا ببعض الظواهر التي بين أيديهم، مع عدم التقعيد والتأصيل لكثير من المسائل التي يتكلمون فيها، وأطلقوا الثلب والطعن في عموم المخالفين، بزعمهم أنهم مبتدعون وأنهم أعداء للسنة، فمعاداتهم واجبة والتنفير منهم والتحذير لازم، انتصارا لسنة سيد المرسلين، وتنقية للعبادات مما يخالفها...

وها أنا أسرد لك واقعة، حدثت مع ثلاثة من طلبة العلم في إحدى البلاد ، كمثال يصدق على أغلب المسائل التي يثيرونها، ويفتعلون الصدامات والمواجهات والحوارات حولها، رغم ما ينشأ وينتج عن ذلك من قطع ذات البين بين المؤمنين، ونشر التنابز والشقاق والعداء بين المسلمين، وقد جاء هؤلاء الأخوة بعد انتهاء الصلاة وكنت أنا الإمام فيها وسألوني: فضيلة الشيخ ألستم تدعون إلى الله تعالى؟

قلت له: بلى.

قالوا: وتدعون إلى التمسك وإتباع سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم؟

قلت: نسأل الله تعالى أن نكون كذلك.

قال أحدهم: فلم تخالفونها وأنتم قدوة أمام الناس، والناس يتبعونكم في ذلك.

قلت له: في أي شيء هذه المخالفة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: أنتم تصلون معنا الصلوات، وبعد التسليم تقومون بالدعاء بعد كل صلاة، وهذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا وراء كل صلاة، فهو

عمل مردود مبتدع لأنه « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهـــو رد** »[1]، كذلك ترفعون أيديكم عند الدعاء خلف الصلوات وهذه بدعة، فلم يرد عـــن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رفع يديه عند الدعاء بعد الصلوات، كما أنكم بعد الدعاء ورفع اليد، والانتهاء من ذلك، تمسحون وجهكم بأيديكم والحديث فيها ضعيف، والأحكام لا يعمل فيها إلا بما صح وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ،والناس ينظرون إليكم في كل ذلك، فيتبعونكم في هذه الأمور المخالفة للســـنة على غير بصيرة، والدين النصيحة فنرجو أن تقبلوا نصيحتنا في ذلك، خاصة لمـــا نعلم عن الخلفية العلمية التي تنتسبون إليها، فهل نطمع أن تجيبنا على هذه الثلاثة أشياء ومدى مشروعيتها وسنيتها.

قلت له: جزاكم الله خيرًا لحسن ظنكم بنا ولا شك أن الدين النصيحة، ونحن ما أتينا إلا للتناصح، والتكاتف على خدمة ديننا، ونشر شريعتنا، وتقديس ملتنا، ولكني أسألكم سؤالا؟

قالوا: وما هو؟

قلت: إلى أي شيء سوف نحتكم نحن وأنتم إذا اختلفنا في أمر من الأمور، أو مسألة من المسائل العلمية؟.

قالوا: إلى الكتاب والسُّنَّة.

---

(1) صحيح البخاري باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ح(٢٥٥٠) صحيح مسلم باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ح(٤٥٨٩) .

قلت: وأنا أضيف إليهما الإجماع والقياس، وهي الأربعة مصادر المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة.

قالوا: نوافقك على ذلك.

قلت: على شرط واحد. قالوا: وما هو؟

قلت: لا يذكر في هذا المجلس أي أسماء، لأي من العلماء المعاصرين، أو لأشخاص معينين، حتى لا تنحرف معنا مقاصد طلب الحق في هذه المباحث، إلى أمور شخصية، أو عداوة ذاتية، مع أصحاب هذه الأسماء، وتعصب البعض لها، حتى قد تُرَدُّ بعض النصوص، لمخالفة بعض الأسماء اللامعة لها.

قالوا: لكم ذلك.

قلت: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما ما سألتم عنه في هذه الأمور الثلاثة، وأولها الدعاء خلف كل صلاة، وأن هذا مخالف للسنة فأنا عندي سؤال...

قالوا: وما هو؟

قلت: هل عندكم دليل على أن الدعاء خلف كل صلاة هو هيئة مبتدعة، مخالفة لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، أو هل عندكم دليل بالمنع من الدعاء خلف كل صلاة؟

قالوا: بل نحن الذين نطالب بدليل سُنِّيته ومشروعيته.

قلت: الأصل في الشرع أن البيِّنَة على المدَّعِي، وأنتم تَدَّعون عدم مشروعية ذلك، فأين البينة عندكم على هذا؟

قالوا: لا يحضرنا الآن دليل على عدم المشروعية إلا أن النبي صلى الله عليـه وسلم لم يكن يفعل ذلك، فهل هناك بينة على المشروعية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعله؟.

قلت: بلى عندي البينة والدليل، ولكني أردت أولا أن أقرر، أنه ليس عندكم أنتم وأنتم مُدَّعون بينة على دعواكم بالبدعية وعدم المشروعية، وهذا في حد ذاته خطر كبير لكونكم تدعون أشياء، ثم تلزمون الغير بإثبات دعـواكم أو نفيهـا، والأصل أن البينة على المدعي، وأنا أسألكم سؤالا هل كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بدعة وضلالة؟

قالوا: نعم.

قلت لهم: وما الدليل على ذلك.

قالوا: الحديث السابق « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** ».

قلت لهم: هذا خلاف دعواكم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل « **من أحدث في أمرنا فهو رد** » ولو قال كذلك لكانت دعواكم صحيحة، أن كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم فهو مردود على صاحبه مطلقًا حسنًا كان أو قبيحًا، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه** » أي أن المقصود بالرد والمتوجه إليه الدفع « **ما ليس منه** » أي من الدين ،

أي المخالف للكتاب أو السنة أو الإجماع أو قواعد الشرع، حيث أن **البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم**، وقد فسرها بذلك الإمـــام الزركشـــي في قواعده.

وروى الإمام البيهقي في معرفة السنن والآثار ج٤ ص٤٠٨ بسنده عن الإمام الشافعي أنه قال: والمحدثات من الأمور ضربان: (أحدهما) ما أحدث مخالفًا كتابًا أو سُنة أو أثرًا أو إجماعًا، فهذه البدعة الضلالة. (والثانية) ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا وهذه محدثة غير مذمومة.

وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام شهر رمضان: (نعمت البدعة هـــذه)١ يعني أنها محدثة لم تكن وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى » انتهى.

وانظروا إلى كلام أئمة الدين على أصول هذا الحديث في أبـــواب السُّـــنَّة والبدعة، ومنهم العلامة التفتازاني رحمه الله تعالى في إلهيات « شرح المقاصـــد » حيث قال رحمه الله بعد أن نعى على المبطلين، الذين ينسب أحدهما الآخـــر إلى البدعة، فقال مبينا حالهم: «حتى ربما جعلوا الاختلاف في الفروع أيضًا بدعـــة وضلالة، كالقول بحل متروك التسمية عمدًا، وعدم نقض الوضوء بالخارج مـــن غير السبيلين » انتهى.

ثم قال رحمه الله مبينا حالهم: «ولا يعرفون أن البدعة المذمومة هو المحدث في الدين من غير أن يكون في عهد الصحابة والتابعين ولا دل عليه الدليل الشرعي، ومن الجهلة من يجعل كل أمر لم يكن في زمن الصحابة بدعة مذمومة وإن لم يقم دليل على قبحه تمسكا بقوله عليه الصلاة والسلام: « **إياكم ومحدثات الأمور** »

ولا يعلمون أن المراد بذلك هو أن يجعل في الدين ما ليس منه » انتهى.

وانظروا إلى كلام الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ج١٦ ص٢٢٦ « باب من سن سنة حسنة أو سيئة » الحديث وفي الحديث الآخر « من دعا إلى هدى ومن دعا إلى ضلالة » حيث قال رحمه الله : قوله صلى الله عليه وسلم : «مَن سَنَّ سُنة حسنة ومَنْ سَنَّ سُنة سيئة» وفى الحديث الآخر« من دعا إلى هدى ومن دعا إلى ضلالة » هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم سن الأمور السيئة وأن من سن سُنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سُنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه سواء أكان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقا إليه وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك. قوله صلى الله عليه وسلم: «**فعمل بها بعده** » معناه إن سنها سواء كان العمل بها في حياته أو بعد موته والله أعلم." انتهى كلام الإمام النووي.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يرد على أصحابه رضي الله عنهم في حياته أشياء أحدثوها، و لم يفعلها هو صلى الله عليه وسلم، وما وصفها بالبدعة أو خلاف السنة، وما ألحقها بالضلالة أو النار...

مثال ذلك الصحابي الذي كان يصلي وانتصب من الركوع قائمًا في مسجده صلى الله عليه وسلم، فقال في دعائه « **سمع الله لمن حمده حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه** ».

فهذا الصحابي ما قال له النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الدعاء مـــردود عليك، لأنه ليس من قولي، والصلاة توقيفية وقد أمرتكم وقلت لكم « **صـــلوا كما رأيتموني أصلي** » وأنا ما دعوت بهذا الدعاء، فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وكيف أنا الآن بين ظهرانيكم، وأنتم تغيرون وتحدثون في الدين ما لم آمركم به؟

هل قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لهذا الصحابي؟

الجواب: لا... ولم يذم ما قاله بل مدحه وزكّاه بقوله صلى الله عليه وسلم «**لقد رأيت بضعًا وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يرفعها** » لشرف هـــذا الـــدعاء وعظيم درجته...

قالوا: ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أقر هذا الصحابي على هذا الـــدعاء، عند الرفع من الركوع، وإن لم يكن قاله صلى الله عليه وسلم، فصار هذا الدعاء سنة تقريرية، فارتفع الإشكال.

قلت لهم: الإشكال لم يرتفع لأنكم تزعمون في دعواكم أن كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بدعة، ومردود على صاحبه فعله، وباطل مطلقًا حسنًا كان ما أحدثه أو قبيح.

ثم أنتم الآن تدعون أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قبل و أقر هذا الباطل ،عندما أقر هذا الصحابي عند الرفع من الركوع، وقوله « **حمدًا كثيرًا طيبًّامباركا فيه**»[1]

(1) صحيح مسلم باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة ح(١٣٨٥).

فهل يقر النبي صلى الله عليه وسلم الباطل؟

ولو كان هذا الدعاء من هذا الصحابي على خلاف فعله صلى الله عليه وسلم بدعة وضلالة مطلقا، أكان يمدحه ويقبله صلى الله عليه وسلم، أم يرده ويدفعه؟

ولو كان باطلا هل يؤخر النبي صلى الله عليه وسلم بيانه عن وقت الحاجة؟

أم كان يبين ويوضح لهذا الصحابي ولعموم الأمة، أن الدعاء بخلاف المأثور من قوله خاصة داخل الصلاة، مردود ومدفوع، وغير مقبول كما تزعمون مطلقًا حسنًا كان أم قبيحًا.

قالوا: الذي نعرفه أن هذا الدعاء من هذا الصحابي رضي الله عنه صار سنة تقريرية، بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له...

قلت لهم: أنتم ما أجبتم على سؤالي هل يقر النبي صلى الله عليه وسلم الباطل الذي تدعونه في إحداث دعاء بغير المأثور عنه؟ ولن أكرر عليكم السؤال مرة أخرى... ولم يجيبوا أيضًا ..!

فقلت لهم: أنتم تزعمون أن هذا الدعاء بخصوصه صار سنة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم سمعه وأقره، وأنا أسألكم سؤالا ثانيًا ! هل أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم الأصل العام، بجواز الدعاء في الصلاة بخيري الدنيا والآخرة بالمأثور وغير المأثور؟ أم أَقَرَّ خصوص هذا اللفظ؟

بمعنى آخر هل أقر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء من هذا الصحابي، في هذا الموضع بخصوصه على هذا الوصف فقط، بحيث لو دعا أي أحد من أمته

بالمعاني الصحيحة، من خيري الدنيا والآخرة، في أي موضع آخر في الصلاة لا يقبل منه دعاؤه ذلك، ويكون مردودًا عليه؟

قالوا: بل قبل خصوص هذا اللفظ، وهذا الوصف فقط...، وقيد ذلك بزمنه صلى الله عليه وسلم ،لانه بعد زمانه الوحى قد انقطع ،والاحكام والعبادات قد اكتملت، فلا يجوز أن يزاد فيها أو ينقص..

قلت لهم: قولكم هذا خلاف السنة، فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم الأصل العام، بجواز الدعاء بخيري الدنيا والآخرة، بالمأثور وغير المأثور، بهذا اللفظ وغيره، وبهذا الوصف وغيره...

وقبل منه حكم الخطاب لا لفظه..

والدليل على ذلك في فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، فطلبت منهم أن يأتوا بالكتاب وقرأنا فيه فى ج٢ ص٣٣٥ حيث قال رحمه الله تعالى فى شرحه على هذا الحديث (واستدل به على جواز إحداث ذكر فى الصلاة غير مأثور إذا كان مخالفًا للمأثور وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يشوش على من معه) انتهى.

فهذا الحافظ ابن حجر رحمه الله يستدل بهذا الحديث على جواز إحداث ذكر ودعاء فى الصلاة بعمومها،حيث أطلق و لم يقيد ذلك بالرفع من الركوع فقط ، بل لم يقيد ذلك بزمن النبى صلى الله عليه وسلم، لأنه لادليل فى الحديث على هذا التقييد، ولأن التقييد خلاف الأصل،ولو كان ذلك مقيدا بزمنه صلى الله عليه وسلم لبينه لأمته، لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز..

وفى فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر أيضًا:

ج٢ ص ٣٧٤ فى شرحه لترجمة الإمام البخارى فى صحيحه باب (ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب)

قال رحمه الله تعالى: قوله «**ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو** » زاد أبو داود عن مسدد شيخ البخارى فيه «**فيدعو به**» ونحوه النسائى من وجه آخر بلفظ «**فليدعو به**» ولإسحق عن عيسى عن الأعمش «**ثم ليتخير من الدعاء ما أحب**» وفي رواية منصور عن أبي وائل عند المصنف في الدعوات« **ثم ليتخير من الثناء ما شاء** » ونحوه لمسلم بلفظ « **من المسألة**» واستدل به على جواز الدعاء في الصلاة بما اختار المصلى من أمر الدنيا والآخرة » انتهى كلام الحافظ.

**أقول** : فهاهو الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ينقل ويُقر الاستدلال بهذه الروايات، على جواز الدعاء في الصلاة بعمومها، وليس في الرفع من الركوع فقط، بما اختار المصلى من أمر الدنيا والآخرة.

وقال الحافظ ابن حجر أيضًا فى جَ ٢ ص ٣٧٤ :( وقد استدل البيهقى بالحديث المتفق عليه «**ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به** »[1] وبحديث أبي هريرة رفعه« اذا فرغ أحدكم من التشهد فليتعوذ بالله »الحديث . وفى آخره

(1) صحيح البخاري باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ح(٨٠٠) صحيح مسلم باب التشهد في الصلاة ح (٩٢٦) .

«**ثم ليدعو لنفسه بما بدا له** »[1] هكذا أخرجه البيهقى . وأصل الحديث فى مسلم . وهذه الزيادة صحيحة لأنها من الطريق التى أخرجها مسلم ) انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

وفي سنن أبي داود من حديث معاذ رضي الله عنه عندما أطال في الصلاة وخرج الأنصاري منها، وشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ففي آخر هذا الحديث سأل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأنصاري « **يا أخا العرب، ما تقول في صلاتك؟ قال: يا رسول الله، صلى الله عليه وسلم أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار ولا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ** » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « **حولها ندندن** »[2].

ففي هذا الحديث ما أطلع النبي صلى الله عليه وسلم على الألفاظ التي يدعو بها هذا الأنصاري، ويسأل بها الجنة ويستعيذ بها من النار، بل قبل منه الأصل العام ،بالدعاء بخيري الدنيا والآخرة، بالمأثور وغير المأثور...

(1) معرفة السنن والآثار للبيهقي باب التشهد ح(٩٣١) السنن الصغير للبيهقي باب الدعاء بعد التشهد ح(٣٥٨) وفي صحيح مسلم باب ما يستعاذ منه في الصلاة ح(١٣٥٤) قوله صلى الله عليه وسلم "**إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال**".

(2) سنن أبي داود باب في تخفيف الصلاة ح(٧٩٣)، سنن ابن ماجه باب ما يقال في التشهد ح(٩١٠) وسنن البيهقي باب ما على الإمام من التخفيف ح(٥٠٥٦) .

وهو هنا سؤال الجنة والاستعاذة من النار، وما ذمه النبي صـــلى الله عليـــه وسلم عندما قال له هذا الأنصاري « **وما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ** » أي لا أحسن الدعاء المأثور الذي تدعو به، ولا دعاء معاذ رضي الله عنه الذي تعلمه منك...

وما قال له دعاؤك بخلاف دعائي مردود مدفوع، بل بدعة وضلالة

،ولكن أقره على الأصل العام، وقبل منه حكم الخطاب لا لفظه وجميع أمته إلى قيام الساعة، بقوله « **حولها ندندن** » والأمثلة من السنة في هذا الباب كثيرة..

وقد رد الإمام القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسوغ لمن علّمه الدعاء مخالفة اللفظ وذلك بقوله رحمه الله فإن قيل: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم "**نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها كما سمعها**" وذكر الحديث وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلاً أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه: "**آمنت بكتابك الذي أنزلـــت ونبيك الذي أرسلت**" فقال الرجل: ورسولك الذي أرسلت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**ونبيك الذي أرسلت**" قالوا: أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمـــن علمـــه الدعاء مخالفة اللفظ وقال: "**فأداها كما سمعها**" قيل لهم: أما قوله "**فأداها** كمـــا سمعها فالمراد حكمها لا لفظها، لأن اللفظ غير معتد به. ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله: "**فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هـــو أفقه منه**" ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في أوقـــات مختلفـــة،لكن

الاغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة، وذلك أدل دليل على الجواز.

وأما ردّه عليه السلام الرجل من قوله: ورسولك – إلى قوله – ونبيك" لأن لفظ النبي صلى الله عليه وسلم أمدح، ولكل نعت من هذين النعتين موضع ألا ترى أن اسم الرسول يقع على الكافة، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام! وإنما فُضل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة فلما قال: "**ونبيك**" جاء بالنعت الأمدح، ثم قيده بالرسالة بقوله: "الذي أرسلت" وأيضًا فإن نقله من قوله: "**ورسولك** – إلى قوله- **ونبيك**" ليجمع بين النبوة والرسالة ومستقبح في الكلام أن يقول: هذا رسول فلان الذي أرسله، وهذا قتيل زيد الذي قتله، لأنك تجتزئ بقولك: رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل، إذا كنت لا تفيد به إلا المعنى الأول. وإنما يحسن أن نقول: هذا رسول عبد الله الذي أرسله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا. والله ولي التوفيق" انتهى كلام الإمام القرطبي.

قال أحدهم: فاذكر لنا البينة والدليل على مشروعية الدعاء خلف كل صلاة وهي المسألة التي بين أيدينا.

قلت: الدليل هو الحديث الصحيح لسيدنا معاذ رضي الله عنه عندما كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « **يا معاذ إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** ».

ودبر الصلاة ما يلي آخرها، أي بعد انتهائها وانصرافه منها.

فنظر إليّ أحدهم مبتسمًا من طرف فمه، ببسمة يعلوها التعظم والاستعلاء، وبنظرة من ظفر بفريسته ثم قال لي: أهذا هو الدليل في المسألة؟

قلت له مندهشا من نظرته: نعم وهو حديث صحيح...! وقد ظننت أنه لم يفهم الشاهد في الاستدلال به، وهو قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه « **أن تقول دبر كل صلاة** » أي بعدها

فقال لي: ولكن الإمام قال: أن الأحاديث المعروفة في الصحاح والسنن والمسانيد تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في دبر صلاته، قبل الخروج منها، وكان يأمر أصحابه بذلك ويعلمهم ذلك قبل التسليم » انتهى.

وعندها علمت لماذا نظر إليّ نظرة الاستعلاء تلك، وقلت في نفسي لقد احتج بكلام الإمام على خطأ الاستدلال بالحديث، في مشروعية الدعاء بعد الصلاة، لكون الإمام قرر في كلامه أن ذلك كان قبل التسليم لا بعده...

ولكني تساءلت في نفسي على فرض هذا الخطأ، أكان يستوجب منه هذه النظرة، التي ملؤها التعظم والصولة، وعندها علمت كيف انتشر بيننا النزاع والخلاف، وكيف تأصلت فينا أسس الخصومة، وذلك لكون النيات والمقاصد لطلب الحق، ومحبة ظهوره على أيدينا أو على أيدي إخواننا قد شردت منا...

وصار خطأ المتباحث معنا في مسائل الشرع، أحب إلينا من صوابه، والمتناصح وإيانا على معرفة الأحكام، هو خصم وغريم لنا، نتحين سقطته

وكبوته...

إلا إني قطعت ما جال به الخاطر وبادرته بالسؤال قائلا:

فأنت تقرر أن الدعاء دبر الصلاة هو قبل الخروج منها، بمعنى أنه قبل التسليم، وحجتك في ذلك قول الإمام، فأنت مقلد له فيه...

قال: نعم وعلى هذا يكون الدعاء بعد التسليم أو بعد الصلوات المكتوبات خلاف السنة، وإنما الدعاء قبل التسليم.

قلت له: وكيف إذا كانت السنة الصحيحة على خلاف هذا القول الذي قلّدته، وأن الدعاء بعد التسليم خلف الصلوات المكتوبات، هو سنة ثابتة مشروعة!.

قال لي: وأين هذه السنة الصحيحة الدالة على المشروعية.

قلت له: في صحيح البخاري فما قولك فيه؟.

قال: أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

قلت له: الحمد لله أن هذا رأيك في صحيح البخاري، ودليل المشروعية هو في كتاب الدعوات من صحيح البخاري باب « الدعاء بعد الصلاة » فهل أطمع أن تشرح لي مقصود الإمام البخاري من هذا الباب، أو تلك الترجمة.

قال: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذه الترجمة.

وقال الآخر: اشرحها لنا أنت فأنت الذى يستدل بها.

قلت له: لك ذلك... وسوف أنقل لك كلام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري، على هذه الترجمة توثيقا للحديث، ثم طلبت من أحدهم أن يأتي بفتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري من المكتبة، ثم فتحناه على كلام الحافظ ابن حجر حيث قال رحمه الله تعالى: « **قوله (باب الدعاء بعد الصلاة) أي المكتوبة**، وفي هذه الترجمة رد على من زعم أن الدعاء بعد الصلاة لا يشرع، متمسكًا بالحديث الذي أخرجه مسلم من رواية عبد الله بن الحارث عن عائشة كان النبي صلى الله عليه وسلم « إذا سلم لا يثبت إلا قدر ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[1] والجواب أن المراد بالنفي المذكور نفي استمراره جالسًا على هيئته قبل السلام إلا بقدر أن يقول ما ذكر، فقد ثبت أنه « **كان إذا صلى أقبل على أصحابه** » فيحمل ما ورد من الدعاء بعد الصلاة على أنه كان يقوله بعد أن يقبل بوجهه على أصحابه ». انتهى كلام الحافظ.

قلت له: فالحافظ ابن حجر يقرر أن مقصود الإمام البخاري من ترجمته في هذا الباب « الرد على من زعم أن الدعاء بعد الصلاة لا يشرع »، وأنت أحد الذين يزعمون ذلك، وأنه أمر مخترع لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فعله، أو واظب عليه، وتدعي أنه غير مشروع، فمن نصدق الحافظ ابن حجر

(1) سنن الترمذي باب ما يقول إذا سلم من الصلاة ح(٢٩٨) بلفظ لا يقعد وسنن النسائي باب ما يقول إذا قضى صلاته ح (٩٩٢٦) بلفظ لا يجلس إذا سلم سنن البيهقي الكبرى باب من استحب له أن يذكر الله في مكثه ذلك ح(٢٨٢٩) بلفظ لا يجلس بعد الصلاة وصحيح ابن حبان باب صفة الصلاة ح(٢٠٠٠).

والإمام البخاري أم نصدق قولك أنت؟

قال: نصدق السنة الصحيحة، فهل هناك سنة صحيحة تؤيد كلام هؤلاء الأئمة.

قلت له: وهل كلامهم غير كاف لدليل المشروعية وهم الأئمة الحفاظ المجتهدون، وقد قامت الحجة على قبول أقوالهم عند أهل السنة والجماعة.

قال: ولكننا اتفقنا على أن يكون احتكامنا إلى الكتاب والسنة، وقد ذكرت أن لديك دليلاً من السنة على مشروعية ذلك.

قلت له: المتبع للأئمة المجتهدين المقبولين قبولا عامًا في الأمة، لا يخرجه هذا الاتباع، عن كونه متبعا للكتاب والسنة، إذ لا معنى لاتباعهما إلا اتباع ما دلا عليه من الأحكام الفقهية، المستنبطة منهما بواسطة الاجتهاد واستفراغ الوسع في معرفة حكم النازلة، ممن حصَّل درجته وهم الأئمة المجتهدون...

كما أن أقوال أئمة السلف المجتهدين، المأخوذة من الكتاب والسنة، إنما هي نوع من البيان والتفسير، لآيات أحكام الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم..

قال: هذا الموضوع جدير بالبحث... ولكن اذكر لنا دليل السنة.

قلت له: الدليل هو في نفس الباب من صحيح الإمام البخاري تحت الترجمة السابقة باب « الدعاء بعد الصلاة » وقد أورد الإمام البخاري في هذا الباب حديثين اثنين يدلان على مشروعية ذلك، فهل أطمع منك أن تذكرهما..؟

قال: أنا لا يحضرني ذكرهما الآن.

فقلت لمن معه: هل لديكما معرفة بهما؟

قالا: لا.

قلت لهم: هنالك أمر غريب لابد لنا أن نتوقف أمامه ونتـــدبره وأنـــتم أول المطالبين بذلك...!

قالوا: وما هو؟

قلت لهم: إنكم أول ما جلستم، قلتم لي: لماذا تقوم بالدعاء خلف الصلوات المكتوبات، وهذا أمر لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم...!

والذي يدعي الثبوت أو عدم الثبوت، هو من أحاط بسنة النبي صـــلى الله عليه وسلم، ليتمكن من تحقيق هذه الدعوى...!

ولكننا الآن عند المباحثة عندما سألتكم عن أشهر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الواردة في صحيح الإمام البخاري تبين عدم معرفتكم بهـــا، بـــل أزيدكم أن هذه الأحاديث رواها الإمام مسلم أيضًا في صحيحه، والإمام أبو داود والإمام الدارمي، والحديث الثاني منهما رواه مع الأئمة السابقين الإمام الترمذي والإمام النسائي في المجتبى، فكيف ساغ لكم أن تزعموا عدم ثبوت ذلك بغير دليل ومعرفة على خلاف الحقيقة، مع علمكم بالزجر الشديد من الله تعالى فيمن يتكلم في أحكام الشرع بغير علم ،ويقول عليه ما لا يعلم حيث قال عز وجل ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا**

**بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾**.

على أني سوف أذكر لكم دليل "مشروعية الدعاء بعد الصلاة" وهو الحديث الأول في هذا الباب من صحيح البخاري وهو حديث أبي هريرة: « قالوا يا رسول الله قد ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم. قال: كيف ذاك؟ قالوا: صلوا كما صلينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم، وليست لنا أموال. قال: "**أفلا أخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبحون في دبر كل صلاة عشرا، وتحمدون عشرا، وتكبرون عشرا**"[1] ففي هذا الحديث أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى التسبيح والتحميد والتكبير دبر كل صلاة عشرا وفي كتب السنن الأخرى ثلاثا وثلاثين، وقد أخذ الإمام البخاري من كلمة « دبر » ترجمة الباب فَبَوَّبَهُ بقوله باب «الدعاء بعد الصلاة » فكلمة « دبر » هي عند الإمام البخاري بعد التسليم أي بعد الانتهاء من الصلاة.

قال أحدهم: ولكن كلمة « دبر » كلمة مجملة قد تكون آخر الشيء أو ما يلي الآخر، أي قد يكون المقصود منها آخر الصلاة أي بعد التشهد وقبل التسليم، وقد يكون المقصود منها ما يلي آخر الصلاة أي بعد التسليم، فكيف خصصتموها بكونها ما يلي آخر الصلاة أي بعد التسليم.

---

(1) صحيح البخاري باب الدعاء بعد الصلاة ح(٥٩٧٠) صحيح مسلم باب استحباب الذكر بعد الدعاء ح(١٣٧٥) وبيان صفته .

قلت له: لست أنا الذي خصَّصتها، ولكنه أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري الذي بين عن طريق ترجمته للباب بقوله « الدعاء بعد الصلاة » أن كلمة دبر تعني بعد التسليم.

قال: الإمام البخاري على العين والرأس، ولكننا نريد دليل التخصيص من السنة بكون كلمة « دبر » هي بعد التسليم وليس قبل التسليم.

قلت له: دليل التخصيص في السنة الصحيحة، وقد نقلها الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج١١ « كتاب الدعوات » ثم قلت لأحدهم هل تستطيع أن تأتي به من المكتبة، فذهب وأتى به ففتحت كتاب الدعوات « باب الدعاء بعد الصلاة » وقرأت لهم عبارة الحافظ ابن حجر في ذلك وهي « فإن قيل: المراد بدبر كل صلاة قرب آخرها وهو التشهد، قلنا قد ورد الأمر بالذكر دبر كل صلاة والمراد به بعد السلام إجماعا فكذا هذا حتى يثبت ما يخالفه » انتهى كلام الحافظ رحمه الله.

ثم قلت لأحدهم: هل تتفضل بشرح العبارة السابقة للحافظ ابن حجر وتبين لنا المراد منها...

فتكلم بكلام بعيد لا علاقة له بعبارة الإمام ابن حجر، فقلت للذي بجواره هل تشرح لنا أنت عبارة الإمام ابن حجر؟ فصنع مثل ما صنع الأول، وجاء بكلام على خلاف عبارة الحافظ رحمه الله، وعندما سألت الثالث أن يشرح هو كلام الإمام ابن حجر اعتذر وقال إنه لا يقدر على ذلك؟

فقلت لهم: أنا ما طلبت منكم شرح كلام الإمام ابن حجر في هذا الباب امتحانا وتعجيزا لكم حاشا وكلا، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن النية والقصد، **ولكني طلبت ذلك للتنبيه على أنكم** لم تتمكنوا بعد من الأدوات والأهلية التي تستقلون بها في الاستدلال، والأخذ من أقوال الأئمة رأسا مع فهم مرادهم من هذه الأقوال، ومن باب أولى التحليل والتحريم في الأحكام ومسائل الشرع ،استنادا لأقوال بعضهم في ذلك كما تظنون، حيث أن استدلالكم بعيد عن مرادهم فضلا عن أن يكون معبرا عن أقوالهم...!

قال أحدهم: فبين لنا مقصود الحافظ ابن حجر من هذه العبارة.

قلت: الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى يبين في هذه العبارة الرد على من ذهب إلى أن كلمة « دبر كل صلاة» المقصود منها في هذا الحديث قرب آخرها وهو التشهد، أي يرد على من قال أن المقصود منها قبل التسليم، وقد وضَّح ذلك بأن الأذكار المشروعة دبر كل صلاة، وهي مثلا التسبيح ثلاثًا وثلاثين والتحميد ثلاثًا وثلاثين والتكبير ثلاثًا وثلاثين وختم ذلك بلا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كل ذلك إنما هو بعد التسليم بالإجماع، فليس هنالك من مصلٍّ يجلس في التشهد الأخير قبل التسليم يسبح ويحمد ويكبر ثلاث وثلاثين ثم يختم بالتهليل، ثم بعد ذلك يسلم، بل كل المسلمين إجماعا ،يسلمون من الصلاة، وبعد انصرافهم منها يشرعون في التسبيح والتحميد والتكبير، حسب الحديث المأمور به ثلاثًا وثلاثين وهذا بالإجماع، كذلك كلمة دبر في الحديث الذي بين أيدينا حكمها بعد التسليم كالحكم السابق الذي ثبت

بالإجماع في الأذكار المشروعة حتى يثبت ما يخالف ذلك .

قال أحدهم: ولكنك وعدتنا بدليل من السنة الصحيحة على المشروعية بخلاف هذا الاستدلال من الحافظ ابن حجر.

قلت له: الدليل قد نقلناه لك.. وهو الإجماع الذي ذكره الحافظ ابن حجر وهو من الأدلة والمصادر التي اتفقنا على الاحتكام إليها، على أن الدليل من السنة الذي تطلبه أيضًا موجود،وهو الحديث الثاني في الباب المذكور في صحيح البخاري فهل تتفضلون بذكر هذا الحديث...

قالوا: نحن لا نعرفه.

قلت لهم: الحديث هو عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال « كتب المغيرة إلى معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر كل صلاة إذا سلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1].

ففي هذا الحديث يقرر سيدنا المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول هذا الدعاء دبر كل صلاة بعدما يسلم، فهذا منطوق حديث صحيح في البخاري، يقرر فيه الصحابي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو دبر الصلوات المكتوبات بعدما يسلم وأن المقصود « بدبر كل صلاة » هو بعد

---

(1) صحيح البخاري باب الدعاء بعد الصلاة ح(٥٩٧١).

التسليم نصًا، فما هو جوابكم على هذه السنة الصحيحة الصريحة المنصوص عليها والتي أزالت اللبس عن أي إجمال في كلمة « دبر كـــل صـــلاة »، وبيَّنـــت أن المقصود منها هو بعد التسليم والخروج من الصلاة...

ونظرت إليهم فلم يجب منهم أحد، ورأيت الوجوم يخيم عليهم، وابتسامات الصولة والتعظم التي كانت متوثبة، إذا هي ذابلة شاحبة..

فقلت لهم: الآن معنا سنة صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يدعو خلف الصلوات المكتوبات بعد التسليم، بمنطوق ونص حديثه صـــلى الله عليـــه وسلم في صحيح البخاري، فهل الدعاء بعد كل صلاة بعد التسليم سنة أم بدعة ؟وهل هو مشروع أم غير مشروع؟..

فسكتوا لبرهة فلما رأوني أنظر إليهم متعجبا قالوا: بل سُنَّة ومشروع.

قلت لهم: فهل ندعو بعد كل صلاة، أم لا ندعو؟

فسكتوا أيضًا برهة ثم قالوا: بل ندعو لهذه السنة الصحيحة...

قلت لهم: فهل سوف تدعون أنتم خلف كل صلاة لهذه السُّنَّة الصـــحيحة، فتبسموا وسكتوا و لم يجيبوا.. فعلمت أن الأمر مازال فيه بعض التحفظ..

حتى وإن كانت السنة فيه صحيحة صريحة، بل هنالك اعتبارات أخرى قد تحكم أقوال وأفعال الكثيرين...

وقد أورد الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الباب أحاديث كثيرة في ثبوت الدعاء دبر الصلوات المكتوبات بعد التسليم منها، ولننقل كلامه فى هذا الباب فانه نافع مفيد حيث قال رحمه الله :( ثبت عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: « **يا معاذ إني والله لأحبك، فلا تدع دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[1] أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان و الحاكم، وحديث أبي بكرة فى قوله "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بهن دبر كل صلاة" أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الحاكم، وحديث سعد الآتي في « **باب التعوذ من البخل** » قريبًا، فإن في بعض طرقه المطلوب. وحديث زيد بن أرقم « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في دبر كل صلاة: **اللهم ربنا ورب كل شيء** »[2] الحديث أخرجه أبو داود والنسائي، وحديث صهيب رفعه «كان يقول إذا انصرف من الصلاة: **اللهم أصلح لي ديني** »[3] الحديث أخرجه النسائي وصححه ابن حبان وغير ذلك. فإن قيل: المراد بدبر كل صلاة قرب آخرها وهو التشهد، قلنا قد ورد الأمر بالذكر دبر كل

---

(1) سنن أبي داود باب في الاستغفار ح(١٥٢٤)، وسنن النسائي باب الحث على قول رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك دبر الصلوت ح(٩٩٣٧)، المستدرك ٤٠٧/١ح (١٠١٠) .

(2) سنن أبي داود باب ما يقوله الرجل إذا سلم ح(١٥١٠)، سنن النسائي باب ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة ح(٩٩٢٩) .

(3) سنن النسائي باب نوع آخر من الدعاء عند الانصراف من الصلاة ح(١٣٤٥)، صحيح ابن حبان باب صفة الصلاة ح(٢٠٢٦) .

صلاة، والمراد به بعد السلام إجماعا فكذا هذا حتى يثبت ما يخالفه. وقد أخـــرج الترمذي من حديث أبي أمامة « قيل يا رسول الله أي الدعاء أسمع؟ قال: **جوف الليل الأخير ودبر الصلوات المكتوبات** » وقال: حسن. وأخرج الطبري مـــن رواية جعفر بن محمد الصادق قال: « الدعاء بعد المكتوبة أفضل من الدعاء بعد النافلة كفضل المكتوبة على النافلة » انتهى كلام الحافظ ابن حجر

فلما انتهينا من قراءة كلام الإمام ابن حجر، قلت لهم بعد أن وصلنا إلى هـــذه النقطة من البحث، لابد لنا أن نتفطن إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن الإمـــام البخاري لم ينفرد وحده بإيراد حديث سيدنا المغيرة مبوبًا عليه بهذه الترجمة (باب الدعاء بعد الصلاة)، فقد ذكره الإمام مسلم في صحيحه (باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته)، كما أخرجه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الصلاة في باب (ما يقول الرجل إذا سلم)، من كتاب الوتر، وأخرجه الإمام النسائي في المجتبى في: باب (نوع آخر من القول عند انقضاء الصلاة)، والترمذي في كتـــاب الصلاة باب (ما يقول الرجل إذا سلم من الصلاة)، والدارمي في سننه في كتاب الصلاة باب (القول بعد السلام) فهؤلاء الأئمة جميعًا ترجموا للحديث نفسه تحت أبواب الذكر بعد الصلاة، أو ما يقول الرجل إذا سلم، أو القول عند انقضـــاء الصلاة، وكلها على نفس المعنى الذي بوب به الإمام البخاري لهـــذا الحـــديث وتؤكد على سنية الدعاء بعد التسليم، وبعد الصلوات المكتوبات وقد أورد هؤلاء الأئمة تحت هذه التراجم أحاديث أخرى، في ثبوت الدعاء عقب الصلوات وبعد التسليم ، لم نشأ أن نتوسع بإيرادها ففيما سبق تحقق للمطلوب وتحصيل للمراد..

وقد أورد الإمام ابن قدامة في كتابه العظيم (المغني) وهو من أجل كتب الأئمة الحنابلة نفس حديث سيدنا المغيرة السابق تحت عنوان: (فصل: ويستحب ذكر الله تعالى، والدعاء عقب صلاته، ويستحب من ذلك ما ورد به الأثر، مثل ما روى المغيرة...) انتهى.

ثم قلت لأحدهم هل تتفضل بأن تأتي لي بشرح صحيح مسلم للإمام النووى رحمه الله وفيه باب (استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) والذي ذكر فيه الإمام مسلم حديث عائشة رضي الله عنها: "كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام" وفي رواية ابن نمير: يا ذا الجلال والإكرام

وعندما قرأنا الحديث قلت لهم : ففي هذا الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقعد بهيئة الصلاة بعد التسليم مستقبلا القبلة إلا بمقدار ما يقول هذا الدعاء ، وفيه ثبوت الدعاء مستقبل القبلة، وإيراده بعد الصلاة للإمام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء حال استقباله للقبلة، وسنية ذلك لعموم الأمة بعده اماما ومأموما ومنفردا بمقدار ما كان يجلس صلى الله عليه وسلم، وبعد أن انتهينا من قراءة شرح صحيح مسلم..

قالوا: جزاك الله خيرًا على هذه المدارسة القيمة، التي استفدنا منها كثيرا ، ونشكرك على سعة صدرك معنا، مع المسامحة على بعض ما بدر منا أثناء حديثنا، ونستأذن في الانصراف.

قلت لهم: جزاكم الله خيرًا، بل أنا الذى أشكركم على أن أتحتم لنا هذه الفرصة الطيبة، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما قلنا وسمعنا، ويمكنكم الاستئذان.

فانصرفوا وعادوا في اليوم التالي، فسلموا وجلسوا ثم قال أحدهم:

فضيلة الشيخ نحن لم نكمل حديثنا بالأمس.

قلت لهم: بل أكملناه ألم نبرهن على مشروعية الدعاء بعد الصلاة وأنها من السنة...

قالوا: نعم...هذا انتهينا منه، ولكن بقى أمران رفع اليد بالدعاء خلف كل صلاة، ومسح الوجه بهما والحديث في ذلك ضعيف..

قلت لهم: الإمام السيوطي ذكر أن رفع اليد عند الدعاء ثبت من أكثر من مائة وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن الإمام النووي قرر في كتابه الأذكار، أن رفع اليد في الدعاء من آداب الدعاء وقد قال مثل ذلك الإمام الغزالي.

قالوا: هذا طيب ولكنك عودتنا على الاستدلال بالسنة في هذه المباحث.

قلت لهم: الإمام السيوطي والإمام النووي هما من أئمة أهل السنة والحجة قامت على قبول أقوالهم، ولكن هل عندكم أنتم سنة صحيحة وبينة وواضحة على ما تدعون، أن رفع اليد عند الدعاء بعد الصلاة غير مشروع.

قالوا: ليس عندنا فى ذلك دليل بالمنع، ولكننا نطمع أن تأتينا بالدليل على المشروعية.

قلت لهم: الأصل أن البينة على المدعي فيلزمكم أنتم الإتيان بالدليل على المنع، على أن دليل مشروعية ذلك هو في صحيح البخاري « **باب رفع الأيدي في الدعاء** » من كتاب الدعوات.

ثم طلبت من أحدهم أن يأتي بفتح الباري ج ١١ كتاب الدعوات ثم قرأت لهم ترجمة الإمام البخاري في ذلك وهي كالآتي:ص١٤٦: « **باب رفع الأيدي في الدعاء** ».وقال أبو موسى الأشعري: **دعا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه**[١].

وقال ابن عمر: رفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال: « **اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد** »[٢].

قال أبو عبد الله: وقال الأويس حدثني محمد بن جعفر عن يحيى بن سعيد وشريك « **سمعنا أنسا عن النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه** »[٣] انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه لأحاديث الباب: « وفي الحديث الأول رد من قال لا يرفع كذا إلا في الاستسقاء بل فيه وفي الذي بعده رد على من قال لا يرفع اليدين في الدعاء غير الاستسقاء أصلا، وتمسك بحديث أنس « **لم يكن النبي**

(1) رواه الإمام البخاري معلقا باب رفع الأيدي في الدعاء.

(2) رواه الإمام البخاري معلقا باب رفع الأيدي في الدعاء.

(3) رواه الإمام البخاري معلقا باب رفع الأيدي في الدعاء.

**صلى الله عليه وسلم يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء** »[1] وهو صحيح، لكن جمع بينه وبين أحاديث الباب وما في معناها بأن المنفي صفة خاصة لا أصل الرفع وقد أشرت إلى ذلك في أبواب الاستسقاء وحاصله أن الرفع في الاستسقاء يخالف غيره إما بالمبالغة إلى أن تصير اليدان في حذو الوجه مثلا وفي الدعاء إلى حذو المنكبين ولا يعكر على ذلك أنه ثبت في كل منهما « **حتى يرى بياض إبطيه** » بل يجمع بأن تكون رؤية البياض في الاستسقاء أبلغ منها في غيره، وإما أن الكفين في الاستسقاء يليان الأرض وفي الدعاء يليان السماء.

قال: المنذري: وبتقدير تعذر الجمع فجانب الإثبات أرجح.

قلت [أي الإمام ابن حجر]: ولاسيما مع كثرة الأحاديث الواردة في ذلك، فإن فيه أحاديث كثيرة أفردها المنذري في جزء سرد منها النووي في « الأذكار » وفي « شرح المهذب » جملة. وعقد لها البخاري أيضًا في « الأدب المفرد » بابا ذكر فيه حديث أبي هريرة « قدم الطفيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن دوسا عصت فادع الله عليها، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: **اللهم اهد دوسا** » وهو في الصحيحين دون قوله « ورفع يديه » وحديث جابر « أن الطفيل بن عمرو هاجر » فذكر قصة الرجل الذي هاجر معه وفيه « فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « **اللهم وليديه فاغفر ورفع يديه** » وسنده صحيح، وأخرجه مسلم. وحديث عائشة أنها « **رأت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو**

---

(1) صحيح البخاري باب رفع الإمام يديه في الاستسقاء ح(٩٨٤)، صحيح مسلم باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء ح(٢١١٣) .

**رافعًا يديه يقول: اللهم إنما أنا بشر** » الحديث وهو صحيح الإسناد. ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك ما أخرجه المصنف في « جزء رفع اليدين »: «**رأيت النبي صلى الله عليه وسلم رافعًا يديه يدعو لعثمان** » ولمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة في قصة الكسوف « **فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو رافع يديه يدعو** » وعنده في حديث عائشة في الكسوف أيضًا: « ثم رفع يديه يدعو » وفي حديثها عنده في دعائه لأهل البقيع « **فرفع يديه ثلاث مرات** » الحديث. ومن حديث أبي هريرة في فتح مكة « **فرفع يديه وجعل يدعو** وفي الصحيحين من حديث أبي حميد في قصة ابن اللتبية « ثم رفع يديه حتى رأيت عفرة إبطيه يقول: **اللهم هل بلغت** » ومن حديث عبد الله بن عمرو « **أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر قول إبراهيم وعيسى فرفع يديه وقال: « اللهم أمتي » وفي حديث عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فأنزل الله عليه يومًا، ثم سرى عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه ودعا** » الحديث أخرجه الترمذي واللفظ له والنسائي والحاكم، وفي حديث أسامة « **كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناوله بيده وهو رافع اليد الأخرى** » أخرجه النسائي بسند جيد.

وفي حديث قيس بن سعد عن أبي داود « **ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول: اللهم صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة** » الحديث وسنده جيد، والأحاديث في ذلك كثيرة: وأما ما أخرجه مسلم من

حديث عمارة بن رويبة براء وموحدة مصغر أنه « رأى بشر بن مـــروان يرفـــع يديه، فأنكر ذلك وقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يزيد على هذا يشير بالسبابة » فقد حكى الطبري عن بعض السلف أنه أخذ بظاهره وقال: السنة أن الداعي يشير بإصبع واحدة، ورده بأنه إنما ورد في الخطيب حال الخطبة، وهو ظاهر في سياق الحديث فلا معنى للتمسك به في منع رفع اليدين في الدعاء مع ثبوت الأخبار بمشروعيتها » انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

قلت: فالإمام ابن حجر قال في شرحه لأحاديث الباب أن فيها ردًا على من قال لا يرفع اليدين في الدعاء غير الاستسقاء.

قالوا: نحن قد فهمنا ذلك، والرد على حديث أنس بالمنع وذلك في عمـــوم الدعاء ولكننا نريد سنة صحيحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفـــع يديه خلف الصلوات المكتوبات، ويدعو كما تفعلون أنتم، أو أن هـــذا الأمـــر مشروع.

قلت لهم: دليل المشروعية عندنا وهو موجود في نفس الباب أيضًا ص١٤٧ وقد أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث سلمان رفعـــه « **إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا** ».

قال الحافظ ابن حجر: (بكسر المهملة وسكون الفاء أي خالية وسنده جيد) انتهى.

قالوا: هذا لا علاقة له بالصلاة.

قلت: بل العلاقة موجودة وما عليكم إلا العثور عليها..!

قالوا: وكيف ذلك..؟

قلت: هذا الحديث يقرر صفتين جليلتين لله تبارك وتعالى وهما صفة الحياء والكرم ، وانه من رفع يديه الى الحي الكريم ،فهو سبحانه وتعالى بمنه وعطائه وكرمه وحيائه ،يستحى أن يرد هاتين اليدين خاويتين ، بل لابد أن يملأهما بعطائه، أليس كذلك؟

قالوا: بلى.

قلت لهم: فصفات المولى تبارك وتعالى هي لازمة ثابتة مطلقة أم غير ذلك.

قالوا: بل هي كذلك في كل حين.

قلت: فالله تعالى حيي كريم آناء الليل؟

قالوا: بلى.

قلت: فالله عز وجل حي كريم آناء النهار؟

قالوا: بلى.

قلت: فالله سبحانه وتعالى حيي كريم قبل الصلاة.

قالوا: نعم وفي كل وقت.

قلت: فالله عز وجل حيي كريم بعد الصلوات؟

فلم يجيبوا وسكتوا وفطنوا إلى أين هم يسيرون؟.... وأنا بادرتهم بالسؤال

فقلت لهم: لماذا لم أسمع إجابتكم على هذا السؤال؟، وهل الإجابة فيه مختلفة عما سبق ؟، أي هل تعتقدون أن الله تعالى ليس بحيي كريم بعد الصلوات فتنفون عن الله تعالى صفاته في وقت وتثبتونها في وقت..

قالوا :حاشا وكلا بل هو سبحانه حيى كريم فى كل وقت وكل حين.

قلت لهم: فهو سبحانه وتعالى إذن حيي كريم بعد الصلوات.

قالوا: نعم وفي كل وقت ونحن نثبت لله تعالى صفاته .

قلت لهم: فالحيي الكريم بعد الصلوات، وفي كل حين نرفع له أيدينا بعد الصلاة ليملأها من عطائه وفضله ومنته، أم لا نرفع إليه أيدينا فتظل خاويتين.

فسكتوا ثم قالوا: بل نرفع إليه أيدينا ...

قلت لهم: فهذا هو المطلوب، وهذا ما نفعله وعموم الأمة، ودليل المشروعية في هذا الحديث هو نفسه، فيه الرد على من منع رفع اليد للمأمومين، عند الدعاء في صلاة الجمعة أو عند ختم القرآن، أو بعد الموعظة والكلام في الدعوة والإيمان في المساجد، أو عند الخروج للتجول على الناس خارج المسجد وإبلاغهم كلام الإيمان، ودعوتهم إلى داخل المسجد، حيث يقف الدعاة قبل تجولهم، يرفعون أيديهم ويدعون حتى ينزل الله تعالى عليهم وعلى المسلمين هدايته ورحمته، لأن البعض يبدع ذلك كله ويزعم أنه غير مشروع..!

على أن هذا الحديث السابق يقرر المشروعية لرفع اليد عنـــد أي دعـــاء، في أي وقت، وعلى كل حال من أحوال الطاعة، وهذا نفسه الذي ذكره أئمة الإسلام، و لم يُقبل منهم بدعوى أنه ليس هنالك نص خاص بالرفع عند الدعاء، في هـــذا الموضع أو ذاك، ومن هؤلاء الأئمة الإمام النووي حيث نص في كتابه الأذكـــار، على أن رفع اليد عند الدعاء من آداب الدعاء.

على أن هناك حديثا فى مصنف ابن أبي شيبة يؤكد على مشروعية رفع اليد بالدعاء ،فى خصوص هذا الموضع أى بعد الصلاة المكتوبه،ذكره الحافظ السيوطى فى رسالته (فض الوعاء فى أحاديث رفع اليدين فى الدعاء) والتى ذكر فيها أن رفع اليد بالدعاء ثبت من أكثر من مائة وجه،وهذا العدد يصل بأحاديثها إلى درجـــة التواتر المعنوى فقال رحمه الله تعالى: أخرج ابى شيبه قال:حدثنا محمد ابن ابى يحيى الأسلمى قال :رأيت عبد الله بن الزبير ورأى رجلا رافعا يديه يدعو قبل أن يفرغ من صلاته ، فلما فرغ منها قال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكـــن يرفع يديه حتى يفرغ من صلاته)[1] انتهى ورجاله ثقات"ورواه الطبرانى"

قال أحدهم: فضيلة الشيخ بقي الأمر الأخير، وهو مسح الوجه بالكفين بعد الدعاء..

قلت: هنالك حديث في سنن الإمام الترمذي (باب ما جاء في رفع الأيدي في

(1) الأحاديث المختارة للمقدسي ح(٣٠٣)، مجمع الزوائد باب ما جاء في الإشارة في الدعاء ورفع اليدين ح(١٧٣٤٥).

الدعاء).

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه** »[1].

قال أحدهم: ولكن هذا الحديث ضعيف فلا يحتج به.

قلت له: الصحيح أنه حسن والحسن يعمل به كالصحيح بل قد أورد الحسن ضمن أقسام الحديث الصحيح الإمام الحاكم و الإمام ابن حبان، وقد حسّن الإمام ابن حجر هذا الحديث في بلوغ المرام حيث قال: « وله شواهد منها حديث ابن عباس عند أبي داود ومجموعها يقتضي أنه حديث حسن » انتهى

ثم قرأت لهم ما بينه العلامة عبد الرحمن المباركفوري رحمه الله في تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج ٩ ص ٣٢٨حيث قال: قوله (**لم يحطهما**) أي لم يضعهما (**حتى يمسح بهما وجهه**) قال ابن المالك وذلك على سبيل التفاؤل، فكأن كفيه قد ملئتا البركات السماوية والأنوار الإلهية، وقال في السبل: « **وفي الحديث دليل على مشروعية مسح الوجه باليدين بعد الفراغ من الدعاء وقيل وكأن المناسبة أنه تعالى لما كان لا يردهما صفرا فكأن الرحمة أصابتهما فناسب إفاضة ذلك على الوجه الذي هو أشرف الأعضاء وأحقهما بالتكريم** » انتهى كلام العلامة المباركفوري.

(1) سنن الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح.

قلت: فهذا الحافظ ابن حجر قد حسَّن هذا الحديث والإمام في « السبل » قال أن في الحديث دليل على مشروعية مسح الوجه باليدين بعد الفراغ من الدعاء فهل نفعل ذلك أم لا نفعل.....؟

فسكتوا ثم قالوا: جزاك الله خيرًا على هذا التوضيح، ونرجو المسامحة على أننا شغلنا كثيرًا من وقتكم..

قلت لهم: بل أنا الذي أشكركم على أن أتحتم لنا هذه الأوقات الغالية في بيان بعض أمور الشرع، التي يصاحبها الكثير من الأخذ والرد واللبس من البعض في مشروعيتها بل في دفعها، والزعم بكونها بدعة أو لم تثبت في السُّنَّة، أو لم يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم، جزمًا وتأكيدا، رغم عدم إحاطة الكثير منهم بأصول وفروع هذه المباحث..

وهذا نفسه هو الذى حدث مع هؤلاء الإخوة فيما ظنوه من أن الدعاء بعد الصلوات المكتوبات غير مشروع، ولم يثبت في السُّنَّة، كذلك رفع اليدين في الدعاء، ومسح الوجه بهما...الخ هذه الدعاوى

وبأمثالها يدمغون المخالفين لهم بأدنى شبهة، رغم أن الحق قد يكون خلاف دعواهم ومجانبا لرأيهم...

ولقد ودَّعت هؤلاء الأخوة..آملا أن يكون الانتفاع وراء هذه المباحثة،ووقع بصرى بعدها على بعضهم بعد الصلوات، فمنهم من كان يدعو ويرفع يديه، ومنهم من لا يفعل ذلك رغم ما سمع من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم. وأقوال الأئمة والعلماء، ولعله لم يفعل ذلك خشية أن يظهر أنه لم يكن له حجة

أمام أدلة السنة التي سمعها، رغم أنه عندما بدأ المباحثة تكلم بدعوى التمسك بالسُّنَّة، والدفاع عنها، وترك مخالفتها، والمحافظة عليها، والغَيْرة على أحكامها.

وعندها تذكرت كلام العلامة الآجري السابق في آداب المناظرة، حيث قال رحمه الله « وأعظم من هذا كله أنه ربما احتج أحدهما بسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خصمه فيردها بغير تمييز كل ذلك يخشى أن تنكسر حجته حتى أنه لعله أن يقول بِسُنَّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة فيقول هذا الباطل وهذا لا أقول به فيرد سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه بغير تمييز ومنهم من يحتج في مسألة بقول صحابي فيرد عليه خصمه ذلك ولا يلتفت إلى ما يحتج عليه كل ذلك نصرة منه لقوله لا يبالي أن يرد السنن والآثار » انتهى كلام الإمام الآجري.

أقول: ولقد كان شغل الصحابة رضي الله عنهم والتابعين في أشياء خمسة، قراءة القرآن وذكر الله وعمارة المساجد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالى »[1].

وقد قال الله عز وجل في كتابه الكريم: **﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾**.

---

(1) سنن الترمذي ح(٢٤١٢)، سنن ابن ماجه باب كف اللسان في الفتن ح(٣٩٧٤) شعب الإيمان فصل في فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه وترك الخوض فيه ح(٤٩٥٤) المستدرك ٥٥٦/٢ ح(٣٨٩٢).

ولذلك كان السلف الصالح رضي الله عنهم يقولون فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلامًا وفلان أكثر عملا.

وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل: إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم.

والحديث في الجامع « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم. فقيل: يا رسول الله كيف ذلك؟ قال صلى الله عليه وسلم **يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم؛ فلا يزال بالعلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل** »[1].

وروى الإمام الآجري بسنده في كتابه « الشريعة » في باب ذم الجدال والخصومات في الدين » عن وهب بن منبه قال « بلغ ابن عباس عن مجلس كان في ناحية بني سهم يجلس فيه ناس من قريش يختصمون فترتفع أصواتهم فقال ابن عباس انطلق بنا إليهم فانطلقنا حتى وقفنا فقال ابن عباس أخبرهم عن كلام الفتى الذي كلم به أيوب وهو في حال بلائه قال وهب فقلت قال الفتى يا أيوب أما كان في عظمة الله وذكر الموت ما يكل لسانك ويقطع قلبك ويكسر حجتك يا أيوب أما علمت أن لله عبادا أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بكم وأنهم هم النبلاء الفصحاء الطلقاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت قلوبهم وكلت ألسنتهم وطاشت عقولهم وأخلاقهم فرقًا من الله وهيبة له وإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزاكية لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين

(1) لم أجده في غير الإحياء.

وأنهم لأنزاه أبرار ومع المضيعين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء ناحلون دائبـــون يراهم الجاهل فيقول مرضى وليسوا بمرضى قد خولطوا وقد خالط القوم أمـــر عظيم [1].

قال محمد بن الحسين (أي الإمام الآجري): هذه الأخبار تدل على ما وصفنا به العلماء والفقهاء فإن قال قائل و لم داخل العلماء هذا الإشفاق الشديد وخافوا من علمهم هذا الخوف كله قيل له: علموا أن الله عز وجل يسألهم عن علمهم ما عملوا فيه فجعلوا مسألة الله نصب أعينهم وألزموا أنفسهم شدة الحذر وأخـــذوا بالثقة في كل أمرهم » انتهى.

الآن نحن نرى مع كل مؤمن أعمال الإيمان، مثل الصلاة والزكاة والصوم، وذكر الله تعالى وتعلم العلم والحج، ولكن هنالك صفات للإيمان نحن قد لا نراها وهي ضرورية لقبول أعمال الإيمان من صلاة وزكاة ...الخ

فأعمال الإيمان لا تقبل إلا بوجود صفات الإيمان، التي أولها إخلاص الوجه لله تعالى فيها، وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم أمته أن أول ثلاثة تسعر بهـــم النار عالم ومجاهد ومتصدق، جاءوا ومعهم أعمال الأيمان،التي كانت فاقدة لصفات الايمان و للركن الأصيل فيها، وهوالاخلاص وقصد الله عز وجل بها..

فكان العلم والجهاد والنفقة لنظر المخلوق لا لنظر الخالق ، وكانت الأعمال للسان المخلوق وكلمة المخلوق لا لكلمة الخالق، فيقال لهم يوم القيامة:"فقد قيل" ويسحبون إلى النار أعاذنا الله تعالى وعموم المسلمين منها، فأعمال الايمان لابد لها

(١) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد.

من صفات الايمان،حتى يتحقق لها القبولية وتكون لصاحبها سبيل نجاة..

وعمل الدعوة هو تضحية الشهوات لله تعالى، نضحى بدنيانا لله عز جل ببذل النفس والمال في سبيله، والله تعالى يعطينا ما قدر لنا في خزائنه بمدده الغيبي، إذا وصلت التضحية منا إلى مستوى القبولية من الله تعالى، حينئذ الله عز وجل يظهر مدده ويمنحنا تأييده، ففي بعض الأحيان يكون المدد من الله تعالى والتأييد مباشرة مع التضحية، وفي أحيان أخرى لا تظهر النتيجة فورًا بل تكون لنا ذخرًا عند الله تعالى، نلقاه بها مستبشرين، كما حدث مع سيدنا مصعب وحمزة وكبار الصحابة رضي الله عنهم...

والله عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملا، نحن نُلقي البذور، وقد تظهرالثمرة فى حياتنا وقد يُخرج الله عز وجل الثمرة والنتيجة أحيانًا بعد الموت..

في كل الأحوال التي تحيط بنا، إذا كان الفاعلون هم نحن، فتغيير هذه الأحوال مستحيل، أما إذا كانت إرادة الله تعالى فهو يفعل ما يريد ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾

كل مخلوق مسئول عما يفعل محاسب على أعماله والله عز وجل ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾، وبداية جميع المخلوقات بيده، وإعادة تكوينها إليه، والمثل الأعلى شاهد له في السماوات والأرض بالعزة وعدم المغالبة، وبعظيم الحكمة وإمضاء الأشياء في أكمل محالها وأحوالها ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الروم: ٢٧].

ونحن علينا فقط الجهد بإلقاء البذرة، أما إخراج الثمرة فعلى الله عز وجل كذلك الهداية ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـــونَ ﴾ .
نحن إذا قمنا بهذه التضحية في سبيل الله، ويقيننا خالص لله سبحانه وتعالى حينئذ الله عز وجل يُسخر لنا قوى الباطل، إذا أخرجنا خوف الشيء وأثر الشيء مـــن قلوبنا تسلب قوته، فنتحرك بالرحمة للإنسانية كافة وللبشرية عامة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾

هم الإنسانية في قلوبنا ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾

والنصح للشرية هو ديدننا وعملنا ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُـــؤْمِنِينَ ﴾ ولا يضيع من آذاننا هتاف النبي صلى الله عليه وسلم **"يا رب أمتي أمتي"**

فهو بيان لكمال حرصه ونصحه وشفقته ومحبته لهذه الأمة ﴿ لَقَدْ جَـــاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.
فالإنسان لا يستطيع تكميل شهواته في الدنيا، ولكن مع أمر الله تعالى هو يضحي بالشهوات من أجل تكميلها في الجنة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُـــمَّ اسْـــتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّـــنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ إذا اجتهد الإنسان لتكميل الشهوات في الدنيا فلن يتحصل على هذا، وسعيه يخشى عليه فيـــه الخســـارة،

والقرآن قد بين لنا طريق الفلاح وطريق الخسارة...

نسأل الله تعالى العفو والعافية، وأن يمنحنا حقيقة الإخلاص لـــه، وتجريـــد القصد لطاعته ورضوانه، وصحة العقد في ذلك، وأن يجعل أعمالنا ابتغاء وجهه الكريم..

وأن يرزقنا علمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا وعملاً سديدًا متقبلا ونعوذ بالله تعالى من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع ودعاء لا يسمع وبه نختم هذا الفصل سائلين الله تعالى أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه فلا يلتبس علينا فنضل إنه ولي ذلك والقادر عليه بمنه وكرمه... آمين.

# الواجِبَاتُ الظَّاهِرَةُ والُمحرَّماتُ المَشْهُورَةُ
# كُلُّ المُسْلمِينَ عُلَمَاءُ بِهَا
# وَمِنْهُمْ أَهْلُ الدَّعْوَةِ

عمل الدعوة الأساس فيه هو إحساس المرء بالافتقار التام لرحمة الله تعالى في كل وقت، وعلى أي حال، فالمنطلق الأول في عمل الدعوة هو إصلاح خاصة النفس على أمر الله تعالى وسُنة النبي ﷺ المشرفة ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إذا اجتهدنا في هذا العمل من أجل الآخرين، هم يستفيدون ونحن نخسر، فلابد أن تكون النية المصاحبة لنا في هذا الجهد أننا نعمل من أجل خاصة أنفسنا، إذا غفلنا عن هذه النية قد نقع في مشكلة كبيرة ، لأن الذي يقوم في عمل الدعوة بنية إصلاح الآخرين يجتهد ثم بعد ذلك يترك العمل عند عدم النتائج..

وفي الحالة الثانية يأتي فينا العجب أننا نجتهد وهم لا يجتهدون، فالذي يجتهد في هذا العمل لإصلاح نفسه الله يحفظه فيه، ويحوطه بالرعاية والعناية، ويرقيه في الإيمان درجة وراء درجة، ومرتبة وراء أخرى...

والصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون على أنفسهم من النفاق، فكان نظرهم الأول لإصلاح أنفسهم ،كذلك الذي يخاف في عمل الدعوة على نفسه، ويحرص دائما على إصلاحها، فهذا الذي يستعمله الله عز وجل فيه، ويثبته عليه ويحفظه به، ويسهله معه.. فالداعي إلى الله تعالى مثل التاجر هو يتاجر لمصلحة نفسه، وإن كان الناس به ينتفعون.. والناظر في بعض أعمال أهل الدعوة، عند أدائهم لها، قد يرى بعض الأمور من بسطائهم، التي ظاهرها الفساد، مثل تلعثم البعض عند تحدثه، وعدم فصاحته أمام السامعين، فيظن أن هؤلاء وفق هذه الحالة، وعلى هذه الأوصاف، على خلاف أوامر الشرع وأحكامه...

ولم يدر أنه قد خفي عنه مصالح جليلة، وراء ما يرى بحسب الظاهر من حالهم؟

مما قد يجعل عملهم وفق هذه المصالح من ألزم الواجبات، وأعظم القربات، وذلك عندما يظهر للناظر ما فيه من الحكمة، وما يترتب على عملهم من مصالح جليلة لعموم المسلمين،

وما يتحقق فيه من مقاصد البعثة لهذه الأمة [إنما بعثتم ميسرين و لم تُبعثوا معسرين] [1].

فمن الأمور ما ظاهره الفساد والكراهة، فيحرمه من لم يتبين المقاصد المحققة منه، والحكمة الخافية فيه، والمصالح التي فُعل لأجلها، مع أن حكمه أنه جائز أو مباح في الشرع، ظاهرًا أو باطنًا، عند من علمه وتفطن للحكمة منه، التي توجب حسنه أو إباحته..

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج١٤ ص٤٧٥ :"وقصة الخضر مع موسى لم تكن مخالفة للشرع وأمره، ولا فعل الخضر ما فعله لكونه مُقدرا كما يظنه بعض الناس، بل ما فعله الخضر هو مأمور به في الشرع بشرط أن يعلم من مصلحته ما علمه الخضر، فإنه لم يفعل محرمًا مطلقًا، ولكنه خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، فإن إتلاف بعض المال لصلاح أكثره هو أمر مشروع دائمًا. وكذلك قتل الإنسان الصائل لحفظ دين غيره أمر مشروع، وصبر الإنسان على الجوع مع إحسانه إلى غيره أمر مشروع. فهذه القضية تدل على أنه يكون من الأمور ما ظاهره فساد، فيحرمه من لم يعرف الحكمة التي لأجلها فعل، وهو مباح في الشرع باطنًا وظاهرًا لمن علم ما فيه من الحكمة التي توجب حسنه وإباحته" انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

أقول: وأهل الدعوة قد يتلعثم منهم بعض المتكلمين، كمرحلة أولى لهم في طريق الدعوة وما هي إلا أزمان يسيرة، وإذا بالقدم الضعيفة تنطلق، وبالحروف المُبعثرة تُتوج باقة من أعظم الألفاظ، في التعبير عن عظمة الله وقدرته، وحقائق الإيمان، ومحبة النبي ﷺ وسنته وتعظيمها وتوقيرها، مما يُبهر الآذان ويُحير العقول، كيف تخرج هذه المعاني من البسطاء، ولكنه عطاء الله تعالى، يؤتيه من يشاء، لحسن القصد والنيات، وبركات القيام لعمل النبوة،

(1) صحيح البخاري باب قول النبي ﷺ [يسروا ولا تعسروا] وكان يحب التخفيف واليسر على الناس (ح٥٧٧٧) .

وأداء وظيفة المرسلين، والمحبة والنصح لأمة سيد الأولين والأخرين ﷺ وللرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوبهم، على العصاة والشاردين، فكانوا محلا للمعروف، يُعرفون به، ويرشدون إليه ويحببون فيه...

والذين يقولون أن خروجهم للدعوة بهذه الطريقة مذموم محدث، لأن الصحابة رضي الله عنهم ما خرجوا في جماعات للدعوة، وهؤلاء أهل الدعوة يخرجون في جماعات...

فالجواب على ذلك أن النبي ﷺ بعث القراء وكانوا سبعين قارئًا للدعوة وتعليم القرآن، فقتلتهم قبائل العرب وظل النبي ﷺ يدعو عليهم شهرًا كاملا كما ثبت في صحيح البخاري، حتى نُهي عن ذلك وأنزل الله تعالى عليه ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ فكف النبي ﷺ عن الدعاء عليهم[1].

كذلك النبي ﷺ عندما أرسل معاذًا إلى اليمن أرسل معه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه وقال لهما: [بَشِّرا ولا تُنَفِّرا ويَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا وتطاوَعَا ولا تختَلِفَا][2] وأقل الجمع اثنين كما هو معلوم...

ومن الأدلة أيضًا على خروج الصحابة رضي الله عنهم للدعوة في جماعات ما أخرجه البيهقى عن البراء رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم الى الإسلام قال البراء فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا سته أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . ثم ان رسول الله صلى الله عله وسلم بعث على بن أبى طالب رضى الله

(1) الحديث رواه البخاري باب الدعاء على المشركين (ح٦٠٣١) ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب القنوت في جميع الصلاة (ح٦٧٧) .

(2) رواه البخاري باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه ح(٢٨٧٣).

عنه وأمره أن يقفل خالدا إلا رجلا كان ممن مع خالد، فأحب أن يعقب مع على فليعقب معه . قال البراء: فكنت فيمن عقب مع على . فلما دنونا من القوم خرجو إلينا ثم تقدم فصلى بنا عليٌّ ثم صفنا صفا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت همدان جميعا ،فكتب على الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم . فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدًا ثم رفع راسه فقال : السلام على همدان ! السلام على همدان ! وراواة البخارى مختصرا. كذا فى البدايه ج ٥ ص ١٠٥.

قال البيهقي: رواه البخاري مختصرًا من وجه آخر عن إبراهيم بن يوسف.

ومن الأدلة الواضحة على مشروعية الدعوة الجماعية ما أورده الامام ابن كثير فى تفسير قوله تعالى" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير"حيث قال:( المقصود من هذه الأية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه)انتهى

ومن الأدلة على الدعوة الجماعية أيضا قوله تعالى:"وتعاونوا على البر والتقوى " وفى الأية مشروعية التجمع والدعوة الجماعية بل ووجوبها إذا كان البر لايمكن تحصيله بدون ذلك وقد أشار الامام أبوحنيفة على ماروواه الجصاص عنه إلى ضرورة التجمع على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهي أمثلة من عشرات الأدلة المستفيضة الكثيرة في ذلك، و لم نُرد الاستقصاء لأنه أمر معلوم مشهور في كتب السير والآثار....

ففي هذا إثبات كون الصحابة رضي الله عنهم خرجوا للدعوة في جماعات، وقد يعقب البعض على ذلك بقوله نحن إن سلمنا بخروجهم للدعوة في جماعات، ولكن على أي وصف خرجوا، لأن الصحابة رضي الله عنهم الذين خرجوا للدعوة كانوا علماء، وأهل الدعوة الذين يخرجون الآن للدعوة هم جهلاء، فليس لهم الخروج للدعوة، بل يجلسون إلى العلماء ليتعلموا منهم، وكيف لجاهل أن يدعو وهل عند الجاهل شيء، وفاقد الشيء لا يعطيه...

نقول: إن سلَّمنا بخروج الصحابة في جماعات للدعوة والتعليم، فهذا أول المطلوب، ويبقى الاعتراض الثاني وهو اشتراط كون الخارجين للدعوة أن يكونوا علماء، ومنع أهل الدعوة من ذلك لكونهم جهلاء....

وللجواب على ذلك: نبدأ بالقول بأننا لا نسلم بذلك الاتهام لأهل الدعوة بكونهم كلهم جهلاء، وإغفال المتكلم للآلاف منهم الذين يُعدون بالتوصيف الشرعي علماء متخصصين، والذين يتخرجون من المدارس والجامعات الشرعية التابعة لمراكز الدعوة، بعد الانتهاء من علوم القرآن والحديث والفقه، والمنتشرة باستثناء بلاد العرب في عموم الأقطار والبلاد التي ينشط فيها عمل الدعوة، في آسيا وأفريقيا وأوربا وأمريكا، وغير ذلك من عموم البلدان والقارات..

ولكنهم في دعوتهم ليس لهم دعاية، ولا راية لرجل الدين أو عالم الدين، فمن أصول هذه الدعوة المباركة أنها تدعو إلى عمل الدين، وعمل النبوة، ولا تدعو لرجل الدين...

كما أن العلماء فيها على غاية التجرد والتواضع وإنكار الذات، نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا، بحيث لا تكاد تراهم أو تشعر بهم إلا إذا تكلموا، فإذا ما نطقوا وتكلموا، فحدث ولا حرج، على جودة الاستنباط، وقوة الحجة وفصاحة الدليل، ومع هذا لا التفاف حولهم، ولا ميكروفونات أمامهم، ولا تهليل أو تهويل، أو منابر عالية..

بل يجلسون أمام أي واحد من المبتدئين، يسمعون ترغيبه ودعوته، ويطلبون من الله تعالى أن يفيدهم منه، ولهم في ذلك اجتهاد، أن كل داع إلى الله، ومجتهد لإصلاح أمة النبي ﷺ، فمعه منَّة وعطاء من الله تعالى، إن أحسنا التوجه لطلبه استفدنا منه، وهذا معلوم مشاهد، فقد ترى من بعض البسطاء، من يتكلم في حقائق الإيمان، وتعظيم الله تعالى وأوامره، وتعظيم السنة المشرفة، ما يُحير العقول ويُدهش السامعين..

ويكفيك في أي تجمع لأهل الدعوة في أي بلد، أن تحضر اجتماع العلماء هنالك، لتتعجب من عدد المتواجدين فيه، وهذا في بلد واحد واجتماع واحد، فقس عليه غيره في البلاد الأخرى، ولكن لكثرة أعداد الخارجين في سبيل الله، وكونه عمل عموم الأمة وبسطائها، وتعذر وجود عالم في كل جماعة، رغم أن هذه كانت أمنية مشايخ أهل الدعوة، نظر الناس إلى بعض الدعاة الذين يأتون إليهم، وليس فيهم عالم، فظنوا أن هذا حقيقة وصفهم، وأنهم ليس عندهم في دعوتهم أي علماء، وهذا بعيد عن الصحة، بل الصواب خلافه، فلو كانوا كلهم جهلاء، ما رأينا تحقق هذه المصالح الجليلة للأمة على أيديهم، ولما اندفعت المفاسد بدعوتهم عن المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، دون أخطاء ومصادمات، وشرور ومواجهات، ولما انسابت معهم أحكام الإسلام بسهولة ويسر على الأمة ، ورحمة ولين ورفق، وهذا لا يكون إلا بتوجيه سديد من علماء أكفاء، ومجتهدين مؤهلين عالمين بما يقدمون وما يؤخرون..

خاصة أن القائم بتنفيذ هذه الإرشادات والتوجيهات، هم العوام والبسطاء في الأمة، ومع هذا كان هذا النجاح العظيم، على جميع طبقات الأمة من البسطاء والمبتدئين، وما هذا إلا لقوة أصول علمائهم، وحكمة دعوتهم، وتمكن نظرهم في قواعد الشرع تقديمًا وترجيحًا، فارتفعت عن الأمة بدعوتهم الشرور والآثام، وظهرت على أيديهم في ربوع البشرية سنة سيد الأنام، على كل شرف وواد، وهذا ليس بخاف ولا مستور، بل معلوم مشاهد مشهور، والمنة والتوفيق هي لله تعالى وحده على ذلك، فله جزيل الحمد ووافر الشكر.

أما وصف المعترض على أهل الدعوة لهم بالجهالة على إطلاقها، فنحن لا نسلمه له أيضًا، وندفع كلامه فيه، بنصوص أئمة الإسلام، الذين نصوا على علمهم، وخالفوه في وصفه لهم، ونرجحهم رضي الله عنهم في اجتهادهم، ونرد عليه كلامه فيهم...

فقد نص أئمة الإسلام على أن الآمر بالواجبات المعروفات، والناهي عن المحرمات المنكرات، ينبغي له أن يكون عالمًا فيما يأمر به، عالمًا بما ينهي عنه، إلا أن يكون من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام والزنا والسرقة، فهذه كل المسلمين علماء بها، فعلى هذا يدخل أهل التبليغ والدعوة في هذا الوصف، فهم من عموم المسلمين، الذين هم علماء بالواجبات الظاهرة والجليَّات المعلومة، وهم عند دعوقم الناس إلى الصلاة أو أي من الواجبات الظاهرة، يدعون عن طريق العلم المقرر المتيقن لعموم المسلمين بها، فلو نص إمام عظيم من المجتهدين كالإمام النووي رحمه الله تعالى على أن الواجبات الظاهرة كل المسلمين علماء بها، ثم أتيت أنت لتدعي أن أهل الدعوة لا ينبغي لهم أن يخرجوا، ليدعوا إلى تعظيم الله تعالى وسنة النبي ﷺ وإلى الصلاة والواجبات الظاهرة، بدعوى أنهم جهلاء وليسوا علماء، قلنا لك هذه الدعوة غير صحيحة، وتوصيفك فيها غير سديد، وأئمة السلف الأعلام أول من يخالفك في ادعائك، ويرد كلامك حيث قرروا أن لهم الحق في ذلك لكونه معلومًا من الدين بالضرورة، فلم يبق من هذه الدعوى إلا السراب، لو أتيته لم تجده شيئًا...

والله أعلم بنوايا من أطلق هذا الكلام فيوفيه حسابه فيه، حيث كان لهذا الكلام وأشباهه، الأثر الكبير في صرف الكثيرين من الأمة، عن الدعوة الواجبة عليهم، لكونهم ليسوا داخلين في خطابها، وإليك كلام الإمام النووي في هذا، في شرح صحيح مسلم (باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان) عند شرح الحديث [من رأى منكم منكرًا فليغيره] (1) حيث قال رحمه الله "ثم إنه يأمر وينهى من كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام

(1) صحيح مسلم ح١٨٦.

مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء" انتهى كلام الإمام النووي.

نقول: فهل رأيت كلام الإمام النووي أن الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة، كل المسلمين علماء بها، ومنهم أهل الدعوة فلهم أن يدعو إليها إن كانت من الواجبات، أو ينهو عنها إن كانت من المحرمات، أما دقائق الأفعال والأقوال، وما يتعلق بالاجتهاد، فهذا ليس للبسطاء ولا للعوام مدخل فيه، وهذا الذي يؤكده علماء أهل الدعوة ومشايخهم في جميع أنحاء المعمورة، في إرشاداتهم وأقوالهم، عندما يوصون الجماعات الخارجة للدعوة في سبيل الله بقولهم إذا ما سألكم أحد في الحلال أو الحرام، أو دقائق الأمور، فقولوا له "اسأل العلماء"، وهذا ليس إرشادًا بالكلمات فقط، من قبل علماء ومشايخ الدعوة لعموم أفرادها، بل واقع أهل الدعوة في جميع أنحاء المعمورة هو هذا، بل قد اشتهرت عنهم هذه العبارة "نسأل العلماء"، وعابهم البعض بها، وهي وسام على صدورهم، أنهم لا يتجاوزن قدرهم، ولا يتدخلون فيما لا يُحسنونه، فلم يضلوا أو يُضلوا، بخلاف غيرهم ممن لم يتعلم العلم الكافي، أو يتأهل للبحث والنظر والاستدلال، ومع هذا هو يملأ الدنيا طنينًا، بالفتاوى الشاذة العجيبة، في أدق المسائل، حتى وصل بعضهم بتسرعه أن صار يتكلم في الكفر والإيمان، وما يتبع ذلك من إباحة الدماء والفروج والأبضاع..

وقد سلَّم الله تعالى أهل الدعوة فلم يكونوا كذلك، وما انفرط منهم العقد في هذه الدروب والمسالك، ولزموا غرزهم الذي قرره لهم علماؤهم ومشايخهم، فلم يتكلموا إلا في المعلوم من الدين بالضرورة، والواجبات الظاهرة المشهورة، التي كل واحد من المسلمين عالم بها، كما قرر ذلك الإمام النووي في النص السابق له، فكفوا الناس شرهم، وأمن المسلمون دربهم وطريقهم، أنه ليس فيه الشطط والزيغ، والفتاوى المحمومة، والمواجهات الساخنة، نتيجة شذوذ الاجتهاد، وذلل الفتوى...

أيضًا الذي يزعم أنه لا يخرج للدعوة إلا العلماء، ولا يُبلغ الدين إلا المجتهدين، يرد عليه سنة النبي ﷺ، حيث وقف عليه السلام في حجة الوداع، أمام عموم المسلمين، علماء كانوا أم بسطاء أم أعراب، مخاطبا إياهم: [ألا يبلغ الشاهد الغائب][1] وفيهم الأعراب، وفيهم العوام وفيهم غير ذلك، فإن كان النبي ﷺ قد حمَّل أمثال هؤلاء بالأداء والبلاغ عنه، كلٌّ بحسبه. العالم بحسبه، وغير العالم بحسبه، وأدخل الجميع في الخطاب، فما هو الصوت الذي نسمعه الآن، فيُخرج بسطاء آخر الأمة من عموم الأداء والبلاغ، للجليَّات المعلومة في الدين، ورسول الله ﷺ لم يستثن أحدًا حتى من ليس عنده من المعرفة والعلم إلا "آية"، فقال "بلغوا عني ولو آية"، وهذا النصاب الأدنى قد تجاوزه عموم أهل الدعوة، حيث إن بسطاءهم يحفظون ويعلمون أكثر بكثير من هذا النصاب..

فالدعوة عامة في أحكامها، واسعة في مقاصدها وفروعها، فكل أحد في الأمة يدعو إلى الله تعالى، بحسب ما عنده من العلم والفقه، فالعالم في دعوته بخلاف العامي، ولكن العامي لا يُحرم من الخير، وهو خير الدلالة على الله تعالى، وتعظيمه في آذان السامعين، والدعوة إلى الرسالة، بل له فيها نصيب واف، ويضرب له في فضلها بسهم وافر، ولكنه لا يعدو قدره، ولا يتجاوز حدَّه...

لذلك كان البسطاء من أهل الدعوة في قيامهم إليها مع خفة علوم بعضهم وقلة زادهم، محمودون إن شاء الله من الشارع سبحانه ، طائعون لرسوله ﷺ، لكونهم لم يتجاوزوا قدرهم في دعوتهم، فيتصدرون فيها لدقائق العلم وتفريعات المسائل، فلم ينخدعوا بمقامهم الذي قاموا فيه، ولم يخدعوا غيرهم، الذين توسموا فيهم الفقه والعلم، ومعرفة الفتوى والأحكام..

(1) والحديث في البخاري باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح(٣٢٧٤) بلفظ (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار) ولفظ حجة الوداع "ألا ليبلغ الشاهد الغائب".

فإذا كان العامة من أهل الدعوة، قد قاموا للدعوة إلى تصحيح اليقين، والتوكل على الله سبحانه وتعالى وحده، وطرح اليقين والطلب والقصد على ما سوى الله عز وجل، من المشاهدات والمحسوسات، فقصدوا وطلبوا الخالق وطرحوا المخلوق، وتوجهوا إلى الخالق، ولم يعتمدوا على المخلوق، فدعوا إلى اليقين على الكلمة الطيبة لا إله إلا الله، وتواصوا بحسن اتباع النبي ﷺ، وتعظيم سنته ظاهرًا وباطنًا، وحرصوا على السير وفق طريق النبوة ومقاصد الرسالة، فقاموا في الناس يدعونهم من الدنيا إلى الآخرة، ومن المخلوق إلى الخالق، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن زيف الدنيا وضيقها إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والمقالات الفاسدة، إلى عدل ورحابة الإسلام، فرحموا الناس وحرصوا على فوزهم وفلاحهم، وأعلنوا أمام الناس، أن أساس هذا النجاح والفلاح، هو في امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى، وعلى هدي النبي ﷺ، ورغّبوا في إقامة الصلاة بخشوعها وخضوعها، في أوقاتها وفي الجماعة، ودعوا إلى طلب العلم النافع، وذكر الله تعالى وعدم الغفلة، وإلى إكرام كل مسلم ظاهرًا وباطنًا، وتعظيم حقوق المسلمين، وإلى تصحيح النيات في كل هذه القربات السابقة، لينتفع الإنسان بها، ثم يحثون عموم المسلمين إلى بذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى، وتفريغ الأوقات لذلك، وإحياء هذه الصفات والواجبات، التي كانت عند أصحاب النبي ﷺ في عمومهم...، وكانت لائحة ظاهرة في خصوصهم.

فهذه الواجبات الظاهرة، والجليّات المعلومة التي غالبًا ما يتحدثون فيها، لا تحتاج إلى المتخصصين لنقلها ونشرها، بل هذه لشيوعها وزيوعها وانتشارها،كل أحد من المسلمين عالم بها، ويدعو إليها، ولا يشترط فيها أهلية البحث والاجتهاد حتى تُبلّغ للناس...

أقول: فالشيء الذي يدعوا إليه أهل الدعوة في معظم كلامهم، هو الخير والإيمان، وما يتعلق به من الواجبات الظاهرة، والجليات المعلومة، وهم لا يتعرضون في دعوتهم، لدقائق الأفعال والأقوال والمسائل، وما يتعلق منها بالاجتهاد، لذلك حسن منهم ما يؤدون من خير

ومعروف، علماء كانوا أم بسطاء، ولم يُشترط في دعوقم المجملة للإيمان والواجبات الظاهرة، أن يكونوا علماء متخصصين، أو مجتهدين نابهين..

بخلاف الأمر بالمعروف والنهي عن بعض أنواع المنكر ومراتب الحسبة في دقائق الأمور، فإنها تحتاج إلى حذاق من أهل العلم، الذين يوازنون بين المصالح والمفاسد فيها، فيُقدمون المصالح ويؤخرون المفاسد، حتى لا يخرج أمرهم ونهيهم إلى ما هو مذموم في الشرع، إما تحريمًا أو كراهة، ولأن الموازنة بين الأمر أو النهي أو السكوت، يحتاج إلى فقه عميق، وعلم دقيق، حتى لا يأمر بمعروف فيجلب من ورائه المنكرات، أو ينهى عن منكر فيفوت به المصالح الجلّيات، أو يتطاير من أمره ونهيه الشرر والفساد، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وكل ذلك لابد له من ضوابط، وأن لا يخرج عن القواعد، التي تمرس بها المتخصصون..

قال العلماء( البعض في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير العلماء الربانيين قد يذمون غير مذموم، والبعض الآخر قد يجاوزن الحد في الشيء ويسرعون بالإنكار إلى كل شيء، لغلبة الجهل عليهم وقلة مجالستهم للعلماء المتخصصين، فينكرون غير منكر ويتعصبون بالبغضة والهجر في الشيء اليسير، الذي قد يُغتفر مثله، وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق، ولا موسومين بالبشاشة والإنطلاق، إذ فيهم كزازة وتغليظ على الناس، وفيهم كثرة مقت لأهل البشر والطلاقة، ولذلك قالوا: الشريف إذا تقرى تواضع، والوضيع إذا تقرى تكبر، وقال آخرون: عادة السفلة إذا تقرى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه في كل شيء، يعني أكثر الأمر بالمعروف ليعرف به، فمن أجل ذلك رفضهم العلماء، وذمهم الحكماء، لأن العلم يبسط ويوسع وتكون معه الأخلاق الحسنة، والآداب والمروآت الواسعة، والعالم يضع الأشياء في مواضعها من الناس ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعاذير) انتهى.

وقد فصلنا الكلام في ذلك في كتابنا" نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة"ج٥ "مفهوم تغيير المنكر".

ولقد كان ضياع الأركان والواجبات الظاهرة في الأمة، سببًا في قيام هؤلاء البسطاء النابغين من أهل الدعوة للترغيب فيها، وقد رغّب أهل العلم في هذا القيام وفق هذا الحالة، حيث قالوا رحمهم الله "عند ضياع الأركان ينبغي لكل أحد أن يدعو إلى الأركان يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم ذكرهم وأنثاهم كبيرهم وصغيرهم".

فسوغ العلماء عند فقد وضياع أركان وواجبات الدين الظاهرة، من شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا، لكل أحد في الأمة المسارعة إلى إقامتها، والدعوة إليها والتمسك بها، وجعلوا مسئولية ذلك على كل أحد في الأمة العالم والجاهل كل بحسبه، والذكر والأنثى والكبير والصغير.

نسأل الله تعالى أن يمن على أمة الإسلام، للقيام على مقصد وجودها، وشرف مسئوليتها ووظيفتها، لترشد عموم البشرية إلى طرق الفوز والنجاح الأبدية، وأن يحقق فينا خيرية الدلالة عليه وتعظيم أمره واتباع حبيبه وخليله

ورسوله ﷺ.... آمين.

# آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ فِي تَحْصِيلِهِ

الإيمان أكبر ضرورات الإنسان ،وقد جعله الله تعالى ثمرة للجهد والطاعة ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ .

وجهد الإيمان عند الصحابة كان غالبًا على كل الجهود ،فالصحابة رضى الله عنهم كان عندهم مقتضيات الدنيا من المال والأولاد ،ولكنهم قدموا مقتضى الدين على دنياهم ، كل إنسان فى قلبه محبة المال والأولاد، ولكن الصحابة رضى الله عنهم كان حب الله تعالى هوالغالب فى قلوبهم على كل شيء...

عندما لا يكون هناك جهد للإيمان يخرج الدين من حياة الناس، ويقتل الأخ أخاه

فالأصل أن نغير اتجاة جهدنا ،فمع العبادة وأهميتها ،لابد أن يكون هناك الدعوة إلى الله تعالى ،حتى يحيا فى القلوب عظمة الخالق ،فتحيا بعد ذلك فى الناس عظمة أوامره وبالدعوة إلى الله تعالى يمن الله علينا بأن نقدم مقتضى ديننا ،على مقتضى دنيانا...

نحن نجتهد على مقصد وجودنا ،والله تعالى يحيي دينه ويفعل بإرادته كل شي. .

فاذا قمنا على مقتضى الدين و لم ننغمس بكامل جهودنا على مقتضى دنيانا ،وتيقنا على موعودات الله تعالى ،فالخالق عز وجل بعد ذلك يظهر أمره...

الآن نحن ننظر بالخوف إلى أحوالنا ،كيف العمل؟ كيف الأموال؟ كيف الأولاد؟ مع أننا إذا امتثلنا أمر الله تعالى باليقين على موعوده ،فالله عز وجل يوفى لنا موعوداته ،فعنده خزائن كل شيء العزة والراحة والطمأنينة...

ولأن كلام الإيمان محله القلب، فلا بد أن نتفكر كيف ينتقل فينا من السطور إلى الصدور، هذا لا يكون إلا بالجهد والتضحية، عندها كل قوى الباطل الموجودة الآن تتضاءل وتضمحل وتتلاشى، إذا كانت قوة الله معنا...

﴿ **قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾.

وهذه القوى تكون هباءً منثورًا عندما تكون قوة الله معنا، ترمي بعزها صولة الباطل ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾.

ولكن متى تكون قوة الله معنا؟ نقول عندما تكون قوة الإيمان معنا « وأن الله مع المؤمنين ».

وما زال السؤال يتردد وكيف تكون قوة الإيمان معنا؟ هذا يتحقق بالدعوة إلى الله تعالى وبذل الجهد ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ .

﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾.

وقد حذر أئمتنا رحمهم الله تعالى السالكين في طرق العلم المضيئة ، أن تكون بواطنهم مظلمة بقبيح الصفات، كاسفة بمذموم الأوصاف، وأن يكون حظهم من العلوم لقلقة اللسان، حيث يجري الحق على الألسنة أبلجا واضحًا، وعند النظر في الأعمال والجوارح يُكَشر أمامنا الباطل بأنيابه، فكانت الكلمات تحكي الحسنات، أما

الأعمال فتصرخ بالسيئات، فيخشى على من هذا حاله ، أن يحط الرحال بعمله في غير منازل المتقين، وأن يطرد عن مجالسة الصالحين قال بعض الحكماء: « ويل للقائلين بالحق العاملين بالباطل، الذين قالوا الحسنات وعملوا السيئات، كيف قولهم إذا خالفوا أمر الله نزلوا بأعمالهم منازل المجرمين ».

فالواجب هو إحكام رأس العلم وهو الإيمان بالله تعالى، الذي تتحصل منه عموم صفات التقوى، ويؤدي إلى امتثال الأمر وتعظيم الآمر، والاهتداء إلى الهدى، فالعالم الصالح العامل بعلمه، المعظم لجلال وصفات ربه، يصلح بكلمة واحدة أهل بلدة، وعالم السوء الضائع في زخرف الكلمات، التارك للعمل في الخلوات، يفسد بصورته أهل بلدة فضلا عن سيرته...

فكم من متعلم طال تعلمه وتحصيله ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة أوحرف،وكم من مقتصر على المهم فى التعلم متوفر على العمل والتقوى ومراقبة نيته وقصده فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الألباب

وعن أبي عبد الرحمن المقري في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ** ﴾.

قال لذو عمل بما علمناه، فقلت: يا أبا عبد الرحمن ممن سمعت هذا قال من ابن عيينة قلت حسبي ».

وفي شعب الإيمان ج ٢ ص ٢٩٤ عن عبد الله الرازي « دلائل المعرفة العلم والعمل بالعلم والخوف على العلم ».

وإليك ما قاله الامام أحمد بن عجيبة في كتابه « تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال » وهو يؤسس لطالب العلم في خروجه كيف يصير عالمًا وفق المقاصد المحمودة التي يحبها الله عز وجل منا،ويطلبهارسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، فقال رحمه الله تعالى: « نيات الخروج في طلب العلم » لا شك أن الخروج في طلب العلم قربة عظيمة وقد يكون واجبًا، ومندوبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **من سلك طريقًا يلتمس فيها علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة** » رواه مسلم وغيره[1]

وقال صلى الله عليه وسلم: **ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع** » رواه الترمذي[2].

وهذا إن خلصت فيه النية و لم يقصد به الرياسة والظهور على الأقران أو يقصد به التوصل إلى حطام الدنيا ونيل مرتبة من مراتبها من قضاء وعدالة أو التواصل إلى الأمراء والسلاطين وإلا فقد حبط عمله، وضل سعيه و لم ينتفع بعلمه في الغالب إلا أن يتداركه الله بالتوبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به**

(١) أخرجه البخاري في العلم، وأخرجه مسلم في الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ح(٧٠٢٨)، وأبو داود في الأدب باب الحث على طلب العلم ح(٣٦٤٣): والترمذي في العلم باب فضل طلب العلم ح(٢٦٤٦)، وابن ماجة في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ح(٢٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي في العلم باب فضل الفقه على العبادة ح(٢٦٨٢)، وابن ماجة في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ح(٢٢٦). المستدرك للحاكم بنحوه ح(٣٤٠، ٣٤٣) كتاب العلم.

وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[1]: يعني ريحها رواه أبو داود.

وقال صلى الله عليه وسلم: « **من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار** »[2] وقال صلى الله عليه وسلم « **من تعلم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار**»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن أناسا من أمتي سيتفقهون في الدين يقرءون القرآن يقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يجتني من العتاد إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا (قال ابن الصباح كأنه يعني) الخطايا** »[4] رواه ابن ماجة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول الناس يقضي عليهم يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى**

(١) أخرجه أبو داود في العلم باب في طلب العلم لغير الله تعالى ح(٣٦٦٦)، وابن ماجة في المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به ح(٢٥٢). الحاكم ١/١٦٠ ح(٢٨٨)، مسند أحمد ٢/٣٣٨ ح(٨٤٣٨).

(٢) رواه الترمذي كتاب العلم باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا ح(٢٦٥٤).

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في العلم باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا ح(٢٦٥٥) والنسائي باب من تعلم العلم لغير الله ح(٥٩١٠)، وابن ماجة في المقدمة.

(٤) سنن ابن ماجه باب الانتفاع بالعلم والعمل به ح (٧٥٨٠).

**ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار »**[1].

قال الترمذي في هذا الحديث ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتيه فقال **يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة.**

قال ابن عبد البر: « هذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه وعمله وجه الله تعالى » انتهى.

قال محمد بن عباد رضى الله عنه :« والغالب على طلبة العلم في هذه الأمصار الوصف المذموم، لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم وأصمهم وأعماهم، ولذلك أمارات وعلامات لا تخطئ ولا تخفى » ا.هـ ثم أطال في ذلك فيتعين على طالب العلم أن يخلص نيته لله، فينوي بعلمه امتثال أمر الله في قوله تعالى ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ح(٥٠٣٢)، والنسائي في الجهاد باب بيان النية التي يقاتل عليها ليكون في سبيل الله عز وجل ح(١٨٣٣٠) ورواه الترمذي وحسنه باب الرياء والسمعة ح(٢٣٨٢)

وينوي امتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

« **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » [1]

وقوله « **اطلب العلم ولو بالصين** » [2] .

وينوي القيام بفرض الكفاية عن المسلمين فيثاب على هــذه النيــات وثــواب الواجب.

وينوي الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ليكون على نور من ربه وعلــى بصيرة من دينه.

وينوى الوصول إلى معرفة الله عز وجل ومعرفة أحكامه ليمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ولا طريق لمعرفتها إلا بالعلم، وينوي الوصول إلى معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتتبع سنته وينال محبته فيذب بعلمه عن شريعته من يريد تغييرها أو يحدث فيها ما ليس منها فتتحقق له الوراثة في قوله صلى الله عليه وسلم: « **العلماء ورثــة الأنبياء** »

وينوي الوصول إلى محبة الله تعالى ورضوانه وخدمة الملائكة له لقوله صــلى الله عليه وسلم: « **من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له بابا إلى الجنة وفرشت له**

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلــم ح(٢٢٤)، الطــبراني في الأوسط ح(٢٤٦٢).

(٢) أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب وقال البيهقي متنه مشهور وأســانيده ضــعيفة البيهقي ح(١٦٦٣).

**الملائكة أكنافها، وصلت عليه ملائكة السماوات وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهمًا ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد، وهو نجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم »** رواه أبو داود.

وينوي به الوصول إلى إتقان عبادة ربه فإن الله لا يعبد بجهل، وعبادة الجاهل في حجره فإذا قام سقطت.

وينوي به الوصول إلى الدرجات العلى من الجنة لقوله تعالى ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾.

قال ابن عباس في تفسيرها: « **يرفع العالم فوق المؤمن بسبع مائة درجة بين كل درجة كما بين السماء والأرض** »[1] اهـ.

وينوي به نصرة هذا الدين بإظهار العلم وقمع الجهل وإظهار السنة وإخماد البدعة، وينوي أن يعمل بكل ما تعلمه وسمعه ويرغب عباد الله في مثل ذلك فيحصل له أجر الدلالة والعمل والله ذو الفضل العظيم.

انتهى باختصار كلام العلامة ابن عجيبة.

---

(١) رواه ابن عجيبة في البحر المريد ٦/٢٧٠.

وقد بين الإمام الغزالي في الإحياء ج ١ ص ٥٥ آداب المتعلم في تحصيله لعلوم الشرع الشريف، ووظائفه الظاهرة والباطنة، والتي من خلالها يتحصل على الثمرات المرجوة، والنتائج السديدة ، بما لا مزيد عليه فقال رحمه الله تعالى ما ملخصه:

« أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السِّر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبات فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

قال الله تعالى -إنما المشركون نجس- تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أي باطنه ملطخ بالخبائث والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل » انتهى ملخصه.

ثم قال الإمام الغزالي ص ٥٥: « واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية .

فإن قلت كم من طالب رديء الأخلاق حصَّل العلوم فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا إنما الذي تسمعه من المترسمين حديثًا يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء قال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب، وقال بعضهم إنما العلم الخشية لقوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله أن العلم أبى وأمتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

فإن قلت إني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا في الفروع، والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها. فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علمًا وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى .

**الوظيفة الثانية:** أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع.

الوظيفة الثالثة:

أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته قال الشعبي ( صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد بن ثابت يده وقال هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم )

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان فلذلك قيل:

**العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي**

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهمًا ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول

المنة وليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر -إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا- ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال -

﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران. فإن قلت فقد قال الله تعالى- ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ - فالسؤال مأمور به فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال أي دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف وما لم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقبي الدرجات لا يدخل أوان السؤال منه.

وقد قال علي رضي الله عنه إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشي له سرًّا ولا تغتابن أحدًا عنده ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه

لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ولا تجلس أمامه وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

**الوظيفة الرابعة:**

* أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغي أن يتقن أولا الطريقة الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك تصغي إلى المذاهب والشبه وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ومن هذا حاله يعد في عمي الحيرة وتيه الجهل » انتهى ملخصا.

ثم ذكر الإمام الغزالي ص٥٧ بقية آداب التعلم فقال **الوظيفة الخامسة**: أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾.

قال الشاعر:

**ومن يك ذا فم مر مريض　　　يجد مرا به الماء الزلالا**

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعًا من الإعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود والقوام بها حفظه كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى.

* **الوظيفة السادسة:** أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعه بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبًا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة) انتهى.

ثم قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في ص٥٨ موضحا أشرف العلوم:

* « وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئًا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء وفي يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

**الوظيفة السابعة:**

* أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريًا وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج قال الله تعالى ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ** ﴾ أي لا يجاوزون فنا حتى

يحكموه علمًا وعملا وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه فينبغي أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطـأ واحـد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب عليهم بالعمل فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها وقد مضى كشف هذه الشبه في كتاب معيار العلم وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه مـن طبيب وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانـه لخطأ اتفق لآخر والكل خطأ بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم يستقل بالإحاطة بل كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه لا تعرف الحق بالرجـال اعرف الحق تعرف أهله.

**الوظيفة الثامنة:**

أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وأن ذلك يراد به شيئان أحدهما شـرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحيـاة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف ومثل علم الحسـاب وعلـم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كـان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى ولـذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عـز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك وأن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه.

**الوظيفة التاسعة:**

* أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران » انتهى.

ثم ذكر الإمام الغزالي ص٥٩ الأدب الأخير من آداب التعلم حيث قال رحمه الله:

**الوظيفة العاشرة:**

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا مترلا والبدن مركبا والأعمال سعيًا إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم أعني النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذي يعلق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعًا وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل: الأول: تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة والثاني السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة مترلا بعد مترل والثالث

الاشتغال بأعمال الحج ركنًا بعد ركن ثم بعد الفراغ والتروع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ومن أول سلوك البوادي إلى آخره ومن أول أركان الحج إلى آخره وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه) انتهى ملخصا كلام الإمام الغزالي.

في الأعمال الصالحة أسرار عجيبة لا يعلمها الإنسان، وفي الأعمال الفاسدة مصائب عظيمة ولكن لا يراها الإنسان، في الأعمال الصالحة الجنة وأنهارها، وقصورها وثمارها، وحورها وظلالها، وفوق ذلك المزيد وهو رؤية المولى عز وجل في الجنة ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ والإنسان لا يرى كل ذلك، وفي الأعمال الفاسدة النارُ وحَيَّاتها، وزقومها وسعيرها وعقاربها وأغلالها والإنسان كذلك لا يرى كل ذلك.

وأعمال الإنسان لا تكون صالحة إلا إذا كان عنده الإيمان، والقوة في هذا الإيمان لا تأتي إلا بالإخلاص ، وقصد المولى عز وجل وحده فيها، كذلك الأعمال لا تكون صحيحة إلا إذا استعملها الإنسان على هدى النبي صلى الله عليه وسلم، أما إذا كانت على غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم، هنا تكون الخسارة ...

اللهم ارزقنا نور العلم ، الذى يكون سبيلا للتوفيق للعمل أثناء وقت العمل ، والذى نعظم به الاوامر العليا من الله عز وجل ورسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى يحملنا على الامتثال التام والانقياد لما يحب ربنا ويرضى...آمين

# العلمُ الأقصى

نحن نحتاج حتى نرى الأشياء إلى الوجود والتكوين والخلق، والله تعالى لا يحتاج حتى يرانا إلى وجودنا، ولا إلى خلقنا أو تكويننا، بل هو يرانا في الغيب كما يرانا في الشهادة (عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير)

فالله تعالى رأى خلقه قبل أن يخلقهم، ورآهم بعد أن خلقهم وتصورت هياكلهم وأشباحهم، ويراهم بعد موتهم وفنائهم كما قال عز وجل( الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين)

لذا ذم الله عز وجل الذين توجهوا إلى غيره ممن وصفه بالنقص وعدم الكمال، لأن ما سواه هو عاجز عن أن يرى الغيب وما فيه (أم عنده علم الغيب فهو يرى)

فعلم الغيب مقصور على الله تعالى، وعلى من أرتضى من رسله وخلقه (عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا إلا من أرتضى من رسول)

( وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو)

فالعالم بخلقه هو وحده القادر على تدبير شئونهم، وعلى تصريف أحوالهم، فهو المستحق وحده للطلب والقصد والتوجه والدعاء..

والله عز وجل يعجبه من عباده التذلل والاستغاثة، ويحب منهم ذلك ويجيبهم عليه (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) فباب الاستجابة الاستغاثة به سبحانه فى كل وقت،والتوجه إليه على كل حال، فى الحاضر والمآل...

والله عز وجل أرسل رسله عليهم السلام بالعلم الصحيح الذي هو علم الهدى، علم الخالق، ولقد حرص أئمة الإسلام عند نصحهم وإرشادهم للأمة، على بيان هذا العلم الأقصى الأرفع المتبوع ، وهو العلم بمالك الملك والملكوت، وصفاته وأسمائه ، وعزته وأفعالة، وقدرته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، وتوحيده وعبادته، فهذا العلم هو الغاية لسائر العلوم ، وكل العلوم توابع ومقدمات تراد وتقصد وترتجى من أجل هذا العلم ، فهو العلم الأقصى المقصود لذاته لا لغيره ، لأن فيه السعادة الأبدية التي يتحصل عليها الإنسان من معرفته بربه ومولاه ...

والله عز وجل قد أمر حبيبه وخليله محمدًا صلى الله عليه وسلم بتكبيره وتعظيمه فقال عز من قائل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي بين كم ربك قدير وعظيم، وصغر أمامه كل الأشياء، كبر الله تعالى حتى يخرج من قلبك عزة الأشياء، فالمخلوق لا يمثل شيئًا أمام عظمة الله تعالى « الكبرياء ردائي والعظمة أزاري من نازعني أحدهما عذبته ».

ففي الكرم الله أكبر، وفى رحمته الله أكبر، وفي العطاء الله أكبر، وفي كل صفة الله أكبر، وفي البطش هو تعالى أكبر ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

المطلوب منا أن نكبر الله تعالى، حتى يخرج من قلوبنا كبرياء الأشياء، ويأتي في قلوبنا كبرياء الله تعالى الذي هو المقصود منا ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الجاثية ٣٦: ٣٧

وهذا الذي نصفه ونشير إليه، من العلم بالله تعالى أو العلم الأقصى، هو زبدة علم التوحيد، من معرفة قيومية الله تعالى على خلقه، ومجارى حكمته، وكمال قدرته وعزته، ونفاذ مشيئته وأقداره، وتحقق العباد بصفات العبودية له سبحانه وحده لا سواه، توكلا وإنابة، وخشوعا وخضوعا، واستعانة وطلبا، واستغاثة وتوجها، ومحبة وإخلاصا...

ولقد كان للسلف الصالح رحمهم الله تعالى وسائل متعددة، وأساليب شتى، وطرقا محددة، يتواصلون بها مع هذا العلم، معها يظفرون بتحصيله، وعليها يعكفون ويحرصون، ورزقهم الله عز وجل بتدارسها درجات الإيمان واليقين والمعرفة...

فمنها علم الكتاب والسنة، وعلم طلب الحلال في المكاسب والمعاملات، وعلم الإخلاص بتعظيم نظر الخالق وإهمال نظر المخلوق، وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال، وعلم نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين سكون القلب بالله، وسكون النفس بالأسباب والوسائط، والتحقق بصفات العبودية، من كمال الخشوع والخضوع والطاعة، والإمتثال والإنقياد لجميع ما يحبه الله عز وجل ويرضاه...

وهذا العلم الأقصى من رحمة الله تعالى أن جعله عزيزا إلا على أهله، مصونا عمن هو ليس حقيقا به، أو متأهلا له جديرا بعلومه...

لذلك قرر العلماء أن كل علم من العلوم، قد يتأتى حفظه ونشـــره لمنـــافق أو مبتدع، إذا رغب فيه وحرص عليه، وقام لتحصيل أدواته وإحكام شروطه وأركانه وحدوده، لأنه نتيجة الذهن ،وثمرة العقل، إلا علم الإيمان والتوحيد واليقين، لأنه لا يتمكن من ذوق حلاوته، ومشاهدة حقائقه، والكلام والتعبير عنه ووصفه إلا لمؤمن موقن مصدق، وتكون المشاهدة والحلاوة والوصف أثر لكمال الإيمان، وحقيقة العلم وتمام اليقين...

فهي آيات الله تعالى، يظهرها ويبديها لمن اصطفى من عباده، دلالة على جلال عظمته، وكمال قدرته وقيومته ، وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهـــده لا ينال الظالمين، وقدرته وقيومته لا يقدرها من هو من الزائغين الحائرين (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)

فالواجب علينا في كل وقت أن نؤمن بالله كما هو بقدرته ونصرته السماوية، ولا نقصد أو نتوجه إلىسواه"أليس الله بكاف عبده"، ونصدق ما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء وافق عقولنا أم خالفها...

وقد صرف الله عز وجل أهل الكبر والغفلة عن تدبر آياته، حتى مع رؤيتهم لها رأي العين، وإذا رأوا طريق الهدى والسداد لا يتبعوه، وإذا رأوا طريق الضلال والفســـاد يسيرون فيه، وذلك شؤمه من التكذيب بآيات الله عز وجل، والشـــك في لقائــــه، والغفلة عن أوامره قال الله تعالى( سأصرف عن آياتى الـــذين يتكـــبرون فى الأرض بغيرالحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن

يرو سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين.)

عن جابربن عبدالله رضى الله عنه قال:"لاتجلسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من خمس إلى خمس من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الاخلاص ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة"

وقد حرم الله عز وجل من هو من المبطلين عن الانتفاع بآياته ( ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا إنا موقنون )

( وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ) لأنه لا صدق عندهم ولاتسليم، فلوفتح عليهم فى هذا العلم الأقصى لالتبس شكهم بيقين أهله، الذين هم قدوة المخلصين، ولاشتبه باطلهم بحق أهل الصدق المذعنين المخبتين..

وفى ذلك دفع لآيات الله تعالى وانتقاص لبراهينه، وهذا من أقوى الأدلة على فضل علم التوحيد والايمان واليقين على كل ما سواه من العلوم...

قال العلماء : ففى علم التوحيد والايمان عوض من كل العلوم، رغم أهميتها وضرورتها، لأنه حقيقة العلم وثمرته، وليس فى جميع العلوم عوض من علم الايمان والتوحيد واليقين، من حيث كان فى الله تعالى عوض به عن كل ما سواه..

وكل علم موقوف على معلومه، وعلم الايمان واليقين معلومه الله تعالى، ففضله لايحيط بعلمه الا الله عز وجل وحده، وهو الموفى أصحابه أجورهم، ومانحهم درجاتهم، والمتفضل عليهم بعطاياه..

وقد قال بعض الحكماء فى هذا المعنى : (من عرف الله تعالى فماذا جهل ومن جهل الله تعالى فماذا عرف)

وقال آخر : (من عرف الله تعالى فقد عرف كل شئ ومن جهل الله فقد جهل كل شئ)

فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء والرسل ، لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة اليه، وتعظيمه وتقديسه أمام العباد ، والتوكل عليه وقصده وعبادته وحده دون سواه، وقد حسَّن الله تعالى أقوالهم وزكّى أعمالهم وذلك بقوله عز وجل (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين).

والعلماء بالله تعالى يحشرون يوم القيامة مع الأنبياء، لأنهم أسبق الناس الى طاعة الله تعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم أصدق الأمة وأصلح صالحيها بعد نبيها صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

حيث حفظوا كلامه وفهموا معانيه، وعرفوا ما أمره ونهيه فيه،فقاموا للشهادة على مقاصده ومراميه، قال تعالى (بما استحفظوا من كتاب الله وكانو عليه شهداء)

لذلك وصفهم الله تعالى بقوله (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم)

وقال سبحانه وتعالى فى التنويه بهم (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين)

وقال عز من قائل مثنيا عليهم (قد بينا الآيات لقوم يوقنون)

وقال ممتنا عليهم بالفهم فى كتابه، وكشف كنوزه وأسراره(ولنبينه لقوم يعلمون) فهولاء هم العلماء الربانيون الذين ذكرهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديثه (الناس ثلاثة عالم رباني) يعني عالما بالربوبية، فنسبه إلى الرب، كما سماهم الله عزوجل في قوله (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) فسمي العالم بكتابه ربانيا، والدارس له ربانيا، والمبين والناشرله ربانيا، فهذا قد جمع العلم والعمل...

وكذلك يقول العالم الرباني هو الذي يعلم الناس الخير، قال (فذلك الذي يدعي عظيما في ملكوت السماء) وقال تعالى في تقدمهم على من في ليس علي وصفهم

(لولا ينهاهم الربانيون والحبار) فقدم الربانيين على الأحبار وهم علماء الكتب، وقد ضمهم لله تعالى إلى أنبيائه في النصرة له، والصبر معه في قوله تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين).

وأول علم التوحيد والعلم الأقصى، العلم بلا إله إله الله أي لا معبود بحق إلا الله بإثبات صفاته القائمة بذاته، من صفات العزة والقيومية والكمال والجلال، وسائر أسمائه وصفاته العلى، ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، وهذا كله داخل في علم شهادة أن لا إله إلا الله وإفراده سبحانه بتوحيد الألوهية أو العبادة، أي توحيده عزوجل بأفعال العباد، من التوكل والاستعانة والخشوع والخضوع والطاعة والدعاء،إثباتا وتحقيقا، وطرح ونفى كل ما سواه من الأنداد الذين اتخذهم الناس شركاء من دونه، مع إفراده أيضا بتوحيد الربوبية وهو توحيد الله تعالى بأفعاله، من الخالقية والرازقية والإحياء والإماتة...

وهذا العلم أي علم الإيمان والتوحيد، هو مع كل مؤمن موقن حسن الإسلام، وهو درجته عند الله عز وجل، وحاله بين يدى مولاه، ونصيبه منه في درجات الجنة، به يكون من المقربين عنده...

والعلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لا يفترقان، فالعلم بالله تعالى هو ميزان الإيمان، وبه يظهر زيادته ونقصانه، لأن العلم نهج الإيمان يكشفه ويظهره، والإيمان أساس العلم يهيجه ويشعله، فالإيمان مدد العلم وبصره، والعلم قوة الإيمان ولسانه، وضعف الإيمان وقوته ومزيده أونقصه، يستدل عليه بزيادة العلم بالله عز وجل أو نقصه، أو قوته أو ضعفه...

وقد قال سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما مات عمر رضي الله عنه "إني لأحسب أنه ذهب بتسعة أعشار العلم فقيل له تقول هذا وفينا جلة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس أعني العلم الذي تريدون إنما أعني العلم بالله" فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم وفضَّل العلم بالله تعالى بتسعة أعشارها...

ولما كان العلم بالله تعالى والتوحيد على هذه المرتبة العليا، والمترلة الشريفة، كان السعي لتحصيله، والدأب في سبيله، من أجل القربات وأسمى الطاعات، فبه يتضح منار الحق وأسس الحقيقة..

قال أئمتنا رحمهم الله تعالى: فالعلماء بالله تعالى يردون علم المعقول بعلم اليقين، وعلم الرأي بعلم السنة، ويثبتون أهل الآثار، ويؤيدون نقلة الأخبار، بما يُفصَّلون من أخبارهم، ويفسرون حديثهم، مما لم يهتد الرواة إلى استيفاء معانيه، واستنباط أحكامه، واستخراج درره...

وذلك بما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والتعديل في قوله (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) وذلك فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).

فالعالم بالله عز وجل يتكلم في علم الإيمان واليقين، وفي علم القرآن والسنة والحث على مصالح أعمال الدين، بأمر من الله تعالى أذن له في ذلك بقوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقد كان سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه وغيره يقولون لولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثتكم بحديث أبدا ثم يتلو هذه الآية والتي قبلها ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أتى الله تعالى عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينه ولا يكتمه)...

**نقول:** فأشد الناس حُبًّا لله تعالى هم العلماء به، المعظمون لأمره، والناشرون لسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، وهم أترك الناس منازعة له في معاني الصفات التي وصف بها ذاته سبحانه، مثل الكبرياء والعجب والحمد وحب المدح والغنى والعز وطلب الذكر.. إلى غير ذلك

وهم مع هذا من أحسن الناس أخلاقا، ومن أشدهم عملا على إتمامها وإكمالها فى المسلمين تشبها بأخلاق سيد المرسلين"إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق" ، ومن أكثر الخلق دعوة لهذه الأخلاق ونشرها وأحيائها في العالمين..

مثل خلق الحلم قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم وهو يرشد صحابته وعموم أمته إلى كمال هذا الخلق "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة"

ومثل خلق العلم "**إن الله وملائكته ومن في السماوات ليصلون على معلم الناس**

الخير" ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾

ومثل الرحمة بعموم الخلق ﴿نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ "**لله مائة رحمة أمسك منها تسعة وتسعون**" "**الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**"

ومثل الستر على عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم لينال بذلك الستر الجميل في الدنيا والآخرة "**من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**"

كذلك التسهيل على المسلمين، وعدم التعسير والتضييق عليهم ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ ﴿يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾

وتأسيسا على ذلك وضع الأئمة هذه القواعد الجليلة، التى تحفظ لنا هذه المعانى، وتعبر عنها مثل : "**الأمر إذا ضاق اتسع**" "**ولا تكليف إلا بمقدور**" "**والمشقة تجلب التيسير**" " والميسور لا يسقط بالمعسور"

ومن أعظم هذه الأخلاق للعلماء بالله تعالى محبة التوبة لعموم البشرية وسائر الإنسانية، بمعرفتها لربها وعودتها لخالقها وزكاتها وطهارتها والفرح بذلك لفرح المولى عزوجل به﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ "**لله أفرح بتوبة أحدكم**" إلى آخر الصفات والأخلاق، التي يحبها الباري ويحب من تخلق بها، مما يضعف البنان عن الوصف فيه، ويضيق المكان أن يحويه..

نسأل الله تعالى أن يهبنا جميل السجايا، وكريم الأخلاق التى نتطهر بها

عن أرازلها، ونزكو معها في أرواحنا وأنفسنا،

ونحبب بها عباده فيه سبحانه، وندلهم بها عليه عز وجل،

وأن يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، وأن ينفعنا بما علمنا،

وأن يوفقنا الإخلاص القصد له، وصدق النية معه،

وأن لا يقطع عنا العون والمن والعناية والرعاية،

وأن يستعملنا ويستخدمنا للدلالة عليه، ولخدمة دينه،

وتعظيم سنة حبيبه صلى الله عليه وسلم والعمل بها،

وأن يصلحنا من كل وجه الصلاح الذي يرضاه والذي لا حدّ لمنتهاه،

وأن يرزقنا نور العلم الذي يُرشدنا به إلى طاعته ورضوانه،

ويهدينا به إلى أكمل الأعمال وأتم المقاصد وأخلص النيات ..

اللهم اغفر لنا وارحمنا، وارض عنا وتقبل منا، وأدخلنا الجنة

ونجنا من النار، وأصلح لنا شأننا كله، اللهم بارك لنا في أسماعنا

وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا،

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم،

واجعلنا شاكرين لنعمتك مُثنين بها عليك قابليها منك وأتممها علينا، اللهم

اجعل خير عمرنا آخره، وخير عملنا خواتمه

وخير أيامنا يوم نلقاك فيه ... آمين والحمد لله رب العالمين.

تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع بإذن الله تعالى

## فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| المقدمة | ٤ |
| قالوا.. أهل الدعوة ليس عندهم العلم اللازم، وهم لا يهتمون بطلب العلم، وكيف تصح دعوتهم بغيره، ، ومع انتشار الجهل فيهم إلى ماذا سوف يدعون؟، وفاقد الشيء لا يعطيه، كما أنهم لا يتكلمون إلا فى توحيد الربوبية، ولايعرفون توحيد العبادة أو الألوهية، وليس لهم اعتناء به، مع أنه أساس دعوة كل الرسل، وهو خلاصة التوحيد... | ١١ |
| وقد قيل ليحيى بن معاذ –رحمه الله تعالى-: متى يكون العبد مخلصًا؟ فقال: إذا صار خُلقه كخلق الرضيع لا يبالي من مدحه أو ذمه.. | ١١ |
| وكان بشر الحافي – رحمه الله تعالى- يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا كانوا لا يُعلِّمون أحدًا حتى يروِّضوا نفسه سنين كثيرة ويظهر لهم صلاح نيته. | ١١ |
| وكان عبد الرحمن بن القاسم –رحمه الله- يقول: خدمت الإمام مالكًا رحمه الله تعالى عشرين سنة، فكان منها ثمانية عشر في تعليم الأدب، وسنتان منها في تعليم العلم، فياليتني جعلت المدة كلها في تعليم الأدب. | ١٢ |
| ونقول مجيبين على ذلك، مستعينين بالله تعالى...أصل المقصود من عمل الدعوة هو إقامة المسلمين وعموم البشرية على كل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، وأن تكون دعوتنا سبيلا لاستقامة الأمة على الإسلام الكامل علميًّا وعمليًّا... | ١٢ |
| النبي ﷺ قد تعوذ من العلم الذي لا ينفع وهو العلم الذي لا يكون دافعًا لأن يعمل به صاحبه | ١٢ |
| الخروج في سبيل الله تعالى والدعوة إليه، من أعظم أعمال الدين،فهو جهد إقامة حقيقة الإيمان، الذي به تقوم حقيقة الدين كله في العالم كله إلى يوم القيامة.. | ١٢ |
| قد يقوم البعض الآن بالاجتهاد في نشر الطلب على تحصيل علوم الشرع، مفترضين أن هذا | ١٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الأساس الإيماني موجود، فيقومون بتعمير الظواهر والصور، مع عدم الحرص على أهمية أن يدخل هذا الإيمان الحقيقي في قلوب الأمة أولاً، والذي يتوقف عليه تحقق مقاصد العلم | |
| فصل: الإيمانُ قَبْلَ العلمِ وقَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ | ١٣ |
| عمل الدعوة إلى الله تعالى يُورِث الإنسان بالمحافظة عليه الحذر والاحتياط، وبالالتزام بآدابه وأصوله يقذف الله تعالى في القلوب نور الإيمان ثم نور التقوى | ١٤ |
| الإنسان حتى يدخل الجنة لابد له من تحصيل الإيمان والأعمال الصالحة، حتى يكون متأهلا لأن تتوجه إليه رحمة الله تعالى "ان رحمة الله قريب من المحسنين "... | ١٤ |
| الله تعالى أنزل لنا الدين والشرائع لتزكية نفوسنا، وعلق الله تعالى فلاحنا في الدنيا والآخرة على هذه التزكية | ١٤ |
| طلب الخليل إبراهيم عليه السلام الزكاة لهذه الأمة، ودعا لها بالتزكية من الله تعالى | ١٤ |
| جعل الله عز وجل عُلُوَّ كل أحد على قدر إيمانه، لذا قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ | ١٥ |
| الإيمان هو الرتبة الأولى، ولابد منها ثم إذا جاء العلم فهذه هي الرتبة الثانية فوق الرتبة الأولى. | ١٥ |
| الإيمان هو الأساس والأصل، في العلم النافع والتعليم، وهو الذي يكون ثمرته الخشية وطول البكاء | ١٥ |
| بهذا الإيمان والابتداء به، أفلحوا وأنجحوا لا ليجادلوا به العلماء، ولا ليماروا به السفهاء، وهي المقاصد المذمومة في طلب العلم، والطرق المحمومة بعيدًا عن التقوى | ١٦ |
| هذه الألفاظ والرموز بمجردها لا تحتوي على حقيقة العلم، لأن حقيقة العلم ليس في ترديد هذه الألفاظ بمفردها، بل أن نتيقن على موعودها.. | ١٦ |
| الذين أوتوا العلم هم الذين يتيقنون على مواعيد الله عز وجل في نصوص الوحي الإلهي | ١٦ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| الاعتراض بالمسائل، وإثارة المشكلات، والتشغيب بها، إنما ينشا عن الجهل، وله أربعة أقسام، ثلاثة لا علاج لها، وواحد يمكن علاجه | ١٧ |
| بعض أوصاف أصحاب هذه المقاصد المذمومة في طلب العلم | ١٩ |
| إذا طلب العبد العلم ليعمل به كسره العلم وإذا طلب العلم لغير العمل زاده كبرًا. | ١٩ |
| إذا جاء العلم بدون حقيقه الإيمان يأتي فيه الفساد ،حتى يقال هذا علاّمه وهذا كذا وحياته مغايرة لأوامر الدين، ولا يوجد فيها أحكام شريعة المسلمين... | ٢٠ |
| العلم بدون حقيقة الإيمان والجهد على تحصيله، لا يزيل الظلمة التي في قلب صاحبه، ولا يُنورها بأحكامه، ويتأول في الآيات والأحاديث اتباعًا لهواه، وقناعاته الذاتية | ٢٠ |
| للنجاة من ذلك لابد أن نجتهد على أن يأتي فينا نور العلم الذي نوفق به للعمل أثناء وقت العمل | ٢٠ |
| "من عمل بالرواية ورث علم الدراية ومن عمل بعلم الدراية ورث علم الرعاية ومن عمل بعلم الرعاية هدي إلى سبيل الحق". | ٢٠ |
| سمع الصحابة رضي الله عنهم الأحاديث من النبي ﷺ، ولوجود أساس الإيمان، حملهم إيمانهم الذي كان كالجبال، على العمل بما سمعوا، فرزقوا علم الدراية | ٢٠ |
| قال علي بن الفضيل لأبيه الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى "ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ. قال: يا بني وتدري لما حلا؟ | ٢١ |
| ليظهرن الإيمان حتى يُردَّ الكفر إلى مواطنه، ولتخاضَّ البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن ويقولون قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟ | ٢١ |
| لما ابتدءوا بتعلم القرآن قبل الإيمان، كان علمهم صورة لا حقيقة، فابتدروا الحروف وألفاظ القرآن فأتقنوها، وطرحوا مقاصد الآيات، والأحكام النيرات فلم يعظموها | ٢١ |
| توهموا الظنون في بسطاء الأمة وعوامها، وعكفوا على الأماني كما قال الله تعالى فيمن كان قبلهم ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي إلا قراءة وتلاوة | ٢٣ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| معهم الدعاوى العريضات، فهم العلماء وغيرهم الجهلاء وهم فيصل الإيمان والكفر، فالموافق لهم هو المؤمن، والمخالف لقولهم فاقد للإيمان.. | ٢٣ |
| صار يُسمى المجادل المتكلم عالمًا، والقاص المزخرف لكلامه عالمًا، وذلك لكون السامعين هم العوام الذين لا يستطيعون التمييز بين العلم والكلام | ٢٣ |
| هُجرت سيرة وحياة الصحابة رضي الله عنهم في الأمة، فلم يتبين الناس مخالفة هؤلاء لصفات الصحابة رضي الله عنهم وهديهم... | ٢٣ |
| التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق كل ذلك من آثار البطر والأمن وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به | ٢٥ |
| نحن إلى الآن ما اهتممنا لتعلم الإيمان الذي يثمر فينا، تعظيم قدرة الله تعالى ووعده ووعيده، واليقين على العلم الإلهي الشريف | ٢٦ |
| لذلك نحن نسأل في طلب العلم نبدأ بالتزكية والإيمان قبل العلم ؟؟ أم العلم قبل الايمان | ٢٧ |
| بدأ سبحانه و تعالى في إنعامه ومنته على هذه الأمة ، بالتزكية أولا، وترسيخ الإيمان الناتجين عن تلاوة الآيات فيها، قبل تعلم العلم والحكمة | ٢٧ |
| بتلاوة الآيات المكية من النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم زكت قلوبهم بالإيمان، وطهرت من دنس الكفر والعصيان، وتنورت وتأهلت لاستقبال العلم والحكمة | ٢٧ |
| قول الامام ابن تيمية : فاستماع آيات الله والتزكي بها أمر واجب على كل أحد فإنه لابد لكل عبد من سماع رسالة سيده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذي هو أصل الإيمان ولابد من التزكي بفعل المأمور وترك المحظور | ٢٩ |
| قول الامام ابن تيمية : وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالمًا بالكتاب لفظه ومعناه، عالمًا بالحكمة جميعًا | ٢٩ |
| إذا لم تكن مع العامة القدرة على النظر والاجتهاد في طلب علم المسائل الفرعية، لم يكن طلبها واجبًا عليهم للتعذر **"والأمر إذا تعذر سقط"** | ٣٠ |
| ليس المقصود من العلم العمل فقط، بل المنشود منه ومن العمل تحصيل الإيمان | ٣٤ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| غالى بعض المتكلمين، فزعم أن من لم يعرف الله تعالى بالأدلة، والبراهين التي حرروها فإنه كافر، فيلزم من ذلك تكفير أكثر المسلمين، ومنهم آباؤه وأسلافه | ٣٥ |
| أنكر ذلك الجمهور حيث قالوا: لا يشترط معرفة الإيمان والعقائد بالأدلة التفصيلية على عموم الأمة والبسطاء، بل يكفى الدليل الإجمالي | ٣٥ |
| مثال يبين مذهب جمهور العلماء، وقولهم الراجح في هذا.. | ٣٥ |
| على هذه الطريقة كثير من المعاصرين، حيث زعموا أن إيمان المسلمين لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال بالأدلة التفصيلية | ٣٦ |
| معلوم أن رجحان القول باجتهاد لإمام من الأئمة في جانب، لا يلزم منه رجحانه في هذا الجانب عند إمام آخر | ٣٦ |
| هم جمعوا مع عموم الأمة، التي ضيقوا عليها رحمة الله الواسعة، الكثير من بسطاء أهل الدعوة، لأنهم بزعمهم لم يعرفوا الله بالطرق التي سلكوها والاصطلاحات التي رددوها | ٣٦ |
| قالوا لهم أضعتم أعماركم في هذه الدعوة العقيمة، و لم تتعلموا أدلة التوحيد؟ فأين علمكم قبل دعوتكم؟، وأين علمكم ومعرفتكم قبل بلاغكم؟ | ٣٦ |
| رد الإمام الباجي على من قال أن النظر والعلم أول الواجبات ،بأن ذلك مخالف لإجماع المسلمين في جميع الأعصار... | ٣٧ |
| لو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحل لكم قتلنا، فأخرونا حتى ننظر ونستدل. | ٣٨ |
| قول الامام ابن تيمية : **ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق فكيف يُكلف العلم بها؟** | ٤١ |
| من ظن أن مدرك الإيمان الكلام، والأدلة المجردة، والتقسيمات المرتبة، فقد أبدع حد الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده، عطية وهدية من عنده | ٤٢ |
| الكلام المحرر على رسم المتكلمين، يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل، ليعجز عنه العامي، لا لكونه حقًا في نفسه. وربما يكون ذلك سببًا لرسوخ العناد في قلبه | ٤٣ |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ٤٤ | الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدًّا مشرف على التزاول بكل شبهة، بل الإيمان الراسخ إيمان العوام، الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع |
| ٤٦ | ما ذهب إليه جماهير الأئمة من أن العامة من بسطاء الأمة، إذا اعتقدوا دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردد ولا شك فيه، كفاهم ذلك وهم مؤمنون موحدون |
| ٤٨ | قول الامام الزركشى عن المتكلمين: أعرضوا عن ورع الألسنة، وأرسلوها في صفات الله تعالى بجرأة وعدم مهابة وحرمة، ففاتهم ورع سائر الجوارح، والإنسان كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فإذا خرب جانب منه تداعي سائره إلى الخراب |
| ٤٩ | ها هو الإمام ابن تيمية يقرر أنه ليس في الشرع ولا في العقل، ما يدل على أنا لابد أن نعلم كل ما هو ثابت له تعالى من الأسماء والصفات، كذلك ليس كل من جهل بعض أسماء الله وصفاته يكون كافرًا |
| ٥٠ | الجهل بالصفات ليس جهلاً بالموصوفات، لأن العبارات قد تختلف، والألفاظ قد تتنوع، ولكن المُشار إليه واحد، والمقصود المنوه به لا يتعدد أو يختلف |
| ٥١ | الجهل بالصفة ليس جهلا بالموصوف مطلقًا بل جهل به من بعض الوجوه، ومن ثم لا يكفر أحد من أهل القبلة عند ذلك |
| ٥١ | قرر الأئمة أن عموم الأمة وبسطاءها ومنهم أهل الدعوة، قد جعل الله تعالى الواجبات العينية في حقهم مما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه، من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، وجعل الألفاظ المعبرة عن هذه الواجبات العينية مما يفيد معنى واحدًا |
| ٥٢ | ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ قال الماوردي: وفيه وإن كان الرسول عالمًا بالله ثلاثة أوجه |
| ٥٣ | ذهب الإمام السيوطي في تفسير الأمر بالعلم في هذه الآية، بالثبات على علمه صلى الله عليه وسلم بربه وهو العلم النافع |
| ٥٣ | هل المنفي في لا إله الا الله المعبود بحق أو المعبود بباطل؟ |
| ٥٣ | المعبودات الباطلة لم تُنف إلا من حيث كونها معبودة بحق، فلم يُنفَ في لا إله إلا الله إلا المعبودُ بحق غير الله تعالى |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال مالك محال أن نظن بالنبي ﷺ أنـــه علـــم أمتـــه الاستنجاء و لم يعلمهم التوحيد | ٥٤ |
| فصل: العلم الواجب ما هو؟ | ٥٦ |
| الله تعالى أعطانا هذه الحياة القصيرة للتمرين والتدريب على حياته صلى الله عليـــه وسلم، لأنها المثال الذي ارتضاه الله تعالى من جميع الخلق ليعرفوه من خلاله | ٥٧ |
| كثير من الناس أتوا ورحلوا من هذه الحياة الدنيا، و لم يتعرفوا على سُنَّة واحدة من سُنن النبي صلى الله عليه وسلم المعظَّمة | ٥٨ |
| هم لم يوجهوا نظرهم ولو مرة واحدة لحياته الزكيـــة الشـــريفة، حـــتى الإرادات والمقاصد شردت بعيدًا عن غايات رسالته وأساس بعثته.... | ٥٨ |
| بدون أي استثناء فأعظم ما ينتظر أي إنسان هو مصير آخرته، لأنه لابد لكل أحد من الخروج إلى هذه الدار الآخرة | ٥٨ |
| من وصل حياته في الدنيا بحياة سيد البشرية صلى الله عليه وسلم، وصلته الملائكـــة عند الموت وتترلت عليه تثبته وتبشره وتُحسن قوله في الدعوة إلى ربه ومولاه | ٥٨ |
| وما زالت هذه النيات والمقاصد تنتظر أصحابها، ليحملوها إلى يوم القيامة إلى سائر البشرية، وليتحقق قيام هذه الأمة المحبوبة على مقصد وجودها، وأساس بعثتها.. | ٥٩ |
| من أجل هذه الأهمية القصوى لتعاليم الدين ، سعت الأقدام لتشق طريقها إليـــه ، وقامت السواعد لرفع راياته ، فهو منار السبيل ، والأثر الجميل في الدنيا والآخرة | ٦٠ |
| ما هو المقصود بهذا العلم الذي هو فريضة ؟ وهل ينطبق على أي علم؟ أم هو علم موصوف على الخصوص ؟! | ٦٠ |
| العلم الواجب **هو علم العمل الذي هو مشهور الوجوب، وهو الذي يتوقع وقوعه على القرب غالبًا** | ٦٥ |
| العلوم الشرعية المقصودة بالبيان : هى محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها | ٦٥ |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| | شرعية وتكون مذمومة فتنقسم الى المحمودة والمذمومة . |
| ٦٥ | العلوم المحمودة لها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهى أربعة أضرب |
| ٦٨ | **ما قرره الإمام برهان الإسلام الزرنوجي ( تلميذ صاحب الهداية) في كتابه القيم تعليم المتعلم طريق التعلم** |
| ٧٣ | قول الإمام مالك عندما سئل: « **ما تقول في طلب العلم ؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه** ». |
| ٧٣ | من أجل هذا كان عمل الدعوة والخروج في سبيل الله لنشر فضائل الأعمال في الأمة ، حتى يأتي في المسلمين الطلب لتعلم علم الدين في كل فرد منهم |
| ٧٨ | ترتيب علم الدين ليس فيه اختراع ، فلو كان من يطلبه من العوام ، فالعامى له فى ذلك طريق .. |
| ٧٩ | إن كان يريد التخصص، فله طريق آخر على ترتيب الخواص ، ولابد له من شيخ متخصص، ينقله من مرحله إلى مرحله، على حسب حاله، وعلى حسب همته وطلبه |
| ٨٢ | بعض الفتاوى من غير المؤهلين ضررها كضرر القتل ، وأصحابها في وصف صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم قَتَلَة، زجرا وتهديدا لمن هذا حاله من أمة الإسلام |
| ٨٣ | المنتقدون على أهل الدعوة عدم التعلم، والواصمون لهم بالجهل، هل يقصدون بذلك فرائض العين، من واجبات الإيمان والطهارة، والوضوء والصلاة والصوم وغير ذلك.. |
| ٨٣ | أم يقصدون فرائض الكفاية وهي القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين، من معرفة علم المسائل والفتوى والخلاف والتفسير والحديث... إلخ |
| ٨٣ | تفاصيل زيارة لإحدى البلاد الإسلامية، غير الناطقين باللغة العربية،عندما تم ترتيب زيارة لنا مع مسئول كبير، ممن يشرف على الشئون الدينية والمساجد |
| ٨٤ | قول هذا المسئول: لماذا أهل الدعوة لا يحسنون الخطابة، وتجويد القرآن، وغير ذلك من الأحكام |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| مباحثة هامة وإجابات وافية مع هذا المسئول حول حقيقة عمــل الــدعوة وضــرورته وأهميته.. | ٨٤ |
| نحن أيضا سألناه : قبل أن يخرج هؤلاء في الدعوة، أين كان إيمانهم؟ وأيــن كــان قرآنهم؟ وأين كانت صلاتهم ؟!.. | ٨٤ |
| الدعوة لها فضل كبير في تغيير هؤلاء، ونحن لم نر بدايتهم قبل الدعوة كيف كانت، كذلك نحن لا نتخيل قبل الدعوة، ما مدى البعد والحيرة الذي كان في حياتهم | ٨٤ |
| السؤال الهام: أيهما يجب أن يُقدم عند المسلم ،فرض الكفاية أم فرض العين ؟ | ٨٧ |
| هل احياء حقائق التوحيد وفطرة العبودية، واخلاصها لله عز وجل وحده فرض عين أم فرض كفاية..؟ | ٨٨ |
| الإنصاف يقتضي إذا أردنا المقارنة، بين بسطاء أهل الدعوة، وغيرهم مــن ســائر المنتسبين إلى العمل الإسلامي، أن نقارن النظير بنظيره... | ٨٩ |
| الثابت والمتيقن عن جميع مشايخ وعلماء الدعوة، هو منع غير المجيد لتلاوة القرآن وقراءة الحديث، من التعرض لهما أثناء كلامه | ٩١ |
| هذا الضرر إن وقع مع ذلك من البعض، لا يزال بضرر أعظم منه، وهــو إيقــاف الدعوة ومعاداة أهلها، ومنع أصحابها من أداء أمانة النبوة | ٩١ |
| الضرر يزال، ولكن لا بضرر، والضرر يزال، ولكن لا يزال بالضرر، خاصة إذا كان الأمر يتعلق ببعض المنتسبين إلى الدعوة لا إلى جميعهم | ٩٢ |
| فقه المآلات موازنة بين مصلحتين أحدهما مستقبلية والأخرى حاضرة، وموازنة بين مفسدتين،أحدهما مستقبلية وأخرى حاضرة | ٩٢ |
| العوام الذين يقعون في الخطأ عند خروجهم، لا يتم علاجهم بمنعهم، وإنما يتم الشفاء بتعليمهم وإرشادهم في داخل عمل الدعوة | ٩٣ |
| النفرة من المعاصي والتوحش من المخالفات، والأنس بالطاعات، هذه الصفات تأتي | ٩٣ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| فينا بالبيئة الصالحة، من الدعوة إلى الله تعالى والتعليم والتعلم والعبادات والذكر | |
| فصل: زعمهم أن أهل الدعوة لا يعرفون توحيد العبادة أو الألوهية | ٩٥ |
| الداعي إلى الله تعالى هين لين سهل، يستحضر خلال دعوته قيمة عمل الدعوة إلى الله عز وجل والدلالة عليه، المتمثل في خدمة هذه الأمة المحبوبة المجتباه عند الله | ٩٦ |
| الله تعالى بفضله وعونه وتوفيقه منَّ عليه بأن يخدم هذه الأمة، التي جعل فيها خاصية المقصود له سبحانه، وهو غلبة الحق وزهق الباطل | ٩٦ |
| عصم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة في اجتماعها من الخطأ والزلل وإذا تحقق الجهد من هذه الأمة على الحق بحقيقته، فالله عز وجل يزهق بها الباطل | ٩٦ |
| عمل الدعوة إلى الله تعالى هو وظيفة الأنبياء ، والله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظ دينه، ومن حفاظة الدين حفظ من يدعو إلى هذا الدين | ٩٦ |
| هذا السبيل الله تعالى أكرم به الأمة بأن أقامه في العلماء ،وبدأ به العلماء ،فخرج حلوا صافيا ، مصلحة ومنفعة لأمة النبي صلى الله عليه وسلم لا مفسدة فيها... | ٩٦ |
| الله تعالى جعله على أوثق قواعد الإسلام، ولكن كثيرًا من الناس نظروا إلى بعض من يتحرك فيه، وفهموا حركتهم على غير مرادها | ٩٧ |
| بالغ البعض في الحط على أهل الدعوة، وزعم أن عملهم فاقد للركن الأصيل فيها، والأساس الأول لها، وهو الدعوة لنشر توحيد العبادة أو الألوهية، الذي هو زبدة الرسالة ،وأساس عمل الأنبياء | ٩٧ |
| نقول: أهل الدعوة هم القائمون بالدعوة إلى العمل بتوحيد الألوهية والعبادة في أنفسهم أولا ، ثم في عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم | ٩٧ |
| لا نقول هذا القول لشيء مزعوم، بل نقوله بيقين، ونحن نقدم بين يديه لواقعة حدثت ،نستخلص منها ما أردنا من برهان، وندلل بها على ما أسلفنا من أحكام .. | ٩٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| قصة الشيخ الذى كان يعطي درسا في التوحيد، وزعم إن العقيدة التي يتعلمها أهل الدعوة في خروجهم هي عقيدة المشركين... | ٩٩ |
| إدعاء هذا الشيخ: إن من يتعلم، أو يدعو الناس إلى أن يعلموا أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، أن هذه هي عقيدة المشركين ،ويقسم على ذلك! | ٩٩ |
| ثبت إسلام المسلمين بالأمر القطعي اليقيني، بالتلفظ بالشهادة، فهذا اليقين لا يزول إلا بيقين مثله ، لا يزول بالظنون، ولا بهذه الكلمات التي تقال من هنا وهناك. | ٩٩ |
| هؤلاء قرأوا بعض الكتيبات، ثم أصبحوا يتكلمون بهذه الكلمات ،ثم يُخرجون من شاءوا من الإسلام ،ويدخلون من شاءوا، بعمومات الأدلة وبتلفيق النصوص | ١٠٠ |
| هم غالوا في حشد الآيات التي تؤدي إلى بغض المسلمين وهجرهم وتكفيرهم، والتي نزل غالبها في الكفار وغير المسلمين ، مع تحريم الشارع لكل ذلك | ١٠١ |
| فى ذات الوقت هم أهملوا وأسقطوا المئات من النصوص التي تحض على إكرام المسلم ، وحفظ حقوقه ومحبته ، وحرمة ماله وعرضه ودمه مع أمر الله بها | ١٠١ |
| إذا كان الجهل بوجود الصانع الخالق، أو صفاته العلى هو أصل الكفر، لأنه انتهاك لحرمة الربوبية فإن إثبات ذلك لله عزوجل وتعليمه من أهل الدعوة هو أصل التوحيد | ١٠١ |
| بخلاف من زعم أنه عقيدة المشركين ، ووصفه بذلك مثل هذا الشيخ ومن هو على طريقته ، ممن دأب على التشغيب على المؤمنين وإثارة الشقاق بين المسلمين... | ١٠١ |
| قول الإمام القرافي وهو يبين خطأ هؤلاء ، في أنوار البروق فى أنواع الفروق:(الفرق الحادي والأربعون والمائتان بين قاعدة المعصية التي هي كفر وقاعدة ما ليس كفر). | ١٠٢ |
| كان الأولى بالعلماء والمشايخ وطلبة العلم ، أن يكونوا أرعى الناس بحفظ وصية النبي صلى الله عليه وسلم في العناية بأمته وتعظيم أمر الله تعالى في حفظ حقوق المسلمين | ١٠٢ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| شرط الله تعالى لصلاح الأعمال، وغفران الذنوب ، الالتزام بالتقوى والقول السديد لا القول الفاسد.. | ١٠٢ |
| يجب على كل مسلم بالإجماع ، أن يعتقد توحيد الله تعالى وتوحده بالخلق والرزق والإماتة والاحياء على سبيل الحقيقة ... | ١٠٤ |
| هل رأيت التوحيد الواجب من أهل الحق بالإجماع ، كيف انقلب عند البعض فصار عقيدة المشركين! | ١٠٦ |
| هل معنى أن يُقر مسلم بتوحيد الربوبية أنه أنكر توحيد الإلوهية ؟ ، هذا من باب تلفيق الأدلة والرجم بالغيب | ١٠٦ |
| هل عبادة الأصنام عقيدة ؟ وهل عند المشركين توحيد ؟وهل الكفر يصلح أن يكون معتقدا وأن يعبر عنه أنه عقيدة! | ١٠٧ |
| من معاني العقيدة أنها شيء معقود، لأنها مشتقة من المصدر عقد، الذي يعني الإحكام والشد والربط | ١٠٧ |
| المشرك عندما تكلم بهذا القول وأجاب لما سئل كما في الآية ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ على أي وجه كانت إجابته؟ وكيف قالها ؟ | ١٠٧ |
| الذي يدعي توحيد الربوبية لهؤلاء، قد أهمل الآيات الأخرى كما جاء في القرآن العظيم ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ | ١٠٨ |
| ليس كل العرب كانوا يجيبون إذا ما سئلوا بالإجابة الأولى ، فيقولون ﴿**الله**﴾ ولكن كانوا على أقسام ، فمنهم من يقر بالصانع ومنهم من لا يقر | ١٠٨ |
| الأصل أن الحكم يؤخذ من مجموع الأدلة لا من دليل واحد، فالاعتماد لا يكون على آية واحدة مع الترك والإهمال لما سواها | ١٠٨ |
| قول الإمام السبكي :« واجمع أهل الحل والعقد أن اللسان لا يكفي ما لم يكن معه | ١٠٩ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| الاعتقاد وقد كانت المنافقون تلفظ ولا تعتقد وهم في الدرك الأسفل من النار » | |
| النبي ﷺ قد حذر أمته من السير وراء الهوى وطاعة الشيطان، في الصولة والتعظم على عموم أمته، وذلك بقوله ﷺ **"من قال لمسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما"**. | ١٠٩ |
| قول الإمام ابن فرحون: قيل معناه فقد رجع عليه تكفيره ، فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير لكونه جعل أخاه المؤمن كافرًا فكأنه كفر نفسه | ١١٠ |
| قول الامام النووي: وقيل معناه أن ذلك يئول به إلى الكفر، يعني أنه يخاف على المكثر من ذلك أن يكون عاقبة شؤمها الكفر والمصير إليه | ١١٠ |
| قول ابن عبد البر: والمعنى فيه عند أهل الفقه والأثر والجماعة النهي عن تكفير المسلم في هذا الحديث | ١١٠ |
| قول الإمام ابن دقيق العيد: وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحدًا من المسلمين، وليس كذلك وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين | ١١٠ |
| إدعاء هذا الشيخ أن من يتعلم في دعوته أن الله هو الخالق الرازق بأن « هذه عقيدة المشركين » بعيد عن ظاهره لأن ظاهره توحيد الله بأفعاله ، وظاهره الإيمان | ١١٣ |
| قوله إن « هذه عقيدة المشركين » واستدلاله الخاطئ على ذلك ببعض الآيات، تأويل لجلب مفسدة، والتأويل انما يصار اليه لدفع مفسدة، لا لجلبها ... | ١١٣ |
| إن أول وأهم ثمرات العلم أن يراجع المرء حياته ويحاسب نفسه، بأن يعلم ما فُرض عليه من الأحكام والأوامر فيلتزم بها، ويعمل على تمامها وكمالها | ١١٣ |
| الأئمة رضي الله عنهم نصوا ، على عدم إكفار المسلم بقول تلفظ به ، حتى تنسد أمام قوله كل أبواب المعاني الصحيحة ، فكيف إذا كان قوله هو حقيقة الإيمان | ١١٤ |
| أكد أئمتنا أنه لا ينبغي تخطئة كلام أمكن إصلاحه، ولو باحتمال ضعيف ، فكيف إذا الكلام صحيحًا لا شبهة فيه ، منضبط مستقيم لا غبار عليه... | ١١٤ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| نص الأئمة رحمهم الله تعالى على أنه لا يفتي بتكفير مسلم ، أمكن حمل كلامه على محمل حسن ، أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة .. | ١١٤ |
| الأئمة رضي الله عنهم أفتوا بخلاف ظاهر اللفظ إن كان ظاهره يحمل معنى قبيحا ، وذلك حقنًا للدم على قدر الوسع والطاقة | ١١٥ |
| اذا كان الأصل فى قواعد شريعتنا، أن لازم القول ليس بقول ، فهل لازم القول بتوحيد الربوبية هو الكفر بتوحيد الألوهية؟ | ١١٦ |
| إذا كنا لا نستطيع أن نكفر الناس، بالأقوال التي تؤدي لوازمها إلى الكفر، حتى يكون ذلك هو مرادهم وقصدهم، فكيف نكفر عموم الأمة بالأقوال التي تؤدي لوازمها إلى حقائق الإيمان! | ١١٦ |
| بين أئمة الدين هذه القواعد في فتواهم، التي حفظوا بها حق الإسلام والكلمة، وحموا بها عموم المسلمين، وبعض الأمثلة والفتاوى منهم فى ذلك.. | ١١٦ |
| بين الأئمة رضي الله عنهم خطأ من ألزم المسلمين ما لا يقصدونه من لوازم أقوالهم، وهو ما ذكره العلامة ابن حجر في الإعلام بقواطع الإسلام.. | ١١٨ |
| المشركون عندما اعترفوا بالله ربًا وخالقًا، ورازقًا، لم ينفعهم ذلك ، لأنهم مع اعترافهم بربوبيته انقطاعًا وإفحامًا قد عبدوا معه غيره .. | ١١٨ |
| أهل الدعوة عندما اقروا بالله ربًا وخالقًا وتعلموا ذلك في دعوتهم هل عبدوا معه غيره؟ وهل قدسوا وعظموا سواه.؟ | ١٢٠ |
| عانى المسلمون أشد المعاناة من هذه الطوائف التي غالت في التكفيرعلى غير أسس علمية مع مصادمتهم للكتاب والسنة ووصفهم توحيد بسطاء الأمة بالشرك والكفر | ١٢٠ |
| إذا تقرر في علوم العقيدة وأصول الدين أن توحيد الربوبية هو توحيد الله تعالى بأفعاله، وتوحيد الإلوهية هو توحيد الله تعالى بافعال العباد ، فلا بد أن يكون ذلك | ١٢١ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| على سبيل التلازم التام.. | |
| لا يصح الإيمان مع الانفكاك بينهما، فلو أقر أحد بربوبية الله تعالى وأنـــه الخـــالق الرازق، ثم عبد معه غيره، كان كافرًا بالاتفاق | ١٢١ |
| إذا أردت الحق والحقيقة فإن هذا الخلل في التنظير ، الذي يقع من البعض ، نتيجته وثمرته تكفير الأنبياء عليهم السلام، الذين دعوا أقوامهم بالدلالة على الربوبية .. | ١٢٤ |
| هل يستطيع أحد الآن أن يقول أن سيدنا إبراهيم عليه السلام يـــدعو إلى عقيـــدة المشركين ، عندما قال « **ربي الذي يحي ويميت** » .. | ١٢٤ |
| هذا الأخ من أهل الدعوة عندما قال أمام هذا الشيخ نحن نتعلم أن الله هو الخـــالق الرازق المحى المميت ، قال له هذه عقيدة المشركين | ١٢٥ |
| هذه الآية نص في الدعوة بتوحيد الربوبية وهي نص أيضًا في الاحتجاج على منكري الإلهية بإثبات الربوبية | ١٢٥ |
| أهل الدعوة لا يقيمون توحيد الألوهية وتوحيد العبادة في أنفسهم ، وفي عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل في عموم البشرية .. | ١٢٨ |
| نسأل من يتهمهم..هل تراهم يفعلون ذلك أم لا تراهم ؟ ، أم أنت تبحث فقط عن الاصطلاحات، أو تظن أن التوحيد في ترديدها، فتقيم الألفاظ وتسقط المعاني... | ١٢٩ |
| النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل بيننا وبين بعضنا البعض سياجا، لابد من حفظه ، وهنالك حقوق للإسلام لا يصلح أن نهدرها.. | ١٢٩ |
| قول الإمام الشوكاني: فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر ، لا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام ولا اعتبار بصدور فعل كفر لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر.. | ١٣١ |
| انظر إلى من يأتي إلى مسلم داع إلى الله يصلي معه الصلوات ، ويقول له أنا أثبت لله تعالى صفاته من الخالقية والرازقية فيسمى إيمانه وتوحيده هذا عقيدة مشركين | ١٣٢ |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ١٣٢ | هؤلاء الذين يتكلمون بهذه الكلمات يجترئون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعرفون خطورة هذا عليهم ، وخطورة هذا على الإسلام، وعلــى أخوة الدين و حقوق المسلمين. |
| ١٣٢ | قول الإمام الشوكاني : « فلا بد من شرح الصدر بالكفر وطمأنينــة القلــب بــه وسكون النفس إليه » |
| ١٣٣ | من القواعد التي قررها أئمتنا في هذا الباب، أنه من أطلق لفظًا لا يعرف أو يقصد معناه لم يؤاخذ بمقتضاه |
| ١٣٣ | من قواعد ديننا عدم التكفير بالمحتملات ، لأن اللفظ إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال. |
| ١٣٦ | قول الإمام ابن القيم: إذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكــم. هذه قاعدة الشريعة وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته |
| ١٣٦ | قول الإمام ابن القيم: وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولغو اليمين. فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده بالتكلم في حال منها لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذ به » |
| ١٣٦ | انظر إلى سلطان العلماء العز بن عبد السلام وهو يوضح كيــف نرعــى الحقــوق الإسلامية بسياج الحفاظة والعناية ، خاصة عند عدم قصد المعاني المذمومة |
| ١٣٧ | ما قرره العلامه عليش وهو يؤكد ما سبق عن سلطان العلماء في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك |
| ١٣٨ | على أننا نذكرٍ من يغالي في هذا الباب بسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وســلم وصحيح سنته في ذلك مع أحب الناس إليه |
| ١٤٦ | ونختم بالإمام الشافعى رحمه الله تعالى وهو يقرر أن أحكام الله وأحكام رسوله تدل على أنه ليس لأحد أن يحكم على أحد إلا عن طريق الظاهر |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| قال الامام الشافعي: ولا يعلم السرائر إلا الله عز وجل والظنون محرم على الناس ، ومن حكم بالظن لم يكن ذلك له.. | ١٤٧ |
| وقد نهى الله تعالى عن اتباع ما لا دليل عليه ، وما ليس عليه برهان وأمر بالتثبت والتحري والتبين في الأنباء والأخبار.. | ١٤٧ |
| نقولها في نهاية الأمر لمن وصف الدعاة الموحدين، بأن عقيدتهم عقيدة المشركين ، لأنهم يتعلمون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، ويثبتون لله تعالى صفاته .. | ١٤٧ |
| فصل: آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها | ١٥٠ |
| قد يُقيم الإنسان نفسه مُقَعِّدًا ومؤصِّلا للآخرين، ومناظرا عن مسائل الدين، يزعم أن غرضه من المناظرات كشف اللثام عن الحق | ١٥٤ |
| لم يدر أنه لا يكون على الوصف الذي يدعيه إلا إذا كانت هذه المناظرات على بابها، متحققة فيها أركانها وشروطها، وسننها ومقاصدها... | ١٥٤ |
| ذكر لها الإمام الغزالي ثمانية شروط وعلامات تبين وتظهر من يناظر لله تعالى ومن يناظر لعلّة | ١٥٤ |
| بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف | ١٥٤ |
| بيان آفات المناظرة ومايتولد منها من مهلكات الأخلاق | ١٦٤ |
| من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة | ١٦٤ |
| العلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد | ١٧١ |
| واقعة حدثت مع ثلاثة من طلبة العلم في إحدى البلاد ، كمثال يصدق على أغلب المسائل | ١٧٧ |
| أنتم وأنتم مُدَّعون ليس عندكم بينة على دعواكم بالبدعية وعدم المشروعية، وهذا في حد ذاته خطر كبير لكونكم تدعون أشياء، ثم تلزمون الغير بإثبات دعواكم أو | ١٨٠ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| نفيها، والأصل أن البينة على المدعي | |
| هل كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بدعة وضلالة؟ | ١٨٠ |
| النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد على أصحابه رضي الله عنهم في حياته أشياء أحدثوها، ولم يفعلها هو صلى الله عليه وسلم، وما وصفها بالبدعة أو خلاف السنة. | ١٨٢ |
| لو كان هذا الدعاء من هذا الصحابي على خلاف فعله صلى الله عليه وسلم بدعة وضلالة مطلقا، أكان يمدحه ويقبله صلى الله عليه وسلم، أم يرده ويدفعه؟ | ١٨٤ |
| هل أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم الأصل العام، أم أَقَرَّ خصوص هذا اللفظ؟ وهل قبل منه حكم الخطاب أم لفظه.. | ١٨٥ |
| رد الإمام القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسوغ لمن علَّمه الدعاء مخالفة اللفظ | ١٨٨ |
| كيف انتشر بيننا النزاع والخلاف، وكيف تأصلت فينا أسس الخصومة، وذلك لكون النيات والمقاصد لطلب الحق، ومحبة ظهوره قد شردت منا... | ١٩٠ |
| المتبع للأئمة المجتهدين، لا يخرجه هذا الاتباع، عن كونه متبعا للكتاب والسنة، إذ لا معنى لاتباعهما إلا اتباع ما دلا عليه من الأحكام الفقهية، المستنبطة منهما بواسطةالإجتهاد ممن حصَّل درجته وهم الأئمة المجتهدون... | ١٩٣ |
| أقوال أئمة السلف المجتهدين، المأخوذة من الكتاب والسنة، إنما هي نوع من البيان والتفسير، لآيات أحكام الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. | ١٩٣ |
| الذي يدعي الثبوت أو عدم الثبوت، هو من أحاط بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ليتمكن من تحقيق هذه الدعوى...! | ١٩٤ |
| المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل: إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم.. | ٢١٤ |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ٢١٤ | يا أيوب أما كان في عظمة الله وذكر الموت ما يكل لسانك ويقطع قلبك ويكسر حجتك.. |
| ٢١٤ | يا أيوب أما علمت أن لله عبادا أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بكم وأنهم هم النبلاء الفصحاء الطلقاء الألباء العالمون بالله وآياته.. |
| ٢١٥ | لم داخل العلماء هذا الإشفاق الشديد وخافوا من علمهم هذا الخوف كله |
| ٢١٥ | هنالك صفات للإيمان قد لا نراها وهي ضرورية لقبول الأعمال من صلاة وزكاة .. |
| ٢١٥ | أعمال الإيمان لا تقبل إلا بوجود صفات الإيمان، التي أولها إخلاص الوجه لله فيها.. |
| ٢١٦ | عمل الدعوة هو تضحية الشهوات لله تعالى، نضحى بدنيانا لله عز جل ببذل النفس والمال في سبيله، والله تعالى يعطينا ما قدر لنا في خزائنه.. |
| ٢١٦ | الله عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملا، نحن نُلقي البذور، وقد تظهر الثمرة فى حياتنا، وقد يُخرج الله عز وجل الثمرة والنتيجة أحيانًا بعد الموت.. |
| ٢١٦ | في كل الأحوال التي تحيط بنا، إذا كان الفاعلون هم نحن، فتغيير هذه الأحوال مستحيل، أما إذا كانت إرادة الله فهو تعالى يفعل ما يريد.. |
| ٢١٦ | بداية جميع المخلوقات بيده، وإعادة تكوينها إليه، والمثل الأعلى شاهد له في السماوات والأرض بالعزة وعدم المغالبة.. |
| ٢١٧ | نحن إذا قمنا بهذه التضحية في سبيل الله، ويقيننا خالص لله تعالى حينئذ الله عز وجل يُسخر لنا قوى الباطل، إذا أخرجنا خوف الشيء وأثر الشيء من قلوبنا تسلب قوته |
| ٢١٧ | نتحرك بالرحمة للإنسانية كافة وللبشرية عامة، هم الإنسانية في قلوبنا والنصح للبشرية هو ديدننا وعملنا .. |
| ٢١٧ | لا يضيع من آذاننا هتاف النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو بيان لكمال حرصه ونصحه وشفقته ومحبته لهذه الأمة.. |
| ٢١٧ | الإنسان لا يستطيع تكميل شهواته في الدنيا، ولكن مع أمر الله تعالى هو يضحي |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| بالشهوات من أجل تكميلها في الجنة | |
| فصل: الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كل المسلمين علماء بها ومنهم أهل الدعوة | ٢١٩ |
| المنطلق الأول في عمل الدعوة هو إصلاح خاصة النفس على أمر الله تعالى وسُنة النبي ﷺ | ٢٢٠ |
| الذي يخاف في عمل الدعوة على نفسه، ويحرص دائما على إصلاحها، فهـذا الـذي يستعمله الله عز وجل فيه، ويثبته عليه ويحفظه به، ويسهله معه | ٢٢٠ |
| الناظر في بعض أعمال أهل الدعوة، قد يرى بعض الأمور من بسطائهم، التي ظاهرهـا الفساد، مثل تلعثم البعض عند تحدثه، فيظن أن هؤلاء وفق هذه الحالة، علـى خـلاف أوامر الشرع وأحكامه.. | ٢٢٠ |
| هو لم يدر أنه قد خفي عنه مصالح جليلة، وراء ما يرى بحسب الظاهر من حالهم | ٢٢٠ |
| من الأمور ما ظاهره الفساد والكراهة، فيحرمه من لم يتبين المقاصد المحققة منه، والحكمة الخافية فيه، والمصالح التي فُعل لأجلها، مع أن حكمه أنه جائز أو مباح في الشرع | ٢٢١ |
| لا نسلم بذلك الاتهام لأهل الدعوة بكونهم كلهم جهلاء، وإغفال المتكلم للآلاف منهم الذين يُعدون بالتوصيف الشرعي علماء متخصصين | ٢٢٤ |
| هم في دعوتهم ليس لهم دعاية، ولا راية لرجل الدين أو عالم الدين، فمن أصول هذه الدعوة المباركة أنها تدعو إلى عمل الدين، وعمل النبوة، ولا تدعو لرجل الدين... | ٢٢٤ |
| لو كانوا كلهم جهلاء، ما رأينا تحقق هذه المصالح الجليلة للأمة على أيديهم، ولما اندفعت المفاسد بدعوتهم عن المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، دون أخطاء ومصـادمات، وشرور ومواجهات، ولما انسابت معهم أحكام الإسلام بسهولة ويسر على الأمة .. | ٢٢٥ |
| كل هذا لا يكون إلا بتوجيه سديد من علماء أكفاء، ومجتهدين مؤهلين عـالمين بمـا يقدمون وما يؤخرون.. | ٢٢٥ |
| أما وصف المعترض على أهل الدعوة لهم بالجهالة على إطلاقها، فنحن لا نسلمه وندفع | ٢٢٥ |

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| | كلامه فيه، بنصوص أئمة الإسلام، الذين نصوا على علمهم، وخالفوه في وصفه لهم.. |
| ٢٢٨ | الدعوة عامة في أحكامها، واسعة في مقاصدها، فكل أحد في الأمـــة يـــدعو إلى الله ، بحسب ما عنده من العلم ، فالعالم في دعوته بخلاف العامي، ولكن العامي لا يُحرم من الخير، وهو خير الدلالة على الله تعالى، وتعظيمه في آذان السامعين، والدعوة إلى الرسالة |
| ٢٢٩ | الشيء الذي يدعوا إليه أهل الدعوة في كلامهم، هو الخير والإيمان، وما يتعلق به مـــن الواجبات الظاهرة، والجليات المعلومة، التي غالبا كل المسلمين علماء بها.. |
| ٢٣٠ | البعض في باب النهي عن المنكر قد يذمون غير مذموم، والبعض الآخر قد يجاوزن الحد في الشيء ويسرعون بالإنكار إلى كل شيء، لغلبة الجهل عليهم وقلة مجالستهم للعلماء.. |
| ٢٣٠ | ينكرون غير منكر ويتعصبون بالبغضة والهجر في الشيء اليسير، الذي قد يُغتفر مثلـــه، وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق، ولا موسومين بالبشاشة والإنطـــلاق، إذ فـــيهم كزازة وتغليظ على الناس، وفيهم كثرة مقت لأهل البشر والطلاقة.. |
| ٢٣٠ | العلم يبسط ويوسع وتكون معه الأخلاق الحسنة، والآداب والمروآت الواسعة، والعـــالم يضع الأشياء في مواضعها من الناس ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعاذير |
| ٢٣٢ | فصل: آداب طالب العلم في تحصيله |
| ٢٣٣ | الأصل أن نغير اتجاة جهدنا ،فمع العبادة وأهميتها ،لابد أن يكون هناك الـــدعوة إلى الله تعالى ،حتى يحيا فى القلوب عظمة الخالق ،فتحيا بعد ذلك فى الناس عظمة أوامره.. |
| ٢٣٣ | بالدعوة إلى الله تعالى يمن الله علينا بأن نقدم مقتضى ديننا على مقتضى دنيانـــا، نحـــن نجتهد على مقصد وجودنا ،والله تعالى يحيي دينه ويفعل بإرادته كل شي. . |
| ٢٣٣ | اذا قمنا على مقتضى الدين و لم ننغمس بكامل جهودنا على مقتضى دنيانا ،وتيقنا على موعودات الله تعالى ،فالخالق عز وجل بعد ذلك يظهر أمره... |
| ٢٣٤ | حذر أئمتنا رحمهم الله تعالى السالكين في طرق العلم المضيئة ، أن تكون بواطنهم مظلمة بقبيح الصفات، كاسفة بمذموم الأوصاف.. |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الواجب هو إحكام رأس العلم وهو الإيمان بالله تعالى، الذي نتحصل منه عموم صفات التقوى، ويؤدي إلى امتثال الأمر وتعظيم الآمر، والاهتداء إلى الهدى.. | ٢٣٥ |
| العالم الصالح العامل بعلمه، المعظم لجلال وصفات ربه، يصلح بكلمة واحدة أهل بلدة | ٢٣٥ |
| نيات الخروج في طلب العلم .. | ٢٣٦ |
| يتعين على طالب العلم أن يخلص نيته لله، فينوي بعلمه امتثال أمر الله وينوي امتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم | ٢٣٨ |
| ينوي القيام بفرض الكفاية عن المسلمين فيثاب على هذه النيات ثواب الواجب. | ٢٣٩ |
| يقصد به الوصول إلى إتقان عبادة ربه فإن الله لا يعبد بجهل، وعبادة الجاهل في حجره فإذا قام سقطت... | ٢٤٠ |
| ينوي به نصرة هذا الدين بإظهار العلم وقمع الجهل وإظهار السنة وإخماد البدعة | ٢٤٠ |
| آداب المتعلم في تحصيله لعلوم الشرع الشريف، ووظائفه الظاهرة والباطنة | ٢٤١ |
| في الأعمال الصالحة أسرار عجيبة لا يعلمها الإنسان، وفي الأعمال الفاسدة مصائب عظيمة ولكن لا يراها الإنسان.. | ٢٤٩ |
| فصل: العلم الأقصى | ٢٥٠ |
| نحن نحتاج حتى نرى الأشياء إلى الوجود والتكوين والخلق، والله تعالى لا يحتاج حتى يرانا إلى وجودنا، ولا إلى خلقنا أو تكويننا.. | ٢٥١ |
| العالم بخلقه هو وحده القادر على تدبير شئونهم، وعلى تصريف أحوالهم.. | ٢٥١ |
| الله عز وجل أرسل رسله عليهم السلام بالعلم الصحيح الذي هو علم الهدى، علم الخالق | ٢٥٢ |
| حرص أئمة الإسلام عند نصحهم وإرشادهم للأمة، على بيان هذا العلم الأقصى الأرفع المتبوع ، وهو العلم بمالك الملك والملكوت، وصفاته وأسمائه ، وعزته وأفعالة.. | ٢٥٢ |
| هذا العلم هو الغاية لسائر العلوم ، وكل العلوم توابع ومقدمات تراد وتقصد وترتجى من | ٢٥٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| أجل هذا العلم المقصود لذاته لا لغيره.. | |
| المطلوب منا أن نكبر الله تعالى، حتى يخرج من قلوبنا كبرياء الأشياء، ويأتي في قلوبنا كبرياء الله تعالى الذي هو المقصود منا.. | ٢٥٢ |
| هذا الذي نصفه ونشير إليه، من العلم بالله تعالى أو العلم الأقصى، هـو زبـدة علـم التوحيد، من معرفة قيومية الله تعالى على خلقه، ومجارى حكمته، وكمال قدرته.. | ٢٥٣ |
| كل علم موقوف على معلومه، وعلم الايمان واليقين معلومه الله تعالى، ففضله لايحـيط بعلمه الا الله عز وجل وحده.. | ٢٥٥ |
| العلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء والرسل ، لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعـالى والدعوة اليه.. | ٢٥٦ |
| هذا العلم هو مع كل مؤمن موقن حسن الإسلام، وهو درجته عند الله عز وجل، وحاله بين يدى مولاه.. | ٢٥٨ |
| العلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لا يفترقان.. | ٢٥٨ |
| العالم بالله عز وجل يتكلم في علم الإيمان واليقين، وفي علم القرآن والسنة والحث على مصالح أعمال الدين.. | ٢٦٠ |
| أشد الناس حُبًّا لله تعالى هم العلماء به، المعظمون لأمره، والناشرون لسنة حبيبـه صلى الله عليه وسلم.. | ٢٦٠ |
| العلماء بالله هم أحسن الناس أخلاقا، ومن أكثر الخلق دعوة لهذه الأخلاق ونشرها وأحيائها في العالمين.. | ٢٦٠ |
| أعظم هذه الأخلاق للعلماء بالله تعالى محبة التوبة لعموم البشرية وسائر الإنسانية، بمعرفتها لربها وعودتها لخالقها وزكاتها وطهارتها .. | ٢٦١ |
| خاتمة ختم الله لنا بالحسنى.. | ٢٦٢ |
| فهارس الموضوعات | ٢٦٤ |

عنوان المراسلة : ١٣ ش بركات

طومان باي – الزيتون – القاهرة

يُطلب من المكتبات بجوار مركز الدعوة بالجيزة

ت : ٠١٠٦٥٣٣٢٧٦٨




# { من هم أهل الدعوة }

## كلمات مضيئة

## فضيلة الدكتور وهبة الزحيلي

### من كبار علماء الشام ، صاحب كتاب الفقه الإسلامي وأدلته

مارأيكم في جماعة الدعوة والتبليغ؟

جماعة الدعوة والتبليغ هم الآن أمة التبليغ القائمة بفرض الكفاية، وإن كان منهجهم على الطريقة الهندية وهي عرض الإسلام من جانب سلمي، وربما يكون هذا مناسبا في مبدأ الأمر ليدخل الناس في دين الله ثم تكتمل ثقافتهم ومعرفتهم ببقية أحكام الإسلام. فهم إذن يستنون بسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في التفرقة بين المرحلة المكية والمرحلة المدنية

وعلى أية حال: ان هجوم بعض الناس عليهم لا مسوغ له، فهذا منهج أفضل من منهج المهاجمين الذين يتشددون في عرض الاسلام

وهؤلاء الدعاة في غاية الصلاح والتقوى والزهد والتضحية من أجل نشر العقيدة، فلماذا نسال عنهم؟! إلا لعرقلة مسيرة الدعوة والتبليغ، وحسدا من الآخرين الذين يكفرون كما يكفرون أغلب المسلمين غيرهم